روايات الهلال

بيرومباداقام سري دهاران

مثل ترنيمة

قناع هندي لحياة دستويفسكي

ترجمة: محمد عبد ابراهيم

5376

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش

مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

الإدارة
القاهرة: ١٦ شارع محمد
عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ العتبة.
القاهرة. الرقم البريدي ١١٥١١
. تلغرافيا: المصور. القاهرة
ج: ٤٠٤٠
تلكس:
hilal u n ٩٢٧٠٣ Telex
فاكس: FAX: ٣٦٢٥٤٦٩

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com

بريد الاشتراكات: subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة -
لبنان ٨٠٠٠ ليرة -
السعودية ١٢ ريالا-
البحرين ١,٢ دينار-
قطر ١٢ ريالا -
الإمارات ١٢ درهما -
اليمن ٥٠٠ ريال -
فلسطين ٢ دولار

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

الاشتراكات
قيمة الإشتراك السنوى ٩٦,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوربا وأسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

طبع هذا العدد بأحبار باكين

الكتاب: مثل ترنيمة

المؤلف: بيرومبادفام سرى دهاران

المترجم: محمد عيد إبراهيم

التصنيف: رواية

الناشر: روايات الهلال - دار الهلال

رقم الإيداع: ١٧٥٩/ ٢٠١٥

الترقيم الدولى: 978-977-07-16830

مثل ترنيمة

قناع هندىّ لحياة دستويفسكي

بيرومبادافام سري دهاران

ترجمة: محمد عيد إبراهيم

هذه ترجمة كاملة لرواية

Like A Psalm
(Malayalam "Indian" novel)

By: Perumbadavam Sreedharan

Bulbul Books, 1993

وقد أهدى المؤلف حقوق النشر لهذه الطبعة إلى (روايات الهلال)

١

جَفِل دستويفسكى يقظاً عندما دقّت ساعةُ الحائط القديمةُ السابعةَ. وهو يواصل النظر، كانت أشعّة شمس الصباح الليّنة التى تصفّيها فتحات زجاج النوافذ المبقّع تسقط منحرفة. فكّر، يبدو اليوم أن الثلج والبَرَد أقلّ ظهوراً. سُمع صوت عربة خيل مارّة عبر الشارع المُحصب.

طوى دستويفسكى ذراعه اليمنى فوق جبينه، متلبّثاً فى الفراش، يفكّر فى أشياء كثيرة...

ليس للذكريات نظام أو سياق. أو أنى لا أستطيع تذكّر شىء بوضوح. العقل كأنه مأخوذ فى فراغ بدائيّ معتم. فمتى غادرتُ نادى القمار الليلة الماضية؟ متى وصلتُ بيتي؟ ومَن صحبنى فى العودة؟

ما يمكن أن أتذكّره بوضوح الحانة الواقعة جنب الطريق. كانت الواحدة والنصف ليلاً حين وصلتُ هناك. وقد رأيتُ النور المُراق من النوافذ حين دخلتُ. كان هناك أربعة أو خمسة بالداخل وقتئذٍ. لم يبد أيّ وجه مألوفاً. لم

تكن الوجوه، في النور المعتم، واضحةً. كان الساقي نصف نائم. مع ذلك أدرك حضوري فجأة. حدّق فيّ لحظةً، كمن يقول "هل أتيت هذه الساعة المتأخّرة لتشرب على الحساب؟" فمددتُ يدي في جيب معطفي، التقطت روبلاً فوضعته على الطاولة مُحدثاً جلبةً. لم يبد على الساقي التصديق. فكّرت أن أسأله لِمَ يفغر فاهه لي هكذا. لكن ما قلتهُ بديلاً هو أني في عجلةٍ للرحيل. تحرّك الساقي مباشرةً نحو البار، فأخرج زجاجة كونياك وعاد. لم يبد أي علامةَ ألفة ـ أنه قابلني من قبل. بدا أنه يستعدّ ليبلغني أن أكرع بسرعة لأرحل.

جلستُ قربه وبدأت أشرب، وطلبتُ منه سيجارة، بعد فترة هزّ رأسه من دون أن ينمّ عن تعبير بالنفي. ثم سار ناحيتي الشخص الذي كان جالساً بالركن وعرض عليّ سيجارة. كانت سيجارة من تبغ رديء. كما أشعلها لي الغريب الذي استحال صديقاً.

من كان ذلك الغريب؟ لا أذكر. ولا يبدو أني أذكر أني رأيتُه بأيّ مكان قبلها. هل أتعرّف عليه لو صادف بعضنا الآخر في مكان ما؟

ما يقوى في ذاكرتي الآن الطريق المقفرة. حينما سرتُ فيها وحدي تحت سماء رمادية، في ضوء القمر الشبيه بالأبيض، لم أعِ من أين بدأت ولا إلى أين أذهب. يمكن القول إنها كانت تجربة أشبه بالحلم. نعم، كانت شيئاً شبيهاً. تلك الطريق المقفرة التي سرتُ عبرها الليلة السالفة لم تبد كأيّ من طرقات سان بطرسبرج. حين أفكّر في هذا، لا يبدو كأنه حدث الليلة الماضية. ذات ليلة... ذات طريق... ذات زمان...

كنتُ سائراً للوراء عبر الزمن. نحو الأزمنة الأولى. للطريق جمال صدئ؛ نوع من نور كضياء قمر شاحب وصمت راقد في برك على تلك الطريق. حين واصلتُ السير فترة، شعرتُ أنها الطريق إلى القدس...

كان ذلك حين وصل منعطفاً في مكان بين الأزمنة حتى سمع أحداً يصعد السلالم. فمن كان؟

خلال دقائق معدودات كان أحد يطرق الباب. نهض دستويفسكى وفتح الباب، كانت فيدوسيا مَن رآها أمامه. عينا المرأة العجوز مفعمتان بالحب والعطف. مع أنها خادمة، إلا أن دستويفسكى فكّر فيها بشكل مختلف. فأخبرها منفتحاً "أنت تشبهين عمّتي".

وردّت فيدوسيا بالعواطف نفسها. كانت مفعمة بالحب والحدب عليه. وقد دبّت مشاجرة معه وعنّفته مصرّة على أن يصلح أموره.

وهى تقدّم له الشاي، قالت فيدوسيا "ظننتُ أنكَ لم تصح بعد".

فابتسم دستويفسكى فى شحوب.

وقفت فيدوسيا لحظة دون أن يطرف لها جفن، سألته بصراحة:

"هل تذكر متى رجعتَ الليلة الماضية وبأية حالة كنتَ؟"

أحسّ دستويفسكى أن فيدوسيا على وشك أن تعرّضه لمحاكمة مختصرة. فى مثل هذه الأوقات، يُستحسن أن يتصرف بخزى قليل، كمن يعترف بالذنب.

قالت فيدوسيا "سهرتُ إلى منتصف الليل أنتظرك. ثم أطفأتُ الأنوار ورحتُ فى النوم. تأكّدتُ من شيء واحد. أنى آخر من مضى لفراشه فى هذه البناية. ورحتُ في النوم فور أن ارتطمتُ بالفراش. وحين سمعت طرقات على الباب استيقظتُ، لكنى لم أعرف الوقت ساعتها. وكم تبقّى على الفجر؟"

قال دستويفسكى إلى فيدوسيا المستاءة "العجائز أمثالك يحسّون بالنعاس مجرد أن يهلّ الغسق. يظنون أنهم وقت يحسّون بالنعاس، فهو منتصف الليل تقريباً".

رفعت فيدوسيا عينيها ناظرة إليه فى عبوس. ثم شهقت مرة. هذه الإيماءات كلّها كانت محتملة إلى حد. لكن لم يعد يتحمّل ذلك التحديق المتحجّر الذى تسدّده إليه وهى تدور إلى الباب، لتغادر بكوب الشاى الفارغ فى يدها. فماذا كان فى هاتين العينين؟ عاطفة؟ حزن؟ أم سؤال "لماذا تدمّر نفسك على هذا النحو؟"

العالم كلّه فى الخارج ينتظر أن يلومنى ويسخر منى. تدوّم سيوف صدئة فى هذه الكلمات. لقد خرّبتَ كلّ شيء! حتى حياتك! كيف يحسّ الآخرون باحترام نحوك؟ اقترضت من أيّ امرئ وكلّ امرئ، قامرت وشربت، دون أدنى خجل...

من أيضاً كان هناك يتكلّم عن الحب والحنان... غير هذه المرأة العجوز...؟

وسُمعت خطوات فيدوسيا وهى تنزل السلالم.

وقف دستويفسكى بالخارج، فى الشرفة، يدخّن سيجارة. يبدو الصباح مشرقاً. دبيب الفجْر الورديّ يمضى بطيئاً من الأفق الشرقيّ. لدى رؤيته بين أفرع الشجر المزهرة، تبدو السماء جميلة حقاً.

تقترب عربة خيل، حول أبعد منحنىً بالشارع.

أحسّ دستويفسكى بالاكتئاب نوعاً.

متى عدتُ الليلة الماضية؟ لا أذكر. من كان معي؟ هل كان الغريب الذى صادفته فى الحانة؟ لماذا جاء معي؟ هل كنتُ سكراناً إلى حدّ كبير فلم أستطع السير من دون مساعدة؟ لا أذكر. النسيان، كأيّ غسق موسميّ معتم.

كان أمس يوماً لعيناً. بعض الأيام على هذه الشاكلة. تبرز المتاعب على غير ما نتوقّع. فهى كاللعنة. كان ذلك حين خطّطتُ لتسطير جزء خطير من

الكتابة، ذلك الزميل البغيض كان يتبعني، يطلب ردّ المال الذى اقترضته، مع الفائدة. أقسم أنه لن يضمر الطلب إلى فترة أخرى مستقبلاً. كان نافد الصبر. فماذا عليّ فعله؟ أين هو المال؟ صمتى أحرقه أكثر. ما صرخ به فى النهاية كان "قُل شيئاً، يا رجل". ثم همد وقتها غضبه الذى ابتدأ به.

هل يُفترض أن يروح فى هياج لو التمستُ منه مزيداً من الوقت؟

لكن ماذا بقى هناك أُبلغه به؟

أخبرته أنى فعلت أخيراً. لم ينفجر كما كنتُ أخشى. جلس فترة أزيد فى صمت مطبق، ثم نهض وغادر دون حتى أن ينحنى بوداع.

اضطربتُ من التفكير فى رحيله هكذا. لماذا رحل دون أن ينبس؟ دون التهديد بمقاضاتى ووضعى فى السجن، كعادته؟

الأفضل لو قال على الأقلّ شيئاً كهذا قبل رحيله، وإلا لما شعرتُ بهذا الاضطراب. على المرء أن يتعلّم من الخبرة ـ فصمتُ بعضهم، أحياناً، مخيف أكثر من عويلهم.

عموماً، كيف صرتُ بعدما غادر؟

فى مدى أرض خراب تمتدّ إلى ما لا نهاية، هناك مكان فى البرية الواسعة على رأس تلّ، فى قلعة مهدّمة، فى ممرّ بقصر غابر متداع مبنيّ بكِسَر الحجارة، فى شبه العتمة، فى صمت أبكم...

استحالت الأعصاب مشدودة... هبّات جنون تضطرم فى الدم. كنتُ أقف فى عين إعصارٍ عندئذٍ.

هكذا كانت تلك اللحظات.

جمّعتُ شَعري، ونهضتُ راكضاً دون أن أعرف أين. لم تلمح عيناى الشوارع ولا المدينة. لم تكن الشوارع والمدينة فى طريق عينَيّ ساعتها. ليست فقط الشوارع والمدينة؛ لا السماء ولا الأرض، لا البشر ولا الشجر، أو أيّ شىء قطّ.

حين وصلتُ نادى القمار، كانت جمهرة صغيرة حول كلّ طاولة.

فأين العجوز الذى يقرض مالاً للمقامرين؟ المرابى جريجورى ياكوف؟

كان العجوز واقفاً عند الركن الشرقيّ، يتكلّم مع أحد. لم أطق صبراً أن أنتظره لينهى المحادثة. لم أعرف من كان العجوز منهمكاً معه فى حديث جادّ. أهو قبطان، جنرال، أم القيصر نيقولا الأول نفسه؟ ذلك ما فكّرتُ وقتئذٍ. كنتُ أحتاج إلى بعض المال. بفائدة.

حين طلبتُ، هزّ العجوز رأسه فى غير رحمة. أحسستُ بغضب وددتُ معه أن أقضى عليه بطعنة واحدة. لكن... هذه الأفكار عديمة الجدوى. فالعجوز أحمق صلب يصعُب كسره. يبدو عجوزاً فى مثل عمر يَهْوَه(١). حتى لو قال أحد إن جبلاً يتدحرج نحوه، فلن يتزحزح العجوز جريجورى ياكوف.

جرّبتُ معه مزاج الترضية، طالباً منه أن يرينى قليلاً من الرحمة الآن، ولو مرة أخيرة. فسألنى العجوز، بصوته المألوف المتلعثم:

"كم مرة يصبح المرء أحمق، واثقاً من أمثالكَ؟ فالديون القديمة معلّقة كلّها. فأنّى لكَ بردّها؟ ألا تعود يومياً بعد خسارة كلّ شيء؟ لكن، ترجع مصمماً على اللعب! وأنا هنا، أقرضكَ مالاً! صديقى العزيز، لا يمكن أن يستمرّ هذا. فُكّ عني!"

قلتُ "اليوم سأربح، أكيد. كلّ شيء يدلّ على هذا"، لكن هل سمع؟

هزّ العجوز رأسه بضحكة ساخرة.

"هل لكَ أن تربح على الأقلّ لعبة واحدة؟ فى حياتكَ كلّها؟"

"سأُريك. تراهن؟ عشرة آلاف روبل".

مع ذلك، جلس العجوز ساكتاً، بتعبير على وجهه كأنه يقول إنه لا يمكن الضحك عليه بسهولة.

---

(١) يهوه: ربّ العبرانيين. (م)

لا يتّضح شيء يبيّن كيف أُقنع هذا الرجل العجوز. بينما كنتُ واقفاً وبالي غارق وكأني على طرف إبرة، فكّرتُ أن أقود الرجل العجوز إلى حارة مظلمة، إلى بقعة لا يُحتمل أن يرانا فيها أحد ثم أخنقه. سينتهي كلّ شيء في لحظة. أنّه مكسورة بوسطها عينان فاغرتان، ثم يتلوّى...

رجوت أخيراً الرجل العجوز:

"انظر. صدّقني هذه المرة هي آخر مرة. سأسدّد كلّ ما عندي من ديون أدين بها إلى جريجوري ياكوف العظيم. حتى لو نهبتُ قصر القيصر نيقولا الأول. أيّ ضمانة أكثر تريد؟ كما أحلف بيمين مقدّس أمام الأم العذراء المباركة. تريدني أن أفعل هذا؟"

لم يكن ضرورياً. فقد أخرج الرجل العجوز عشرين روبلاً. طلبتُ خمسة وعشرين روبلاً. وبدأتُ اللعب. خسرتُ اللعبة الأولى. كانت بالقطعة الحمراء ما لعبتُ. ثم غيّرتُ إلى السوداء. فربحتُ اللعبة. من جديد، لعبتُ بالسوداء. لكن خدعتني تلك المرة حتى القطعة السوداء. فظللتُ ألعب حتى الحادية عشرة والنصف ليلاً، في تراوح ما بين الربح والخسارة... الحصيلة النهائية، خسارة كاملة. تبقّى معي روبلان أو ثلاثة. بهذا المال في جيب معطفي دخلتُ تلك الحانة التي تظلّ مفتوحةً طيلة الليل.

لم يبق بذاكرتي شيء بعدئذٍ. القليل أياً كان الذي تلبّث فيها كان كذرّات حلم في شبه نوم حاولتُ أن ألتقطه فيما بعد...

بالعودة إلى غرفته، اختار دستويفسكي أفرُخ ورق مكوّمة على الطاولة المرتكنة جنب الحائط. كانت الصفحات القليلة الأخيرة من المسودّة النهائية لرواية "الجريمة والعقاب". من أحد هذه الأفرخ، قرأ دستويفسكي:

ظهرت سونيا فجأةً إلى جانبه. طلعت دون صوت تقريباً وجلست جنبه. الوقت مبكّر؛ قُشعريرة الصبح لا تزال تتمهّل. كانت تلبس معطفها الفرو القديم الرثّ وشالها الأخضر. لا يزال وجهها يحمل علامات مرضها؛ فهي أنحف، أشدّ شحوباً، وغائرة الخدّين. منحته ابتسامة مرحّبة مبتهجة، لكنها مدّت يدها بحياء كسالف عهدها.

تمدّ يدها بحياء إليه دائماً، كأنها ستسحبها أحياناً، كأنها تخشى أن يصدّها. كان يمسكها على مضض دائماً، يُحيّيها دائماً بنوع من الضيق، ويصمت أحياناً في عناد طيلة زيارتها. هناك مناسبات ترتجف فيها ثم تمضي بأسف عميق. لكن هذه المرة بقيت يداهما متّحدتَين؛ منحها نظرة سريعة لكن لم ينبس بشيء، وأشاح بعينيه إلى الأرض. كانا وحدهما؛ لم يكن هناك أحد ليراهما. ابتعد الحرس منصرفين وقتها.

كيف حدث هذا، هو نفسه لم يعرف، لكن بدا فجأةً أنه ضبُط فألقَى نفسه على قدمَيها. عانق رُكبتَيها وبكى. ارتعبت لحظة بشدّة، وابيضّ وجهها. أجفلت، وهي تنظر إليه من فوق، مرتجفة. لكنها فهمت على الفور، في تلك اللحظة. لمعت في عينيها سعادة لا توصف؛ فهمت، ولم تعد تشكّ أنه يحبّها، يحبّها للأبد، وأن الأوان قد حان أخيراً... (١)

حين وصلت القراءة تلك المرحلة، سُمع وقع أقدام تصعد السلالم. فمن يكون؟ فيدوسيا؟ لا، وقع أقدام فيدوسيا ليس بهذا الثُّقل. إذن من؟ باشا(٢)؟ لا، قطعاً لا.

كان ستيلوفسكي، الناشر. لدى رؤيته عند الباب، ارتجف دستويفسكي. ظهر الوغد من جديد.

بوجهه تكشيرة خبيثة. لا يسأل "هل لديك أية فكرة عني؟"، يزور على غير توقّع مراراً، يحيّي دستويفسكي، وفي النهاية، يتركه متمنّياً له حظاً سعيداً.

---

(٢) :Pashaابن زوجة دستويفسكي الأولي. (م)

حين يرى ستيلوفسكي، فليس بسبب الثلاثة آلاف روبل التى أقرضه إياها ويذكُرها دستويفسكى... يقول الجميع إن هذا الزميل ستيلوفسكى ليس إنساناً؛ بل هامة (٣) تمصّ دماء الكتّاب. ورقة السند التى وقّعتها بثلاثة آلاف روبل كاستدعاء الموت الآن. فأين خبّأ الأنياب التى سنّنها ليغرزها فى قلبي؟

قال دستويفسكي:

"أنا فى ورطة كبيرة. حتى حين أحاول حلّ نفسي، فالعُقد تتشابك كلّها من حولى. لا أحد يفهم السبب. مع ذلك، فلا معنى أن أُلقى اللوم على أحد. حتى أنا لا أفهم متاعبى. مصيرى مثل جملة لا يفهم معناها حتى كاتبها. أقول المسألة تتعلّق بالله. ليكن. ستيلوفسكي، لا تخف. سأنتهى من روايتك قريباً!"

قال ستيلوفسكي:

"لم آت وهذا الغرض فى بالى. فكّرتُ فقط أن أُعرّج عليكَ، حين مررتُ. لأطمئن عليكَ فقط. فهى تجربة سارة بالنسبة لى أن أذهب وأقابل كُتّابى كلّ حين وآخر. ما معنى كلمات مثل "حبّ"، إن لم أفعل هذا؟"

أحسّ دستويفسكى كأنه سيصرخ "أنتَ حقير! فلا تتكلّم عن الحبّ، مستخدماً لساناً كلسانكَ". لكنه كظم غيظه بأن صرّ على أسنانه فى صمت.

ولدى شكره، نزل ستيلوفسكى السلالم.

أحسّ دستويفسكى بمذاق مرّ يملأ فمه. ذلك الوغد دمّر لى هذا اليوم بزيارته!

مع أنه فكّر أن يجلس هادئاً فترة، إلا أنه عجز. تخلّله الخَدَر من رأسه إلى أخمص قدميه. ملأه شيء، كطوفان أسود. صارت أعصابه على الحافّة. كدُخان هبّ فى جُحر فأر ليطرده، فقد انشقّت صدوع صغيرة بالأرض، شيء لاذع يدفُق خارجاً من بين طيّات الدماغ. أهو بداية نوبة جنون؟

---

(٣) الهامة: جثّة يُعتقد أنها تهجر قبرها ليلاً، لمصّ دماء النائمين. (م)

دخان فى توتّر كبير، فجلس دستويفسكى مزيداً من الوقت. ثم نهض، نازعاً المعطف من مشجبه، لبسه وخرج. وهو يمرّ بباب المطبخ، كانت فيدوسيا تجلس داخله تقطّع الكرنب، فأدارت رأسها ونظرت إليه.

راح باحثاً عن آلونكين، كان يجلس بمحلّ الدور الأرضيّ قريباً من الشارع. وحين رأى آلونكين دستويفسكي، حيّاه بابتسامته البريئة المعتادة. آلونكين مالك تلك البناية التى تضمّ ستين أو سبعين شقّة. فلم يكن عقل ذلك الرجل مجرّد عقل تاجر. فلديه عاطفة بالتأكيد وإنسانية تبقّت لديه.

ستة أو سبعة أشهر إيجار متأخّر. فماذا يظنّ الرجل حين يطلب منه قرضاً فوق ذلك؟ لا معنى للتفكير فى تلك الأسطر. فالأفضل دائماً مواجهة المتاعب.

لكن، كيف يعالجه؟ كان السؤال الذى نبع فى باله، حين فكّر جاهداً فى الأمر.

"هل الفقر وسوء الحظّ جُرم؟ هذا هو، جُرم يعانيه الإنسان العاجز؟"

بدأ بهذا السؤال.

"ما لك؟"، سأله آلونكين مبتسماً، بتعبير على وجهه معناه "ادخل بالموضوع؛ ولا تلفّ عليّ".

تحرّك دستويفسكى مقترباً، بابتسامة كبيرة.

قال دستويفسكى "آي، لا شىء على نحو خاص، أفكّر فقط. بالنظر إلى وجوه بعض الناس، يتوصّل المرء إلى انطباع. إننى أتكلّم عمّن يعتبرون قسوة قلبهم فضيلة".

قال آلونكين "لا أريد أن أُحيّرك. فيدور، أرجوك أن تذكر شيئاً واحداً وأنت تتكلّم معى. فلستُ المرء الذى يفهم المعضلات الكبرى. ألم أقل لكَ ذلك من قبل؟"

صار دستويفسكى نافد الصبر. لكن نفاد صبره لم يكن ليخدعه بعبارة واحدة.

بات مقتنعاً أنه ليس من السهل اكتساب العطف من شخص آخر بالكلام الصريح. فاستخدم دستويفسكى تعبيراً قوياً امتطاه، قائلاً:

"من حسن حظّ أيّ امرئ أن يكون لديه صديق عطوف محبّ. على الأخصّ، لو كان يتيماً. لكن ماذا يحدث واقعياً؟ كلّ ما تصادفه بالشارع ليس من ذلك النوع. الله يُخفى هؤلاء فى ذات مكان معظم الوقت".

بقوله هذا، نظر دستويفسكى مرتقباً إلى وجه آلونكين. لا. لم يأخذه على محمل الجدّ. فهو جالس كمن لم يفهم شيئاً قطّ.

طلع دستويفسكى أخيراً بحاجته. فلم يكن من مفرّ أمامه:

"أقرضنى أرجوك خمسة عشر روبلاً. أنا آخذ فى بالى طبعاً أن عندى متأخّرات إيجار. فأضف هذا الدَين إليه. وسأردّ الديون كلّها معاً. ستزدهر الأمور نوعاً، قُرب نهاية الشهر. لا يبقى المرء على الحال نفسها طوال الوقت. فماذا نرى حين نتطلّع إلى الكون؟"

دون أن يفكّر فى ردّ عن سؤاله، وبنظرة تقيس الآخر مع بسمة ملتوية، أخرج آلونكين خمسة عشر روبلاً وأعطاه إياها قائلاً "الله يكرمك".

قال دستويفسكى وهو يدسّ الروبلات بجيب قميصه الداخليّ:

"لو أظهر الله هذا الاهتمام على الأقلّ بشؤوني، فقد تصبح الأمور مرضيةً ذرعاً".

وهو يلوّح بالوداع ماضياً بالشارع، انحصر تفكير دستويفسكى فى المسافة بين ذلك المكان ونادى القمار. هل أصل على قدمَيّ، أم أستوقف سيارة أجرة؟

٢

لبست آنا مستعجلة. كانت لا تزال فى حدادٍ على وفاة أبيها، ترتدى الأسود دون أيّ زخرفة أو تزيين. فكّرت، لا يجب على المرء أن يتباهى، برغم أنه يجب عليه أن يلبس بشكل جذّاب. تعرف من ستروح للقائه. عليها أن تُخلف انطباعاً جيداً من أول وهلة.

حين نظرت ثانيةً إلى الساعة، بانت الثالثة. مضت آنا تواً إلى باب المطبخ وتركت ملاحظة لأمها. عليها أن تصل هناك قبل الحادية عشرة والنصف. لا يجب أن تصل قبل أو بعد. ذكّرها أولخين بذلك خصوصاً.

لم تكن تحتاج إلى أن تُسرع. فمن منزلها، مجرد نصف ساعة مشياً إلى المكان.

كانت آنا تريد دائماً أن تنال وظيفة وتعيش مستقلة. فالأمور تسوء بالبيت. من قرابة عام، منذ أن مات أبوها. كم يمرّ الزمن! على الرغم من

أنها بالغة القسوة، فإن أباها لم يكن يدعها تحسّ بذلك. أدرك كلّ من بالعائلة فيما بعد أيّ متاعب راحت تتفاقم إلى أدنى مستوىً من الراحة لأهل الطبقة الوسطى. ترتجف حتى الآن، حين تفكّر فى الفراغ العميق الذى جلبه على حياتهم موت والدهم.

حين يرحل امرؤ، تخرج معه أشياء كثيرة. فهل موت الفرد من شأنه وحده؟

تعرف آنا أن موت الأب أثّر على أمها أكثر. فهى تعيش حالياً على ظلام قلبها ووحدته.

من يعول العائلة الآن؟ توقّفت أختها الصغرى عن المدرسة. لم تتأسّف على ذلك. أخوها الأصغر يدرس فى كلية الزراعة. كم سيداوم، قبل أن يحمل أعباء العائلة على كتفيه؟

كانت آنا تريد دراسة الطبّ. وبوفاة أبيها، تلاشى ذلك الحلم.

أحسّت فى البداية أنه ليس هذا الحلم فقط، بل أحلام حياتها كلّها قد تلاشت. ومرّ وقت قبل أن تقتنع أنه لا معنىً للحزن هكذا. بعدئذ، التحقت آنا بمدرسة أولخين القريبة لتعلّم الكتابة بالاختزال. كانت تعرف أنه يسهُل نيل الوظيفة لو تعلّمت الاختزال. تُذكّر آنا قلبها دائماً أن يحبس نفسه فى صغار الرغبات.

تذكُر آنا أمس، وهى جالسة بالمدرسة، تنتظر خروج زملاء فصلها وقد تأخّروا، أن اقترب أولخين، المسؤول، جلس على طرف مقعدها وسألها:

"هناك أحد يحتاج إلى كاتبة اختزال بعض الوقت. سيدفع على الخدمة. يعنيك الأمر، يا آنا؟"

هل يعنيني! أكيد! فى الحقيقة، ما فكّرت فيه آنا هو أن حسن حظّها قد جاء باحثاً عنها. ففاض قلبها بنوع غامض من السعادة. لكن، هناك شكّ واحد، كلسان برق انشقّ من خيالها.

من يبحث عن كاتبة اختزال؟ هل سيعجب ذلك الشخص عملها؟

قال أولخين "سمعت عن دستويفسكي؟ روائيّ ذائع الصيت. وصديقي، مع ذلك. هو منهمك فى كتابة رواية جديدة. يريد الانتهاء سريعاً، فهو يحتاج إلى خدمات كاتبة اختزال".

حين سمعت آنا باسم دستويفسكي، وثب قلبها حالاً. فهى تعرفه منذ الطفولة. كان دستويفسكى كاتب أبيها المفضّل. تذكّرت ساعتها أباها وقد اعتاد الحديث عن دستويفسكى وأعماله بدهشة واحترام كبيرين. بكت حين قرأت "الفقراء" و"ذكريات من منزل الأموات".

لم يكن على آنا أن تفكّر مرتين. وافقت. أخذت فى بالها ألاّ يلحظ أولخين فرط سعادتها.

حين وصلت البيت وبلّغت أمها عنه، قالت بعفوية إنه حظّ عظيم. لم تستطع آنا النوم تلك الليلة. فكّرت، غداً سأكون مع شخصية أعبدها من كلّ قلبي، ولم أحلم بلقائها مرة فى حياتى.

كيف شكلُه، دستويفسكي؟ تصوّرت آنا سيماء معينة فى خيالها. قصير وسمين، قُرب سنّ والدها. أو طويل ونحيف، بعينين عميقتين؟ أو أحد برأس أصلع ولحية مرتخية. لم تشكّ قطّ فى العينين العميقتين المظلّلتين بالحزن... عيناه، بالتأكيد هكذا. حين فكّرت فى سبب وثوقها من عينيه هكذا، كانت تلصق بخيالها صور ديفوشكين وفارنكا فى "الفقراء". كتب دستويفسكى فى مكان ما أنه كتب قصتهم وهو يبكى طوال الوقت.

بالنسبة إلى ديفوشكين الأعزل الحزين، كانت الفتاة فارنكا بالمنزل الصغير عبر الشارع كعذراء الأحلام. هل يمكن لموظف من النسخة الفقيرة أن يتسلّى بأحلام اليقظة فى عامه السابع والأربعين؟ لم يفكّر ديفوشكين فى شىء وقتها. فقد كان عقله وحبه الموهوم يتوهّجان داخله كحريق كبير. وكان

مستعداً للتضحية بكلّ شيء من أجلها. لديه راتب هزيل سيشبع رغباتها منحّياً حاجاته العاجلة. سيفعل ذلك ليربح حبها ونيتها الطيبة. وهى تعى ذلك أيضاً. إن حبّ ديفوشكين الصامت مثل حزن مقدّس. يسكنه أحياناً إحساس فظيع بالذنب. فهل يستحقّ منه أن يفكّر فى التسلية بمشاعر الحبّ نحو فتاة مثل فارنكا؟ وفارنكا نفسها تعانى من كره النفس. تفكّر، إن ما يعانيه هذا الرجل هو توكيد سعادتى. مع ذلك، ينصرف قلبى بعيداً عن ذلك الحبّ. ما العقاب المقدّس المخبّأ لى بهذا الخداع! ليس لأنها غير مغرمة بديفوشكين. ولا لأنها لم تر عمق ذلك الحبّ. ولا يمكن القول إن قلبها يغريه حبّ أشدّ كثافةً أو جنوناً من حبه، فلم تستطع ردّ ذلك الحبّ له. ثم ما هذا؟ الحياة تلتوى وتدور دون أيّ منطق. فبينما تغادر فارنكا سان بطرسبرج وقد أصبحت زوجة بيكوف، يصبح حبّ ديفوشكين تجربة كالسهر على ظلّ. يُسمع نواحه الصامت من صدوع قلبه.

تتذكّر آنا ما كتبه ديفوشكين فى رسالته الأخيرة إلى فارنكا:

"أنا أيضاً سآتى معكِ. إن لم توافقى فلن ألاحق سيارتكِ الأجرة. هنا، ترقد حياة امرئ بكاملها مبعثرة".

كما ظهرت فى خيال آنا ذكرى بتروفسكى الذى كان أيضاً يحبّ فارنكا.

ألم يكن الطالب المعوز الذى تحبه فارنكا، تقف قلبها عليه؟

فأيّ مصير مخبّأ لها؟

الحزن الخالد.

ظهر مشهد بعين آنا الداخلية:

بتروفسكى فى طريقه إلى المقبرة بنعش محمول. لأجل نومته الأبدية.

يجرى أبوه منتحباً كمجنون، فى تتبّع النعش.

كان عيد ميلاد بتروفسكى.

تتذكّر آنا أباها يقول إن دستويفسكى نال توقيع الله على قلبه. هل يمكن لأحد لا يملك هذا التوقيع، أن يكتب كما كتب؟ شىء يلمس شِغاف القلب...

وهى تسير على طول شارع بولشايا ميشكانسكايا، كانت آنا تدعو بشكل عفويّ: "يا إلهي، خلّهِ يميل إليّ أرجوك على نحو محبّب".

قبل الحادية عشرة والنصف بدقيقة أو اثنتين، وصلت آنا منزل آلونكين. منزل كبير، من خمسة أدوار، يسكنه كثيرون. سألت آنا أحداً صادفته بالدور الأرضيّ أين تقع الشقّة رقم ١٣، فأشار ناحية السلالم إلى الدور الثانى.

بدا المنزل قديماً جداً. لم تكن فيه لمعة أو أناقة المنازل الحديثة. مع ذلك، فيه شىء جذاب. معظم سكّان تلك الشقق تجّار وحرفيون. وهنالك ندرة من المكاتب بالطبقة الوسطى. لا ضجّة أو صخب فى هذا المكان. لا يشبه إطلاقاً مكاناً يسكنه ناس كثيرون. فيه نوع غريب من الصمت المستكنّ. وهى تصعد السلالم الخشبية الضيّقة، تذكّرت فجأةً منزل "الجريمة والعقاب". كان مثله. أليس هذا السلّم الذى اعتاد راسكولنيكوف صعوده؟

لدى وصولها شقّة رقم ١٣، دقّت آنا الجرس. فتحت الباب فى دقائق امرأة بدينة تلبس قميصاً أخضر فاتحاً وتنظر إلى آنا مستفسرة. هى فيدوسيا. شعرت آنا أن كلّ كدّ وضجر حياة كاملة قد اتّخذ مستقراً على وجه تلك المرأة العجوز. بشعور مزعزع تولّد عن إدراك، سألتها آنا "أليست هذه شقّة فيدور ميخائيلوفتش دستويفسكي؟"

دون تبدّل فى تعبير وجهها، قالت فيدوسيا:

"نعم. لماذا؟"

"أريد رؤية فيدور".

"لماذا؟"

"طُلب منى لقاؤه".

أجفلت آنا برؤيتها تبدّل التعبير البادى على عينَى المرأة العجوز لحظتها.

بعد صمت دقيقة، أشارت إلى الباب المغلق على اليمين.

تحرّكت آنا رأساً إلى ذلك الباب ووقفت هناك لحظة. أمكنها أن تسمع دقّة قلبها. فكّرت ملياً، إنى أقف أمام باب امرئ نال توقيع الله على قلبه.

استجمعت عندئذٍ شجاعتها ودقّت الباب.

بعد لحظة أو اثنتين، سمعت وقع أقدام بين صمت الداخل.

لدى رؤيتها من فتح الباب ناظراً إليها بعينين ثابتتَين، أُخذت آنا.

هل كان هناك تعبير غامض وحشيّ على ذلك الوجه؟ أكان أكثر تشعّثاً مما ظنّت. تلك الهيئة تُذكّرها بروح تلوح من جحيم معتم. طوله متوسّط. ليس بديناً قطّ. شعره النحاسيّ البُنيّ الفاتح ممشّط للوراء. وأثارت عيناه دهشتها. كانت إحداهما بنية داكنة والأخرى سوداء. حدقة العين السوداء زرقاء مغبّشة. أذهلتها العينان الغامضتان محلّ العينين العميقتين الحزينتين فى خيالها.

قال دستويفسكى فجأة:

"نعم؟"

عادت إلى عقلها من تأمّلاتها، قالت بأثر من الحيرة:

"جئتُ هنا لأن أولخين طلب منى. أخبرنى أن كاتبة اختزال مطلوبة هنا".

فأومأ دستويفسكى. يتصرّف كمن يحاول تذكّر شيء نسيه. تمعّن فيها من أعلى لأسفل، ثم دعاها للدخول.

"تفضلي".

دخلت، تتحكّم فى انفعالها ووعيها بذاتها.

أشار دستويفسكى إلى كنبة قديمة، قائلاً "اجلسي، سأعود بعد دقيقة".

من الوهلة الأولى، خمّنت آنا أنها غرفة مكتب دستويفسكى. ساعة قديمة، على الحائط. وتكوّمت كتب كثيرة على طاولة قُرب الحائط. لم يكن فى الغرفة نظام أو ترتيب البتّة. كنبة فى الخلف. ثمّ طاولة الكتابة والكرسيّ. فوق طاولة الكتابة، إلى اليمين قليلاً، عُلّقت صورة مصفرّة لامرأة. خمّنت آنا أنها زوجته. ذلك الوجه ينضح تعبيراً حزيناً لا يُفسّر. وهى واقفة تفكّر أن الحزن بديع على نحو ما، عاد دستويفسكى من الغرفة الأخرى.

تحرّكت آنا بحافز داخليّ، وهى تنظر إلى دستويفسكى.

رأت فى عينيه سكوناً ذكّرها بعمق معين.

سار دستويفسكى إلى طاولة الكتابة فالتقط كتاباً، قلّب فى صفحاته ثم أعاده إلى الطاولة واستدار نحوها.

"ما اسمك؟"

أخبرته اسمها.

"آنا جريجوريفنا سنبتكين. آنا، باختصار".

شكّت إن كان دستويفسكى ابتسم بشحوب. أحسّت بوجهه ينير لحظياً.

"منذ متى وأنت تتعلّمين الاختزال، يا آنا؟"

"ستة أشهر فقط".

"كم عدد طلبة مدرسة أولخين؟"

"كانوا مئة وخمسين فى البداية. الآن، قرابة خمسة وعشرين فقط".

"وكيف هذا؟"

"يظنّ المرء بدايةً أن الاختزال يسير التعلّم. ثم يدرك فيما بعد كم هو عسير. ومن يريد تحمّل الآلام هذه الأيام؟ فتسرّب معظمهم".

قال دستويفسكى عندئذ شيئاً كأنه يؤكّد على نقطة معينة:

"فى كلّ مشروع جديد، يحدث هذا فعلاً. قد يظنّ المرء أنه سيمضى يسيراً. وفيما بعد يدرك كم هو عسير. ومن يريد تحمّل الآلام هذه الأيام؟ فتسرّبوا".

أحسّت آنا كأن هذه الكلمات تُضمر شيئاً آخر.

فى تلك اللحظة، قال دستويفسكى مبتسماً وهو ينظر فى عينيها:

"لا تفهمين؟ ستفهمين، خلال يومين. لقد جئت لتقلّد مهمة عسيرة، يا آنا".

مع أنها فكّرت أن تقول إنها من النوع الذى لا يُهزم بسهولة، إلا أنها استبقتها فى بالها.

عندئذ جلبت فيدوسيا الشاى. شاى أسود قويّ. بدا لآنا كأنه سامّ. مع ذلك شربته دون أثر من النفور.

بعد شرب الشاي، أشعل دستويفسكى سيجارة. على رغم من أن آنا لا تحبّ رائحة دُخان السيجارة، إلا أنها لم تُظهر اعتراضاً.

أثناء ذلك، قال دستويفسكي:

"سارة، أنتِ من النوع القارئ؟ أقصد، عدا كتبك التعليمية والكتاب المقدّس؟"

أعجبها ذلك الترصّد المتعمّد بسؤاله.

مع أنها فكّرت فى قول "نعم، قرأت "الفقراء"، "منزل الأموات"، "المثل"، "الجريمة والعقاب"، وأعمالاً أخرى للعظيم فيدور ميخائيلوفتش دستويفسكي، إلا أنها أومأت فقط.

قالت لنفسها، أمر طيب. لكنه ليس لطيفاً أن تنادينى باسم آخر.

قالت "لستُ سارة. أنا آنا".

لأنها كانت حماقة، قال دستويفسكي:

"سامحينى. زلّة لسان".

استمرّ كلامهما يرفّ من موضع إلى آخر. أثناء ذلك، صدم شيء آخر عقل آنا. فقد بدا دستويفسكى للوهلة الأولى رجلاً عجوزاً. لكن لحظة شَرَع يتكلّمُ، انقلب إلى رجل شابّ. فى كلماته، صدى عقل يعرف النشوة. ذلك الصدى رنّ فى عقلها هى.

قال دستويفسكى بعد صمت دام لحظة "إنى فى وضع حرج الآن. فعليّ أن أنتهى من كتابة رواية خلال إطار زمنيّ محدّد. وبوضعيتى حالياً، لا أراه أمراً يسيراً. أعرف هذا جيداً. فأردتُ أن أستعين بشخص آخر. لكن عقلى لا يميل إلى هذا. أحسّ أحياناً أنى سأتخلّى عن فكرة هذه الرواية".

جلست آنا فى صمت، بتعبير "وماذا عليّ أن أقول فى هذا الصدد".

"هذا شيء عليّ أن أُنجزه وحدي". ونظر إليها دستويفسكى بتعبير عميق. "مثل التأمّل، مثل صلاة صامتة، بشكل مستبطن، فى عزلة. قد تفسد الشراكة مع آخر هذا الورع".

أحسّت آنا أن زيارتها إليه انقلبت غمّاً. لقد جازفت فى عجلة كبيرة، وهى تُنصت إلى ما قاله أولخين.

بينما فكّرت آنا أن تلوّح بالوداع والعودة، سألها دستويفسكي، بعد لحظة:

"أو ما رأيك؟ مستعدة لتحمّل الآلام نيابة عني؟"

تردّدت آنا لحظة، ثم قالت برأى صارم:

"لو سألتنى إن كنتُ مستعدة لتحمّل الآلام، فماذا أقول؟ نعم".

كاختبار، قرأ عليها دستويفسكى قسماً من "الجريمة والعقاب". ولأنه قرأ بسرعة، تخلّفت فى الكتابة. وكان عليها أن تطلب منه أثناءها القراءة ببطء. لم يرتح دستويفسكى. "كالحلزون الزاحف، هه؟"، خلاّها تعرف استياءه.

بينما كانت آنا تُعيد ما كتبته بالاختزال كتابة عادية، راح دستويفسكى يذرع الغرفة، مدخّناً سيجارة، بنفاد صبر واضح.

حين أرته النسخة المقروءة، كانت قصة أخرى تماماً. وجد خطأ فى كلّ شيء. "أيّ نوع من الكتابة هذا؟ يدكِ ليست مدرّبة. فأين النقاط والجُمل الاعتراضية؟ انظري، تركت هنا جملة كاملة".

فذوى عقلها.

كيف تواصل العمل مع مثل هذا الشخص؟

وقت أن خرجت، راح يرطّب نفسه من الحرّ والغضب الذى كان فيه تلك اللحظة. قال دستويفسكي:

"قلتِ ما اسمك؟"

"آنا".

"آه، آنا". وبينما يدهس دستويفسكى عقب السيجارة بالأرض، سألها "ألن تأتى فى المساء، يا آنا؟"

لم تنبس. كانت متبرّمة وقتها. فمن الصعب العمل مع أحد يبدو أن قلبه على نار دائماً.

حين خرجت آنا مبدية وداعاً صامتاً، ركض وراءها دستويفسكي، كمن يهدئها. "آنا، لا تسيئى فهمي، أرجوكِ. فأنتِ ربما تعلمين ما يعتمل بداخلي، آنا؛ إنى أعانى من نوبات صرع بين حين وآخر. وكنتُ ليلةَ أمسِ فى قبضة واحدة من هذه الهجمات".

٣

بمجرد رحيل آنا، بدا عقل دستويفسكى مختنقاً بحسّ كثيف من الذنب... هل تعود؟ فهى على النقيض منى. لا بدّ أنى على حافّة الجنون. فكيف أُسدّد مثل هذا الألم لفتاة أراها المرة الأولى فى حياتي؟ حتى لو جاءت لأداء أعمال المطبخ، لو ذاق أحد شيئاً تعدّه وزعق فيها "من علّمكِ الطبخ هكذا؟"، فهل تتحمّل الفتاة هذا الكلام؟ ألم أُعامل آنا أسوأ من ذلك؟ حسبها لم تنفجر فى الدموع. غادرت ونقطة على السطر. لم يكن عليّ أن أقترف هذا الخطأ الفادح. واتّهمتها زوراً بحذف جملة كاملة. فيما بعد لاحظتُ أنه شيء خَطَر لى من بُعد نظرى.

هذه لعنتى. أستحلب الكره ممن يعرضون عليّ الحبّ.

ذرع دستويفسكى الغرفة، يدخّن سجائره واحدة بعد أخرى.

هل يمكن كتابة رواية خلال هذا الإطار الزمنيّ، بحساب الأيام؟ تذكّرتُ أياماً خالية أمامي دون أن أستطيع كتابة كلمة واحدة، حتى عندما انتابتني رغبة حارقة في مواصلة الكتابة، ظلّت في قاع ذاكرتي. كالوقوف على شاطئ البحر، وأنت تموت من العطش. فهل لكَ أن تغرف ملء يدكَ من الماء وتشرب؟

لحظةٌ تُوصَف على تنوّعها بالجنون أو القدسية.

من هنا تبدأ. ثم يحين موسم الجنون.

هل هناك درجة من الطموح لأستطيع الكتابة، خالياً من هذه الحالة؟

هل لأحد أن يكتب رواية لمجرّد أنه قال "سأُرسلكَ للمشنقة إن لم تُكمل خلال أيام كتابة رواية؟"

أليس هذا كمن يُبلغ نبتة "إن لم تشطئي بالزهرة غداً، فسأقتلعكِ من أصولك، سأضعكِ على قرمة من الصوّان وأفرمكِ"؟

أهو مصير شبيه بساحر يستخرج يمامة أو بطّة من بطن قبّعته؟

لستُ واضحاً حتى بالنسبة لما أكتب عنه. ولا عندي أية أفكار. بالعكس، المشكلة الرئيسة وفرة الأفكار.

لا أستطيع إقرار ما يجب أن أعتمده وما يجب التخلّي عنه. أو، هل هناك خيار لدى الكتّاب للتدريب على مهلٍ؟

إنه إلهام لحظة مباركة واحدة تقدّم كشفاً من مجاهل الروح.

لا يمكن تعريفها هكذا.

العقل مثل سماء داكنة مفعمة بسحائب أمطار. مطر معلّق فوق الرؤوس. مطر محمّل بذكريات طوفان.

من أية سحابة ستهمي أول قطرة؟

لدى خروجه من الغرفة، جلس دستويفسكى ناظراً إلى أبعد طرف من الشارع الفارغ. الشارع الفارغ، السماء المائلة بعيداً، وبرج الكنيسة المشير بصليبه نحو السماء.

لو كان هذا وقتاً آخر، لوقف دستويفسكى محدّقاً فى المنظر.

عقله الآن مشوّش. كالحمم داخل بركان، شىء يهيج بداخله. أحسّ بعنفه، بضغط منه.

كأنه يقف على طرف إبرة. كم يحتمل المرء أن يكون على طرف إبرة؟

نزل دستويفسكى السلالم مستعجلاً. حين وصل الدور السفليّ، كان آلونكين يقف أمام محلّه. لا بدّ من أنه يقف فى الخارج لأنه ملّ الجلوس داخله طول الوقت. بمجرّد أن رأى دستويفسكي، ابتسم آلونكين. هو هكذا. برغم أنه المالك، المؤجّر شققه، فعقله غضّ رطيب.

حين اقترب منه دستويفسكي، أظهر عاطفته وهو يسأله "ما جديدكَ، يا فيدور؟ هل تمضى كتابتكَ بسلاسة؟"، وكلام من هذا القبيل. مع أن دستويفسكى حاول أن يبتسم لمواءمة الحال، إلا أنه أخفق.

مستأجرو آلونكين ضمنهم حرفيون وطلاّب من أماكن بعيدة. يكنّ لهم جميعاً الحبّ. لا يعامل مستأجريه كمنافق. وعليه أن يتحمّل أحياناً بعض الخسائر على حساب هذا التساهل.

قال دستويفسكى "أنا متأكّد أن الأمور ستتحسّن. لكنها تأخذ وقتاً. يستغرق وقتاً كهذا، فى حالة البعض. يوقعكَ فى مصاعب حقيقية! يختبر قدرات تحمّلكَ ثانية وثانيةً...".

ضحك آلونكين، كمن سمع نُكتة.

"حين يفكّر المرء، يضع الوقت والعجز الإنسانيّ بكفّة واحدة..."، قالها كثيراً، وقد جلب هذا بعض الراحة لملامح دستويفسكى المتوتّرة ونظر ناحية آلونكين. "أليس هذا موضوعاً مناسباً لتفكّر فيه؟ ما رأيكَ، يا آلونكين؟"

قال آلونكين "آه، لا أرى شيئاً. لا أفكّر على هذا المنوال. ولماذا يفكّر رجل مثلى على الإطلاق؟"

قال دستويفسكى بضربة واحدة "إذن افعل شيئاً واحداً. أقرضنى عشرة روبلات".

فحدّق آلونكين جاهداً كمن يسأل "هل انقلب المزاح أخيراً إلى الجدّ؟"

قال دستويفسكى "إيجارى متأخّر منذ الشهور الستة السبعة الأخيرة. لم أنس. أضف هذا أيضاً إليه. سأردّ هذه الديون جميعاً خلال وقت قصير. هذا أكيد. لنقل "ثق بي، وليس هذا كلّه بالشيء الصحيح".

لدى آلونكين الكثير من التعاطف والاحترام نحو دستويفسكى. والكثير من الحدب أيضاً. كانت أفكار آلونكين تدور حول هذه الأسطر "هل قرّر الرجل أن يبقى فقيراً تركبه الديون إلى الأبد؟ مهما يربح يبدّده فى القمار. فلا حاجة لأيّ شكّ فى بحثه عمّن يقرضه عشرة روبلات. لكن كيف أقول ليس عندى مال أو لن أهب المال ونحو ذلك إلى مجرد روح وديعة بسيطة؟"

أخرج آلونكين عشرة روبلات وسلّمها إلى دستويفسكى. لدى شكر دستويفسكى البسيط مع ابتسامة واهنة، مضى إلى الشارع مستعجلاً. "مستعجل" ليست الكلمة المناسبة هنا. فتعبيره يشى أن حياته كلّها ستضيع إن لم يصل إلى جهة معينة فى الوقت المحدّد.

حين وصل دستويفسكى نادى القمار كانت هناك جمهرة حول الموائد. يحاول حارس أمن أن يصرف مسترضياً أحداً يجادل بصوت عال قرب طاولة. ن يعود عن قراره. يحاول التحرّر من ذراعَى الحارس ويلقى شتائم منتقاة على خصمه. واضح أنه يعتمد على بندقية. لم يلق دستويفسكى بالاً لأيّ من ذلك. هذه المشاهد شائعة هنا. كلّ من يعانى من خسائر كبيرة يفقد السيطرة فجأةً. ينفجرون لأدنى سبب.

ناس مناكفون. اتّخذ دستويفسكى موضعاً قُرب إحدى الطاولات. ثم وقف لحظة يشاهد عجلة الحظّ وسوء الحظّ تدور. كان دستويفسكى يشعر بالاختناق مع حسّ متوتّر بنفاد الصبر. ذلك الذى احتفظ بمكانه على الطاولة حتى نفد منه المال كلّه نهض فجأة وغادر برأس منحنٍ. لم يعد عند دستويفسكى صبر، لينتظر دوره. فشقّ طريقه نحو مقعد واضعاً المال على القطعة الحمراء. ودارت عجلة الحظّ وسوء الحظّ بصوت رك رك ناعم. أين سترتاح الإبرة؟ بالحمراء؟ بالسوداء؟ أم بالصفر؟

تتبّعت عينا دستويفسكى الإبرة وهى تعبر القطعة السوداء والحمراء. ثم وصلت الإبرة أخيراً لترتاح فى زاوية القطعة الحمراء. فترتّب جدل حول المكان الذى ستقف فيه فعلياً. اندفع دستويفسكى مهتاجاً. أعلن مالك نادى القمار أخيراً حكمه: الإبرة فى القطعة الحمراء. دستويفسكى الذى وضع ثلاثة روبلات بالقطعة الحمراء تضاعف مبلغه. وسط بهجة اللحظة، غلب دستويفسكى حسّ بالخسارة. فآه لو وضع الروبلات العشرة كلّها فى القطعة الحمراء! ثم غلبت تلك الفكرة فكرة أخرى. كان قد نوى مبدئياً وضع روبلين فقط على عجلة الحظّ وسوء الحظّ!

بدأت العملات ثانيةً تتساقط فى القطعة الحمراء والسوداء من العجلة. سكن وهلةً دستويفسكى ليفكّر، ثم وضع خمسة روبلات بالقطعة الحمراء. ساندته الحظّ، هذه المرة أيضاً. فربح عشرة روبلات. تأكّد أن نجم السعد هناك فعلياً فوق رأسه. فوضع ثانيةً خمسة أخرى بالقطعة الحمراء. وقفت الإبرة عند الصفر. ففقدت نجمة السعد مجدها نوعياً. جرف مالك نادى القمار الحصيلة. ومن خلال الأرباح والخسائر، واصل دستويفسكى اللعب حتى الحادية عشرة ليلاً. وخسر كلّ شيء. لم يبق بجيبه كوبك واحد، فقد لعب الدورة الأخيرة بالمال الذى حصّله من رهن ساعته. وحتى هذه اللعبة

خسرها. لم يقاس هذه الخسارة الفادحة طيلة ماضيه القريب. لم يكن معه مال فى يديه. ولم تعد هناك طريقة يقترض بها المزيد. أو يواصل اللعب أيضاً. وعلى الرغم من أنه خسر كلّ شيء، إلا أنه تردّد حول الطاولات حيث يلعب الآخرون. يفكّر دستويفسكى عندئذ فى رثاء الحال التى يصبح فيها المرء عاجزاً كلياً. لا يجب أن يزوره أحد وهو بهذه الحالة. فهو امرؤ لا يساوى كوبكاً واحداً...

قاده أخيراً مشرف نادى القمار من كتفه للخروج. "الوقت تأخّر. حاول أن تصل إلى بيتكَ بأيّ طريقة".

كان الأمر كمن يحاول بمهارة التخلّص من أحد. ومع أن دستويفسكى أحسّ بهذا إلا أنه لم يتفاعل. سار وحده على طول الشارع المقفر. كانت ليلةً شاع فيها نور القمر. مع أنه يسير قُدماً يعانى ضربات الخسارة الفادحة، إلا أن جمال الليل شدّه. شيء قد تدعوه موسيقى الصمت أفعم قلبه. تنسّم شذا أزهار الليل اليانعة على مسافة بضواحى سان بطرسبرج. بينما كان دستويفسكى يسير متنسماً ذلك الشذا، تذكّر ليلة فى الماضى البعيد على ضفاف نهر النيفا(٤)... فى النيفا، مئة جزيرة وجزيرة. على مسافة من النهر، أبراج الكاتدرائية. قصور مرمرية. أشجار تنتصب بضوء القمر ضائعة فى النسيان. رؤيا شبيهة بالأحلام. هذه الليلة قطعاً لها جمال تلك الليلة البعيدة. فمن كان معى ليلتها؟ ولماذا تتلبّث ذكرى تلك الليلة فى خيالى إلى الآن؟

وهو يسير عبر الليل، حيث الثلج وضوء القمر المتهافت خفيفاً، هجم شكّ آخر على دستويفسكى. لماذا يكون الليل بهذا الجمال حين يرقد الناس للنوم؟

فجأةً تذكّر دستويفسكى الله. ما السرّ الخفيّ فى إرادة الله؟

---

(٤) Niva: نهر في منطقة مورمانسك بروسيا، ينبع من بحيرة ايماندرا، ويصب في البحر الأبيض. (م)

وهو يواصل سيره، بدأ دستويفسكى الحديث إلى الله المتمركز بمكان بعيد لا علم لأحد به:

تعال انظر بلواي، يا إلهي، فهى بالغة السوء. هل قضيتَ أن أنفق عمرى كعاجز حقير مهزوم ومنبوذ من قبل الجميع؟ ما المنطق فى جعلك إنساناً يعانى كثيراً فى حياته؟ تجربتى تنحصر فى الخسارة بكلّ مكان. وتبقى جروح القلب، فى النهاية، وحدها. فهل المرء الذى يتحمّل وحده الفضيلة هو من يتذوّق طعم الهزيمة، فى هذه السنّ؟ هل تعتبر هذا فخاراً لكَ حين أصف نفسى "المرء الذى يتحمّل وحده الفضيلة؟"، من يغرى الإنسان بفعل كلّ قبيح؟ من يغصب الإنسان أن يرتكب شراً؟ ألا تفكّر الآن حقاً أنه كان بمقدورك خلق الدنيا على صورة أحسن قليلاً عما هى عليه؟ على الأقلّ بمسألة خلق الإنسان، أظنّ الشكّ مبرّر. لو ارتكب الإنسان شراً، أيمكن ألاّ يعنيك سببه أو تزوغ عن مسؤوليته؟ فمن زرع الضعف فى الإنسان؟

أرجوكَ لا تظنّ أني، مثل شقيّ، أضعكَ محكّ المحاكمة. إنى على يقين أن شكوكى ذات أساس من الصحة. فلو أُتيح لك أن تحيى، يا إلهي، حياة امرئ مريض حقير وحيد مهزوم ومنبوذ، لفهمت على نحو أفضل ما أقول. فانظر إليّ، أيّ حياة هى حياتي؟ هل لكَ أن تدعوها حياةً على الإطلاق؟ هى محض تجربة حزينة. فأيّ معنى لهذا كلّه؟ وهل صوّرتنى على هيئة حيوان قرباناً لشيء أو أحد؟ لو أخذت هذا كلّه معاً، فقد يظهر أن هناك خطأ خطيراً فى هذه الدنيا. فما أراه حولى يؤكّد هذه العقيدة فيّ. ولديّ أمثلة كبرهان، بداية حياة كلّ من أيوب ويسوع المسيح، ونهاية حياتى المتواضعة. لن أسألكَ الآن عن العناكب بين البشر، أو الشياطين. لماذا تُراق دماء قلوب الأرواح الطاهرة؟ لماذا يسمح الله بذلك؟ لا أفهم هذا كلّه أبداً. أو سأطرح ذلك السؤال عينه فى وقت آخر. هبنى الآن تفسيراً واحداً عن حُرقة قلبى

المكلوم! هل هناك أحد آخر عاجز حقير مهزوم منبوذ ووحيد، مثلي، فى هذا العالم أجمعه؟ حين أفكّر فى هذا، تمتدّ حياتى جرداء فارغة ومعتمة. فهل تُعامل شخصاً مثلى على هذا النحو؟ بمثل هذا العنف؟ لماذا تذهب صلواتى عبثاً؟ من هناك فى هذا العالم يعرض عليّ كلمة تريحني؟ لا يجب عليك أن تُعامل أحداً آخر هكذا! انظر إلى حالى فى هذه الليلة البديعة! مهزوم حتى الكوبك الأخير، مثل مُعوَزٍ...

سار دستويفسكى طيلة الطريق، حتى وصل أمام الحانة التى تظلّ مفتوحةً طيلة الليل. يمتدّ النور من الداخل للخارج فى شكل أبواب ونوافذ.

لم يبق معه كوبك واحد. مع ذلك سار مجترئاً. هناك أربعة أو خمسة جالسون فى "معنويات عالية". كأنهم حوذيون. آخر، وجهه يبدو أليفاً، يجلس منفصلاً، وحده. حين سار أمامه دستويفسكي، سأله "أنتَ وحدكَ؟"، ردّ دستويفسكى "لا، حتى هنا معى الله"، فاتّخذها مزحة وانفجر فى الضحك.

ذهب دستويفسكى إلى الساقي، أخبره الحقيقة. "لقد لعبتُ جيداً اليوم. لكن، كلّ شيء راح معوجّاً فى النهاية. خسرتُ كلّ شيء. ليس بالأمر الخطير أن تخسر فى القمار. المهمّ اللعب، لا أن تربح أو تخسر. لكن ما يثير الأسى أن تخسر كلّ شيء. أظنكَ فهمتَ الآن: فلا أملك كوبكاً واحداً. فكّر فى شخص يمضى مبتلعاً حبةً مُرّةً من الهزيمة الفادحة. فاعطنى شيئاً أرجوكَ، أحتسيه. دَيناً. لا يخسر المرء كلّ يوم فى القمار، صحيح؟ فتخيّلنى قادماً هنا ذات ليلة وجيبى كلّه مال".

أنصت الساقى إلى كلّ شيء بصبر معهود ودون تعاطف، ودون أن يسمح حتى بظهور تغيير طفيف طارئ على تعابيره الراسخة، ثم قال بصوت فظّ:

"لن أعطيكَ دَيناً. فلا تسأل".

ولأن دستويفسكى يعرفه جيداً، لم يقل المزيد. فلا نفع مطلقاً.

وهو يسير خارجاً دون إبداء علامة على خيبة أمله، جرى وراءه من يعرفه، ناداه أن يعودَ، واضعاً يده على كتف دستويفسكى. وحين تمنّع شاكراً، أصرّ. استسلم دستويفسكى أخيراً. تذكّر، وهو جالس يحتسى معه، الصديق الذى بدا غريباً حين قابله فى ليلة كهذه من قبل، بتلك الحانة. هذا غير ذاك. مع أن هذا الصديق بدا شبيهاً بإصرار ذاك الصديق الغريب.

حين وصل بيته بعد منتصف الليل بخطوات مترنّحة، فتح البوابة، صعد السلالم، وطرق الباب الخارجيّ، لم يكن فى الواقع منزعجاً من شيء. شيء مثل ضوء القمر كان رُغاءً بأعصابه.

جاءت فيدوسيا وفتحت الباب. الحموضة دليل على وجهها، كونه أيقظها من نوم عميق.

قال دستويفسكى "تأخّرتُ قليلاً".

تطلّعت فيدوسيا وهى ترفع عينيها الدقيقتين، دون أن تنبس بكلمة. لمحة ينبعث منها حدب، عاطفة وتقريع.

مستنداً إلى الدرابزين، قال دستويفسكي:

"سامحينى. سامحينى لخاطر ربنا".

نفثت فيدوسيا آهةً عميقة.

٤

بقلب مكلوم عادت آنا ذلك اليوم. فالصورة التى كوّنتها عن دستويفسكى بخيالها لم تكن هكذا. حزنت آنا كثيراً وهى تفكّر كم عاملها بعنف ووحشية. ترقد صورة الكاتب دستويفسكى التى ركّبتها فى خيالها هناك مفتّتة نُتفاً. ألم يعاملها دون أيّ اعتبار؟ فكم يتصوّر المرء أن مثل هذا الكاتب الموهوب قد يُسدّد ألماً لآخر بهذه الطريقة؟ حين يكتب عن الحبّ ومآسيه العديدة يظهر كأنه رسول الغرام. كان هذا انطباعاً قَرّ فى عقل آنا. لكن، كم فقدته الآن! فالمؤلف كاتب الحبّ ومآسيه أحدٌ مختلف؛ والكائن داخل ذلك المؤلف الذى يسكن شخصه مختلف...

قرّرت آنا أنه يستحيل عليها أن تعمل مع هذا الرجل، بغضّ النظر عما سيعرضه عليها من أجر. كانت خائفة من أنها لو عملت مع مثل هذا الشخص، فقد تستحيل إلى مجرّد عبدة تفقد حسّها بالاستقلالية.

ثم أعلَمت أمها بقرارها قبل أن تروح للنوم تلك الليلة:

"لن أستطيع العمل مع ذلك الدستويفسكي، يا أمى. لن أذهب إلى ذلك الرجل الآن. ولا أريد الراتب الذى يجلبه".

نظرت أم آنا إليها بحسّ واهن من الشكّ. لاحظت الأمّ سعادتها اليوم السابق حين عادت من مدرسة أولخين وأعلنت خبر أنها نالت وظيفة عند دستويفسكى. وهى تُبدى الآن تعبيراً معاكساً تماماً. فماذا حدث بينهما؟ لم تفهم أمّ آنا. فقالت:

"إن عقلكَ، مثلك بالضبط! دار رأساً على عقبٍ فى نصف دقيقة!"

قالت آنا "ليس هكذا، يا أمي! فلم أر مثل هذا الشخص الفظّ. فقد هجم عليّ قائلاً إنى عملتُ أخطاءً وكتابتى ليست دقيقة كفايةً. أنا متأكّدة أنه لم تكن هناك أخطاء. فعقله كان فى مكان آخر. ووقع عليّ أنا اللوم!"

راحت أمّ آنا للنوم وهى تقول "افعلى ما تحبين".

كانت آنا متأكّدة أن أمها أيضاً أحسّت بالسوء مما حدث على نقيض من توقّعاتها. لكن لم يبد عليها. تذكّرت كم شكرت أمها الله اليوم الذى سبقه، معتبرةً أن توظيفها عند دستويفسكى فرصة موفقة.

لم تستطع آنا النوم. فعقلها مشوّش. لم تتوصّل إلى قرار. تذهب إلى دستويفسكى أم لا؟

ما قاله دستويفسكى كأنه اعتذار وقت الرحيل بدأ يُطلع ثماره فى عقلها. الحقيقة أن ذكره الصَرَع دلالة على خضوعه لاضطراب داخليّ كبير. ألم يبد على وجهه المتوتّر تعبير حسّ بالذنب لا يسيطر عليه وعدم ثقة بالنفس؟

قبل الفجر، تبدّل رأى آنا. هل آخذ الأمر بجدّية لو أعلن دستويفسكى شيئاً بمسلك طائش؟ ربما حدث ذلك كذلك لأنه أدرك ضعفه حين أخفق فى كبح أعصابه...

حين لاحظت أمّ آنا أنها تستعدّ للرحيل، بدا عليها هى أيضاً أنها سعيدة. لكنها لم تقل شيئاً. حتى آنا أحسّت بسعادة أمها الصامتة.

كانت فيدوسيا هى التى فتحت الباب حين طرقته آنا. كان السؤال "آه، ألست أنت التى جاءت أمس؟" على وجه المرأة العجوز. الشكّ مستكنّ فى عينيها الضيقتين. لم تُصغى آنا بالاً لذلك.

لدى سماعه شخصاً يدقّ الباب، رفع دستويفسكى رأسه من الكتاب الذى يقرؤه وتطلّع. حين رأى آنا خارج الباب، وقف فى بهجة لا تُوصف. كانت آنا مذهولة برؤية التعبير عن حنانه عندئذٍ. ليس هذا قطعاً الشخص الذى قابلته أمس. فأيّ فيض من الحنان! أيّ بهجة على وجهه!

"اضطربتُ من الأعماق حين ظننتُ أنك لن تمُرّى عليّ، يا آنا. تعاملى معك أمس كان فظاً. ماذا أفعل! الأمر هكذا، أحياناً. لا أتعمّد شيئاً. لا يستطيع المرء أن يبقى هو الشخص نفسه طوالَ الوقت. أو يستحيل على المرء أن يكون طيباً ومهذّباً فى أيّ مكان. كلّ امرئ يفهم هذا. فى حالتي، المشكلة هى أنى معظم الوقت شخص وضيع. وإلا، كيف فكرتُ أن أعامل سيدة شابة على النحو الذى فعلتُ؟ أنا زميل جلف، قذر، متوحّش. فاغفرى لى يا سونيا أرجوكِ، اغفرى لي".

فضحكت آنا "اسمى ليس سونيا. أنا آنا".

وكأنه ارتكب خطأ فادحاً، ضرب دستويفسكى جبهته:

"نعم، نعم. أذكُر. آنا جريجوريفنا سنبتكين. كرّرتُ أمس هذا الاسم مرات عديدة. مع ذلك نسيتُ فجأة. آنا، عليك الحذر من نقائصى منذ الآن".

فابتسمت آنا عندئذٍ وهى تفكّر فى شىء عداه:

"عندى اسم آخر ـ نيتوشكا. اعتاد أبى أن يناديني أحياناً بهذا الاسم. اسم تدليل. هل تعرف من أين جاء أبى بهذه النيتوشكا؟ من قصة فيدور ميخائيلوفتش دستويفسكى "نيتوشكا نيزفانوفا". قالته بداخلها فقط.

قبلها، استأنف دستويفسكى اعترافاته:

"ربما أُكرّر بِدعاً من الجنون. لا يجب أن تأخذى الأمر بجدّية، يا آنا. فأرجوكِ أن تأخذينى بالشفقة من البداية وتغفرى أخطائى. لقد مررتُ بأوقات عناء عصيبة. افترضى أحداً عانى نصف ما عانيته، كان سيهذى من الخبل. ومن لطف الله أنى معلّق على حافة الجنون دون أن أهوى فيها. أو دون أن أغرق فيها".

قالت آنا بابتسامة ناعمة:

"أوه، لم آخذك على هذا النحو. ولم أحسّ فيكَ بهذا أيضاً".

رافعاً عينيه نحو السماء، عبّر دستويفسكى عن نفسه:

"شكراً لله! هل تصدّقيننى لو أخبرتكِ شيئاً، يا آنا؟ لم يغمض لى جَفن أمس. كنتُ راقداً يقظاً أفكّر فيكِ، يا آنا. هكذا، أرجو عفو المولى عن معاملتى إياكِ بمثل هذا السوء. كنتُ على وشك البكاء، من ثُقل ذنبى. لماذا أكذب عليكِ؟ فما حاجتى لفعل هذا؟ والله شهيد عليّ. أمس، كان الله معي، إلى منتصف الليل. لا شكّ. أنا متأكّد من ذلك. فما الغريب فى أن يعترف أحد بخطاياه؟ لا آخذ الأمر على هذا النحو. انظري، لو سمحتِ. فإنى أركع أمامكِ، أنشدُ عفوكِ".

منعته آنا من فعل ذلك:

"لا، لا! لا يجب أن ترتكب هذا الجُرم الشنيع ضدّي!"

قال دستويفسكى "نعم، نعم! لقد أهنتكِ وآذيتكِ. لم يكن عليّ فعل شىء كهذا. أظنه تلبّسنى شيطان وقتها. على أيّ حال، سامحيني، يا آنا على هذا كلّه، أرجوكِ، أرجوكِ".

قالت آنا "نسيتُ الحكاية من زمان. ولماذا جئتُ، إن لم أنس؟"

قال دستويفسكى "لم يغفر لى أحد خطاياى قبل هذا. كلّ امرئ غيرك وضعنى محكّ اختبار وعذّبنى. تسكننى ذكرى هذه الحوادث إلى اليوم. لو سردتُ الأشياء بالتفصيل، فلن تستطيع فهمها آنا المبجّلة".

"لماذا؟"

"كلّهم موتى على صليب روح إنسان. هكذا أنا. فلا تظنى أرجوكِ أنى أحاول أن أكون مسيحاً. فليس عندى جسارة فعل هذا. فلأسألكِ شيئاً واحداً. حين يحاكم الآخرون امرأً، فهل يؤخذ فى الاعتبار ما قد تحمّله حتى لحظتها؟"

"من يعرف؟ أنا لا أعرف. فلم أفكّر فى ذلك كلّه".

سكت دستويفسكى لحظة، ثم فكّر فى شيء، وقال بآهة عميقة "لا أحاول تسويغ نفسى. فالخطأ خطئى كلّه. أحسّ أحياناً كأنى أودّ الركوع أمام أحد وأعترف: إنه خطئي، خطئي، خطئى الفاجع...".

سألته آنا "على ماذا؟"

قال دستويفسكى "لو بدأت سرد ذلك، فهناك الكثير لأحكى عنه. فمن لديه الصبر لينصت إلى ذلك كلّه؟"

ابتسمت آنا:

"اعتبره على الأقلّ شيئاً واحداً".

هزّ دستويفسكى رأسه. "لا. يُستحسن أن تتركى ما لن يُقال الآن. فهو أسوأ من أن تعيشى حياة بائسة، هل يجب على المرء وصف ذلك كلّه للآخرين بالتفصيل؟ فهو شيء تافه. إن حياتى تمضى غالباً فى يُسر. ونادراً ما أظلّ وحيداً...".

لدى دخولها الغرفة، نظرت آنا حولها بعناية.

الكتب مبعثرة على الطاولة. ماذا كان يقرأ دستويفسكي؟

التقطت آنا الكتاب وتصفّحته. قصائد بوشكين(٥).

سار خلفها، أخذ الكتاب وقال: "كنتُ أقرأ بوشكين. دعيني أسألكِ شيئاً. هل تحبين شعر بوشكين؟"

قالت آنا "أقرأ الروايات غالباً".

"لا، ليس كافياً. يجب أن تقرئي الشعر"، قال دستويفسكي وهو يضمّ الصفحات فيغلق الكتاب. "إني أقرأ بوشكين غالباً. فأسمع هدير قلبي عندئذٍ".

ثم فتح صفحتين، وقرأ دستويفسكي واحدةً من قصائد بوشكين:

الأيام تنقضي.
تتركّز كلّ لحظة في قلبي الوجيع
الحزن والبؤس من وله معتمٍ ساء حظّه؛
أحلامي مواليد مُسهّدَةٌ، أحلامُ ممسوسٍ بلهاء؛
مع ذلك لا أشكو.
بل أبكي.
تصبح الدموع عقيدتي.
تواسيني.
روحي
سجينةٌ بالأسى
تكتشفُ سعادةً مرّةً عميقةً
في الدموع.
ما أقوله صادقٌ.
فاخرجي، يا حياةُ!
تعالَي، يا شبحاً أجوفَ!

(٥) Pushkin: شاعر روسي (١٧٩٩ - ١٨٣٧)، يتّسم شعره بتنوع المضامين وموسيقى اللغة. يعتبر مؤسس الأدب الروسيّ الحديث. أشهر قصائده رسلان ولودميلا، الفارس البرونزيّ. له مسرحية الضيف الحجريّ، ورواية شعرية يوجين أونجين. (م)

طيري، طيري وتلاشَي
فى فراغِ العتمة الوحيد!
الخلود ألم عنيفٌ
للحبّ عزيزٌ على قلبى.
لو أحبّ الموتُ حبي، فدعنى أمت.

بعدما أنهى القراءة، نظر دستويفسكى نحو آنا بتعبير غُفل. مرّت لحظة صمت. ثم أغلق دستويفسكى الكتاب ووضعه على الطاولة.

قالت آنا:

"أنا مستعدّة. لو أردت أن تُملى عليّ، فيمكننى أن أدوّن".

حينذاك تذكّر دستويفسكى لماذا جاءت آنا:

"آه، نسيتُ. ألم أخبرك؟ هناك شىء بى خطأ".

وضعت آنا دفترها فوق طاولة، وجلست فى كرسيّ. كرسيّ قديم ساقاه مائلتان.

ثم أشار دستويفسكى إلى كرسيّ قرب النافذة قائلاً:

"اجلسى هناك، يا آنا. فهو مريح أكثر. أكتب وأنا جالس فيه".

نهضت آنا، سارت إلى الكرسيّ قرب النافذة وجلست. أحسّت فرحة لا تُفسّر بجلوسها هناك. قالت لنفسها، إنى أجلس فى الكرسيّ الذى يشرّفه دستويفسكى بالجلوس والكتابة. أجلس فى هذا الكرسيّ الذى كتب عليه دستويفسكى "الجريمة والعقاب".

جلس دستويفسكى فترة، ويده إلى جبينه، كأنه مغمور فى فكرة ما. ظنت آنا أنه يخطّط للرواية التى سيكتبها. بعد جلوسه هكذا وقتاً أكثر، قال دستويفسكي:

"لا أعرف أين تسكنين، يا آنا. وإلا لجئتُ أمس هناك فى المساء أنشد عفوكِ".

تطلّعت آنا فى دستويفسكى بعجب خالص.

ألم ينس بعد؟

هل كان هذا ما يفكّر فيه طيلة هذه الفترة؟

أشعل دستويفسكى سيجارة ونفث دُخانها، ثم سألها:

"أين قلتِ يقع منزلك؟"

ضحكت. فلم يسألها أين يقع منزلها ولا هى أخبرته الجواب. مع ذلك، يظنّ أنه نسى.

قالت آنا "فى بيسكي".

سألها دستويفسكي، بتعبير من لم يسمع بهذا المكان "وأين يقع؟ هنا، فى سان بطرسبرج؟"

فأمّنت آنا، وهى تضحك.

أحضرت فيدوسيا شاياً أسود. عادة دستويفسكى أن يشرب شاياً أسود فى مثل هذا الوقت من النهار. أخذت فيدوسيا فنجاناً وقدّمته أيضاً إلى آنا. كان الشاى أقوى من المعتاد. ولأنه حلو كفاية، فلم تجد غضاضة فى شربه.

بعد شرب الشاي، أشعل دستويفسكى سيجارة أخرى.

جلس دستويفسكى ضائعاً فى أفكاره زمناً، ثم قال:

"ما يدور فى بالى قصة مقامر. القصة كلّها هنا، برأسى. الصعوبة كيف أبدأ. من أين أبدأ؟ كيف أبدأ؟ تنتابنى هذه الحيرة عادة قبل بداية الكتابة".

فردت آنا أصابعها وارتاحت، ترقب سماع دستويفسكى وهو يواصل حديثه.

فاصل آخر من الصمت وبدأ دستويفسكى الحديث عن الرواية التى ينوى كتابتها:

"هناك بضع تجارب من رحلتي الثانية إلى أوربا. إني أنفتح عليكِ، يا آنا. دون أن أخفي شيئاً. لقد قمتُ بهذه الرحلة بحجّة البحث عن علاج لمرض صَرَعي في فسبادن(٦). في الحقيقة، كان غرضي أن أُجرّب حظي بنوادي القمار هناك. فهل أحكي هذا للآخرين؟ في نوادي قمار فسبادن، رأيتُ الكثير عن لعبة الحظّ وسوء الحظّ هذه. فالخاسرون هناك أكثر بكثير من الرابحين. حين أقول خسارة، أعني هزيمة في حرب".

حين بدأ يتحدّث عن القمار ونوادي القمار، أصبح دستويفسكي أكثر حيوية في تعبيره. بسبب تدفّقه الداخليّ، تحوّل في لحظات إلى شخص كأنه كاهن. مع أنه بدأ بالقول إنها كانت تجارب في رحلته الأوربية الثانية حيث تتأسّس الرواية، إلا أن دستويفسكي أخفى الأسرار وراء تلك الرحلة. ضمن هذه "الأسرار"، واحدة من علاقاته الغرامية أيضاً.

التقى دستويفسكي باولين سوسلوفا، طالبة الجامعة، كانت بالعشرين فقط، وهو بالأربعين!

اضطرم عطش الشباب في قلبه، أفلم يكن يجتاز مفازة مصيره؟ ذكراها تقرّ في عقل دستويفسكي مثل لحن حزين. يخدع السراب فحسب المسافر عبر الصحراء. ويتذكّر دستويفسكي الآن تلك العلاقة الغرامية متألّماً، فتجربته كذلك. وهو يمرّ بتلك التجارب الواخزة من علاقات الحبّ الفاشلة ونوبات الإحباط، دخلت باولين حياة دستويفسكي كالحلم. مع الحبّ. مع التتيّم. "كالحلم"، صحيح حرفياً. كانت كذلك. حين قالت باولين إنها رأته بمناسبة أسبق في لقاء المثقفينَ اليساريين، لم يتذكّر دستويفسكي. لقد جاءت بقصة لتنشرها في "الزمان"، فأذهل عينيه برق جمالها. ثم تطوّر الأمر إلى علاقة حميمة. لم تكن حميمة في حدّها البسيط؛ لكن أكثر رابطة حميمة بين قلبين! كانت هذه العلاقة الغرامية أشبه شيء بالعاصفة ـ جوهرية، هائجة، ومكثّفة عاطفياً...

---

(٦) :Wiesbadenمدينة تقع جنوب غربيّ ألمانيا. (م)

مع ذلك، حتى فى تلك الرابطة الغرامية انشقّ صدع. انخرط فى عدّة ورطات وقتها. لم يكن من السهل عليه أن يحلّ نفسه من ذلك كلّه. وحين تركته فجأة إلى باريس، شعر دستويفسكى أنه سقط من جديد فى قاع فراغ سحيق. فترك زوجته المُحتَضَرَة وحدها، مدفوعاً بعاطفة قلبه النهمة، وتبع باولين. فى طريقه، انهمك فى القمار مما قاده للتشرّد.

هكذا انتهى به الحال إلى نوادى قمار فسبادن. فقامر، ورهن ساعته وخاتمه. بعدما يربح مرة، يخسر فى التالية. لم تكن تعتريه الفرحة حين يربح ولا يعتليه الكرب حين يخسر. المهم النشوة التى يجنيها من المقامرة.

فكّر أحياناً أن هذه اللعبة ستحيله إلى معوز مهان. لكن، هل يستطيع منها فكاكاً؟ ماذا يحدث حين يحاول المرء أن يخرج رِجله من مستنقع؟

سرد تجاربه، دون أن يلامس أياً من أسراره، فى نوادى قمار فسبادن، ثم توقف لحظة فى ظلّ هذه الذكريات.

دارَ نحو آنا:

"كم عمرك، يا آنا؟"

لم تتوقّع السؤال، فجلست فاغرة فمها فى حيرة. بعدما مرّت اللحظة، أنّبَت نفسها على شرودها حين سألها عن عمرها، فأخبرته:

"عشرون".

قال دستويفسكى لحظتها، كعلامة تهنئة ذاتية "كما خمّنت بالضبط".

نظر دستويفسكى ثانية فى فراغ المكان، ثم أدار وجهه نحوها:

"لا يهمّ. عموماً، سنبدأ غداً الرواية. لم يأتنى الإلهام حتى الآن. هيا. سأخرج معكِ قليلاً، يا آنا".

وهما ينزلان السلالم، كانت فيدوسيا تقف وراء باب المطبخ، تراقبهما.

وهما يسيران معاً على الطريق، تحدّث دستويفسكى ثانية عن الرواية التى ينوى كتابتها.

"سأخترع مقامراً أضعه ضمن عناصر من تجاربى الخاصة - ذلك ما يتشكّل فى بالى. قد يشعر القرّاء أنها ذروة جنون درامية. ربما، نعم. لكن، ليس هذا كلّ شيء. فكّرت فى ذلك مرة، يا آنا؟ أنهم لا يستحقّون، أولئك من ينالون الرفاهية والجمالَ والرتبة الاجتماعية. يحدث هذا غالباً. حتى فى واقعية الحياة، يترصّد العبث من حولنا، أليس كذلك؟ لا تظنى أرجوك أنى أنتقد الله. فالحياة هكذا. ثم، هناك أيضاً سوء فهم للقمار. لو فكّرت فيه، أليس نادى القمار عالماً وحده؟ قد يربح البعض. ويخسر آخرون. فما طويّة الحظّ وسوء الحظّ؟ أفليس كلّ شيء مصادفة عرَضية؟"

سمعت ذلك آنا، فقد وقف دستويفسكى مرة ينتظر الموت أمام فرقة إعدام، ونجا على شَعرة فى اللحظة الأخيرة، نتيجة معجزة حوّلت مسار الأحداث. كلّما سمعَت اسم "دستويفسكي"، تذكُر دائماً تلك الحكاية. تردّدت لحظة؛ هل يحبّ دستويفسكى أن أذكّره بها؟ ماذا إن لم يحبّ؟

على رغم تردّدها، فلم يجعلها عقلها تظلّ صامتة.

حينما مرّا بدوران، سألته "سمعتُ أبى يقول إنك نجوت فى إحدى المناسبات من الموت، من أمام بنادق جنود مصوبة نحوكَ؟ صحيح؟"

"تسألينني إن كان صحيحاً؟"، أدار دستويفسكى وجهه وتطلّع فيها. "مررتُ بهذه التجربة حقاً فى حياتى. فكّرى فيه فقط! الموت، فهو قريب جداً! بُعَيد لحظة!"

ثم سرد دستويفسكى على آنا الحادثة كأنما يخبرها حكايته الأثيرة:

قُبض عليه لدى سوء فهم يتعلّق بعصبة متمرّدين يقودهم بتراشفسكي(٧)، الذى كان يحاول إثارة القلاقل ضدّ القيصر. دستويفسكى وقتها فى الحادية والعشرين. وقد ابتعد عندئذ عن بيلنسكي(٨) وفرض تقريباً على نفسه عزلة. لم تكن لدى دستويفسكى ميول سياسية. لكن

---

(٧) Petrashevsky: اشتراكىّ روسىّ ثورىّ، مشايع للاشتراكىّ الفرنسىّ الطوباوىّ شارل فورييه. وكان يقول لقد حكمنا بالموت علي المجتمع الحالى، فيجب علينا أن ننفذ الحكم الآن. (م)

(٨) Pelinsky: ناقد أدبىّ روسىّ، لعب دوراً بارزاً في حياة مجايليه، خاصة الشاعر نيكولاي نيكراسوف، ومجلته سوفرمنيك (المعاصر). (م)

جواسيس القيصر كوّنوا عنه صورة نقيضة. يذكُر تاريخها الآن بالضبط: ٢٣ أبريل ١٨٤٩، حينما عاد من وكر بتراشفسكى وراح للنوم، كان الفجر على وشك الطلوع. فغفا. وعندما بدأ يستيقظ سمع دقّات ثقيلة على الباب، فماذا رأى؟ الشرطة بالخارج. ثم معهم إلى السجن. فقط حين وصل هناك، علم بالأمر كلّه. لم يكن السجين الوحيد. كان غيره أربعة وثلاثون، من عصبة بتراشفسكى. صفعتهم تُهم الخيانة. تبعتها المحاكمة من ثمّ الحكم. ثم، الحبس الانفراديّ فى زنزانة بالقلعة. أخيراً، صدر حكم الإعدام ضدّ خمسة عشر منهم. التنفيذ بفرقة إعدام. حينها لم يهتزّ ولو قليلاً. وقف من دون عاطفة وسط عاصفة أو زلزال. المشكلة أنه ينفجر لأيّ سبب تافه بين حين وآخر... وقف فى أراضى العرض العسكريّ صفّاً مع الآخرين، يداه وقدماه مصفّدة بالسلاسل. وكلّ شىء يقترب من نهايته. خمسة عشر كفناً مجهّزة فى صفّ على بُعد قليل. وصل الكاهن ليمنحهم بركته. وحين قبّل الصليب، أحسّ كأنه يقبّل السيد المسيح للمرة الأولى فى حياته! رفع الجند بنادقهم وصوّبوا على الهدف. عينا دستويفسكى قد ثُبتتا فى السماء على برج الكنيسة. لحظته الأخيرة فى الأرض! ثم ظهر، بثانية إطلاق النار، جنديّ على فرس يلوّح بمنديل أبيض! يقول "لا تقتلوهم؛ فهو سجن مشدّد فقط!" تساوى وقتها معنى الحياة والموت. لم يعرف ما إن يبكى أو يضحك حينما انفكّ من هذه اللحظة...

أنصتت آنا إلى الحكاية بانفعال عقليّ فظيع. لم يبدّل دستويفسكى تعبيره. غاب عن وجهه كلياً الجيشان الانفعاليّ الذى يجرّبه الإنسان العاديّ فى مناسبة ما. فى الواقع، هناك ابتسامة ناعمة تلعب على شفتيه.

قال دستويفسكى "أمر مسلٍ أن نتذكّر هذا الآن. لكن كيف كان فى لحظات الموت تلك؟ اسمعى يا آنا. مجرد فكّونا من الأعمدة، سقط أحدنا

صريع الجنون. وغاب آخر عن الوعى. فلدى التفكير فى وعيد الموت، يبيضّ شَعر المرء كلّه فى ليلة. لا تظنى أرجوكِ أنى أتباهى. وأنا أقف مرتقباً الموت، أحسستُ بنوع من التفكير الخانق حتى لم أعد أستطيع الكلام مع أحد عن هذه الحكاية التى كتبتها اليوم السابق".

تطلّعت آنا فى دستويفسكى بدهشة. أيّ نوع من الناس هو؟ أليس هذا عن إنسان حيّ يتذكّر حينما وقف إزاء الموت؟

تذكّرت آنا فجأة، فيما يتعلّق بموضوع انتظار الموت، راسكولنيكوف فى "الجريمة والعقاب". قرأتها من وقت سلف. توهّج هذا الجزء صاعداً بذاكرتها:

فكّر راسكولنيكوف، وهو يواصل السير "أين كان ذلك، أين كان ما قرأته عنه، أنّى لرجل مُدان، قبل ساعة من موته فقط، أن يقول أو يفكّر إن كان عليه أن يعيش فوق صخرة عالية، فوق نتوء صغير لا يسع أكثر من مساحة قدميه ـ معه كلّ ما حوله، الهاوية، البحر، والليل الخالد، العزلة الخالدة، والعواصف الخالدة ـ قد يظلّ هناك، على هذا الشريط الضيق من الأرض طيلة حياته، ألف سنة، خلال الأبدية كلّها ـ من الأفضل أن نواصل الحياة عن الموت فوراً! أن نعيش، ونواصل العيش! لا يهمّ كيف ـ فقط أن نعيش!..." (٢)

المرء الذى يستحضر لحظات الموت الصاخبة بشخصيته الآن، يستغرق من باب المزاح فى حكاية ما مرّ به من لحظات الموت.

فيا له من عقل!

بينما وقفت آنا مضروبة بالدهشة، قال دستويفسكي:

"حياتنا ومماتنا داخل قلوبنا. هل تعرفين، يا آنا، داخل قلبى أنى عشتُ حتى الآن. وسأعيش باقى عمرى على هذا النحو. وماذا يهمّ موت شخص كهذا؟"

لم تفهم المعنى كاملاً.

حين وصلا مفرق طرق، وقف دستويفسكي:

"تعالى باكراً، غداً. سنودّع بعضنا البعض الآن. لا تفهميني خطأ، أرجوكِ، حينما أتحدّث منفتحاً. لا أحبّ الادّعاء أمام الناس. حتى مع الغريب الذى يقف بناصية شارع ويسأل كم الساعة. أفعل القليل منه معكِ، يا آنا! لو أخفقتُ فى اكتشاف صديق لديه عقل رؤوف ليقرضنى بعضاً من المال الآن، فقد يضيع باقى نهاري".

شعرت آنا أنها تقابل كائناً عجيباً للمرة الأولى فى حياتها. ما قاله كلّه إلى غريبة، فتاة تعرّف عليها من يومين فقط! استرخى قطعاً بمزيد من الثقة فيها ليفعل هذا. حين فكّرت آنا فى المسألة، شعرت بحسّ أكيد من الزهو. ثم غارَ قلبها فى اللحظة التالية. هل يحكى هذا كلّه إلى غريب يقف بناصية شارع ويسأله كم الساعة؟ هل يفتح قلبه هكذا كثيراً؟

٥

ليصل إلى بداية قصة المقامر التى كان على وشك كتابتها، جلس دستويفسكى مؤرّقاً جنب طاولة كتابته حتى منتصف الليل. كان فى تأمّل، نوعاً. عقل تتقاذفه الأهوال ينهمك فى صلاة بلحظة معتزلة. عليه أن يبدأ من هنا. فماذا يعنى بقصة مقامر؟

عقل إنسان يواجه حوادث الحياة العارضة. الحماقات التى أقحم نفسه فيها، فى حالته المؤسّية. النكسات التى يواجهها؛ الإهانات التى يتحمّلها. أحلامه، خيباته، أحزانه. مع ذلك، هناك النوبات، السُكر، وتوتّر لحظة الحكم بالربح والخسارة التى تُوزن بميزان! هناك شىء آخر بالقمار، كنشوة المتعة فى غرام عنيف.

أو، لمَ لا نعتبره وسيطاً مع القدر؟

قمار مع الحياة!

فصل دستويفسكى العجز وعاطفته نحو القمار عن شخصيته، تخيّل البطل ألكسى ايفانوفتش بصورة كاملة. حينما وضع باولين محلّ البطلة، فكّر أنه أفضل لتغيير الحقائق قليلاً هنا وهناك. مع أن حبها وجيع وألَمَ قلبه، إلا أنه كان عميقاً عنيفاً. أنّى له بنسيانه؟ فى قاع قلبه المُجرَّح، هنالك ذكريات لا تمّحى.

قرّر دستويفسكى أنه يُفضَّل أن يُبدى الجانب الآخر من الواقع باستجلاب شخوص من الحياة الواقعية والحقائق فى عمل أدبيّ. ولا يعنى الجانب الآخر من الواقع بالضرورة الوهم. فقد يتخفّى الواقع فى نمط آخر من التعبير.

إذن، ما خطّ الحكاية؟

بينما كانت باولين تغادر روليتنبرج(٩) مع أولادها، كان ألكسى ايفانوفتش يتبعها أيضاً. هناك، بالدور الثالث من خان، يشغل جنرال مسكناً. جاء، كالآخرين، إلى روليتنبرج أيضاً، للمقامرة. كان الجنرال منكسراً تقريباً نتيجة خسارته الثقيلة فى تعاقب سريع. مع ذلك، لم يندفع لليأس. لو ماتت فى موسكو جدّته العجوز لورث مئات الآلاف من الروبلات. وهو يرقب تسديد ديونه من ثم الزواج من مدموزيل بلانش، الجميلة الفرنسية. هناك كُثر آخرون يظلّون فى الخان - مارى فيليبوفنا، آستلي، والفرنسيّ دى جريو. كانا باولين وألكسى يقيمان معهم. تحرص باولين أن يكون حولها ألكسى من أجل لا شىء وكلّ شيء. ليرهن حُليّها ويجلب مالها، ليقامر ويجنى مالاً عوضاً عنها، وكرفيق حين تنتقل من مكان إلى مكان. وبسبب حبه العميق تجاهها، كان ألكسى يفعل هذا كلّه فى سرور. لكن، ماذا تفعل؟ فهى تحبه وتبتعد عنه فى الوقت نفسه! وقد يحسّ أحياناً أنها تجعله أيضاً يلعب دور المهرج. يتحمّل هذا كلّه، لخاطر حبه فحسب! فما نوع

---

(٩) Roulettenburg: مدينة ألمانية، من اختراع دستويفسكي في روايته المقامر، تقع في بادن بادن، ويبدو من اسمها اللعب علي كلمة الروليت. وكان دستويفسكي مصراً عليه عنواناً للرواية، إلا أن الناشر أجبره علي تغييره إلي المقامر. (م)

هذا الحبّ، الذى يجعل الرغبة تزدهى فيه ثم تُحبطه وتقحمه فى متاعب بلا نهاية! علاوة على أنه حين يحاول معرفة أن الإنجليزيّ آستلى والفرنسيّ دى جيرو مفتونان سراً بباولين، يصبح حبّ ألكسى يائساً.

أخبر ألكسى مرة باولين أنه سيقفز يوماً من قمة شلانجينبرج (١٠)، أسفل هاوية، لو نطقت بالكلمة. وهى قرابة ألف قدم!

قالها لمجرد أن يجعلها تصدّق حبه لها.

تقول باولين ساعتها إنها قد تقول الكلمة فعلاً ذات يوم!

حين يرى نوعية حبها - الإخماد، الغواية ثم الانسحاب - يشعر أنه يودّ قتلها. خنقها. ولديه فرص عديدة لفعلة هذا.

يفكّر ألكسي: سأقتلها بغرس خنجر حادّ النصل حتى مقبضه في قلبها. ذات يوم، سأفعلها، وأنا سعيد. فلماذا لا تفهم رغبات قلبي؟

يصبح وجه باولين سوسلوفا الداكن حياً فجأة فى عقل دستويفسكى.

يبقى الأمس أخضر بذاكرته...

حينما ابتعد عاجزاً أن تبقى له اليد الطولى فى أمور الغرام من وهن قلبه، كانت هى من اقترب منه أولاً بالغرام والتتيّم. بلّغها بداية كلّ شيء عن حقائق حياته، دون أن يكتم عنها ذرة سرّ واحدة. "إنى أتجاوز الأربعين. لديّ زوجة جلبتها فى حياتي، وأحبها. أنا فى فقر مدقع. شخص ضئيل القيمة فى نظر الآخرين. زَرِيّ. فماذا ترين فيَّ، إذن، لتحبينى هكذا؟"

لم يأخذ حبها وقتئذٍ أياً من هذه الأشياء فى اعتباره عائقاً.

كان لقاؤهما المتعدّد بمواضع منظّمة يجرّ قلبيهما معاً. كان عمق وكثافة وسكرة ذلك الهوى يزداد يوماً إثر يوم.

حين تغلّب دستويفسكى على وعيه الذاتيّ المبدئيّ، غرق فى أعماق ذلك الغرام. بالنسبة إلى دستويفسكي، استحال غرامه تواً إلى جوع وظمأ فى

(١٠) Schlangenberg: جبل ثعبانىّ في غربىّ ألمانيا. (م)

روحه. كانت عواطفه مثل جوع وظمأ شيطانٍ قد رقد سجيناً فى مغارة مظلمة منذ قرون دون طعام ولا ماء.

تصوّر شخصاً يصادفكَ بالشارع ويسألكَ: "ما الحبّ؟"

قد يجيب دستويفسكى عندئذٍ من دون انتظار ولا نصف ثانية "الحبّ يعنى احتفال الجسد والعقل. وماذا غيره؟"

لكن الحبّ له منحىً أنانيّ أيضاً. فالمرء يقصد من حبّ امرئ، أن يصبح كلّه له.

سألته باولين فى أحد الأطوار:

"لماذا تحفظنى بعيداً عن قلبكَ، مع أنكَ تعترف بحبكِ لي؟ من تظنني؟ فتاة للحبّ بالأُجرة؟ أم عبدتكَ؟ لماذا تجعل هذا لعبة استغماء؟"

سبّبت تلك الكلمات الغضبى هزّة فى قلب دستويفسكى.

"أنا لم أُخف عنكِ شيئاً. فدعى العالم كلّه يعرف حبي، إلا واحداً. مارى البائسة. هل يمكن أن تتحمّل هذا، وهى تنتظر الموت؟"

فضحكت باولين ساخرةً:

"مع أنكَ قلتَ إنها قد تُسبّب لكَ الكثير من المتاعب، إلا أن هذه طريقتها فى قلب عقلكَ. هل آتى لأشحذ منكَ؟ أتظنّ هذا؟ أو كأنى شخص ينتظر دقّتكَ على الباب ليفتحه لكَ؟ لستُ تلك اليائسة. لستُ مستعدّة أن أتّبع أحداً فى السرّ، لأمدّ يدى بغرامى. سنفترق هنا".

لم تكن باولين أكثر من فتاة جاءت تعرض نفسها عليه مع الحبّ والتتيّم. وهى حيوان بريّ جريح.

ذكرى وجهها الداكن غير المحبّ تشتعل فى بال دستويفسكى.

ليلةٌ فى نورٍ قمريّ ساطع وندفٍ ثلجية. نور القمر يتقطّر فى أماليد الشجر. تمتدّ الطريق المقفرة إلى مسافات لا نهائية. سار دستويفسكى على

غير هدىً خلال النور الشاحب لمصابيح الشوارع بضوئها المعتم. ثم واصل سيره حتى وصل أمام الكاتدرائية، فتذكّر العجوز الذى اعتاد لقاءه تحت الشجرة الظليلة. تكوّنت بينهما رابطة من الرفقة. فأين العجوز الآن؟ هل يهيم حيثما اختفيتُ، حين لم يجدنى هنا من فترة طويلة؟

إن التعارف الجديد بالمصادفة، هو تقريباً كالعزاء حين يكون المرء وحيداً تماماً فى الحياة.

من جديد، طلع وجه باولين سوسلوفا الداكن غير المحبّ أمام بال دستويفسكى لا شعورياً. وهو يحاول أن ينساه، تبقى ذكراه فى قلبه مثل تاج من الشوك. ضمن الجروح التى يسببها هذا الشوك، ينزّ دم وآلام.

لو عليه أن يحاول ويتذكّر شيئاً آخر، فماذا سيكون؟ كلّ ما لديه، تجارب مريرة. الفقر الذى يضطهد حياته. حتى الديون المتصاعدة. نوبات الإخفاق. الوحدة والفراغ اللذان يملآن عقله. ولا شىء من هذا يستحقّ التذكّر.

كان هذا حين تذكّر دستويفسكى فجأة وقتاً ربيعياً فى سان بطرسبرج. ليس الوقت ربيعاً الآن. مع ذلك تهلّ عليه ذكرى ربيع سلف. هناك جمال ناقص ضمن القرى المحيطة بسان بطرسبرج فى وقت الربيع.

أحسّ أنه وصل إلى بعيد، بعيد جداً، فى سيره. ألا يزال هو فى سان بطرسبرج؟ ناظراً حوله، أحسّ أن محيطه غريب كلياً عليه. ربما لم ير كلّ ركن فى سان بطرسبرج.

أم هل لأن هذه المدينة أيضاً قد شرعت تنظر إليه كدخيل؟ ينتاب دستويفسكى هذا الشعور بين حين وحين.

تنظر المدينة إليه كأنه غريب أحياناً، وتسأله "من أنتَ؟"، فى تلك اللحظة يصبح امرأً لا يرغب فيه أحد على وجه البسيطة.

يمرّ هذا لمجرد لحظة. فتصبح هذه المدينة ثانيةً أعزّ ما لديه. وهو يسير فى شوارعها مبتلعاً أتراحاً مريرة، كانت هذه المدينة تعزيه. فى صمت.

حتى حينما تظهر المدينة أحياناً كأنها برية أو فلاة كبيرة، يتبقّى مع ذلك أمل هناك. هل يقابل شخصاً ما فى مكان ما. يتذكّر دستويفسكى لقاءه بضعة أشخاص فى أحلامه أسّس معهم صداقات.

أعتم نور القمر. وصارت ندف الثلج ثقيلة. هو ظلّ السماء هناك على الأوراق، بدلاً من نور القمر. تستحيل الأشجار إلى صور ظليلة داكنة.

عاد دستويفسكى أدراجه عبر طريق أخرى. يبدو ظلاً آخر ضمن ظلال لأشجار ومبانٍ.

يملأ عقلَه فراغٌ لا يُحتمل مثل فيضان غير مرئيّ.

كم الوقت الآن؟ يحسّ الآن بكثافة غياب الساعة.

ماذا يظنّ الآخرون لو رأوه عبر هذه الطريق قرب القلعة بهذه الساعة الغريبة؟ وماذا لا يظنه الآخرون! مَن ينفر مِن حكم عابر على الآخرين؟

فى نور القمر المعتم تبدو بناية ألونكين ذات الأدوار الخمسة كأنها عنق صخريّ كبير. لا صوت فيها أو حركة. كلّهم فى سُبات عميق بهذه الساعة، قبل منتصف الليل بالضبط. صعد دستويفسكى السلالم دون أن يُحدث جلبة. طارت حشرة حول اللمبة. شرب دستويفسكى ماءً من جرّة خزفية موضوعة على الطاولة.

أحسّ دستويفسكى عاجزاً أنه يغرق عميقاً فى هاوية فراغ كان يحيط بعقله. فتح الكتاب المقدس الموضوع على الطاولة. حينما يسودّ عقله ويستحيل فارغاً، يقرأ فى الكتاب المقدس. يهبّ نور عندئذٍ فوق الفراغ والظلمة. حينما فتح الكتاب المقدس عشوائياً، كان القسم الذى رآه هو الآية ١٢، الإصحاح ٢٤، من سِفر الخروج. فقرأ من هناك، صامتاً:

وقال الربّ لموسى "اصعد إليّ إلى الجبل وكن هناك فأعطيكَ لَوْحَى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم".

فقام موسى ويشُوع خادمه. وصعد موسى إلى جبل الله.

فأما الشيوخ فقال لهم: "اجلسوا لنا ها هنا حتى نرجع إليكم. وهو ذا هارون وحور معكم. فمن كان صاحب دعوى فليتقدّم إليهما".

فصعد موسى إلى الجبل فغطّى السحاب الجبل.

وحلّ مجد الربّ على جبل سيناء وغطّاه السحاب ستة أيام. وفى اليوم السابع دُعى موسى من وسط السحاب.

وكان منظر مجد الربّ كنارٍ آكلةٍ على رأس الجبل أمام عيون بنى إسرائيل.

ودخل موسى فى وسط السحاب وصعد إلى الجبل. وكان موسى فى الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة. (٣)

للحظة، طار عقل دستويفسكى قرب موسى وهو جالس فوق جبل سيناء.

ثم أطفأ دستويفسكى النور، ورقد لينام. دخل، قبل مرور وقت طويل، فى أعماق السُبات الزرقاء.

كان اليوم التالى مشرقاً. شعر دستويفسكى أنه متحمّس على غير العادة. لم يعد أيّ من كآبة الأيام السابقة. عقله الذى رقد معتماً وبليداً هو الآن مليء بالنور. لا سبب معيناً للحديث عن هذا. كان هكذا. قد يتغطّى العقل أحياناً بالعتمة. ويتكشّف، أحياناً أخرى، نور كامل.

جاءت آنا للعمل مبكراً ذلك اليوم. فى الحقيقة كان دستويفسكى ينتظرها من بكرة الصبح. حين صعدت السلالم، كان دستويفسكى جالساً فى الشرفة يتطلّع. وحين حيته بابتسامة مشرقة و"صباح الخير"، فكّرت آنا: "روحه المعنوية عالية اليوم".

قال دستويفسكى "حين رقدتُ لأنام، قبيل الفجر بقليل، حدث معى شيء. أمس، كان عقلى مثل قارّة معتمة. واليوم ليس كذلك. يملأ عقلى الآن نور ألف شمس. فلنبدأ (المقامر) اليوم".

فى الكرسيّ جنب النافذة، جلست آنا بقلم رصاص ودفتر فى يدها.

جالساً بعينيه مغمضتين لحظة، بدأ دستويفسكى يُملى القصة كأنه يقرأها كما تتبدّى فى عقله:

عدتُ أخيراً بعد غياب أسبوعين. كانت جماعتنا قد وصلت روليتنبرج منذ أول أمس. ظننتهم ينتظرونني بصبر نافد، لكنى كنتُ مخطئاً. نظر إليّ الجنرال باستعلاء بارد، متلفّظاً بضع كلمات متعطّفة ثم أرسلنى إلى أخته. من الواضح أنهم اقترضوا بعض المال من مكان ما، حتى ظننتُ أن الجنرال كان فى حرجٍ من مرآى. وكانت مارى فيليبوفنا مشغولة للغاية فخاطبتنى قليلاً؛ لكنها أخذت المال، وعدّته، ثم أنصتت إلى كلّ شىء عليّ الإدلاء به. كانوا ينتظرون على العشاء، ميزنتوف والفرنسيّ الصغير وإنجليزيّ أو آخر؛ مجرد أن يتوافّر بعض المال، يكون حفل عشاء؛ كما يحدث عادة فى موسكو. وحينما رأتنى باولين ألكسندروفنا، سألتنى لِمَ هذا الغياب الطويل، ثم سارت مبتعدة دون انتظار ردّ. فعلَت هذا عمداً. عموماً، علينا أن نتكلّم. فقد تراكمت أشياء كثيرة. (٤)

استمرّ دستويفسكى يُملى الرواية دون عائق أو مانع. وجَهِدَت آنا أن تسابقه. كان عقل دستويفسكى فى عجلة كبيرة. ومع أن آنا فكّرت أن تبلغه بالإبطاء قليلاً، إلا أن ذكرى تجربة اليوم الأول أثنتها عن فعل هذا. ثم اضطلعت بالمهمة نوعاً من التحدّى. فلأر إن كنتُ أستطيع مجاراته...

حينما استمرّت تكتب هكذا بسرعة قدر ما تستطيع، تورّطت فى كلمة. ما الكلمة؟ فلم تسمعها. لأن عقلها كان مشغولاً بسرعة الكتابة، سقطت الكلمة من انتباهها. علاوة على أن دستويفسكى نطقها بسهولة نوعاً.

أثارت آنا استفساراً:

"لم أسمع بشكل صحيح. فكرِّرها لُطفاً".

أفاض دستويفسكى فجأة فى هياج منفجراً. خلال دقيقة واحدة، أعتم وجهه. كشّر عنف حيوان بريّ عن أنيابه ومخالبه من ذلك الوجه.

"اللعنة! ما هي؟ فيم كان تفكيرك؟ أين عقلك؟ لو ظللتِ تتدخّلين وتحشرين نفسك بأسئلة، فسأفقد دفق إملائى. سأفقد كلّ شيء. لماذا جئتِ أصلاً؟ لتحطّميني؟"

أُخِذَت على حين غرّة فى البداية. شخصية دنيئة تصرخ أمامها!

ولأنها تآلفت الآن مع الطبيعة الغريبة للروائيّ، جلست هادئة، وجهها لأسفل.

وقف دستويفسكى أيضاً زمناً يتفرّس فى المكان.

وتدريجياً خمدت عاصفة ورياح ذلك العقل.

اقترب منها ببطء، وقف منحنياً، يداه على الطاولة، وقال بهدوء:

"سامحينى. دون أن أدري، أنا... فجأة... لا تحسّى بأسى، أرجوكِ، يا آنا. هذه شخصيتى. أحياناً، على غير توقّع، ينفجر الشيطان بى طليقاً. قولى لي، أين ما فاتك؟"

أطلقت آنا آهة عميقة، وببطء رفعت وجهها ثم تطلّعت فى دستويفسكى.

لم يكن ما تراه الآن الوجه الذى رأته من لحظة.

بحسّ ممزوج بالدهشة والعاطفة، فكّرت "شخصية هذه اللحظة، ليست الشخصية نفسها فى اللحظة التالية".

ناظرة فى الورقة، قرأت فوراً القسم السابق للكلمة الفقيدة.

بطريقة أو أخرى، ستُسَوَّى المسألة. فهى تفهم هذا كلّه فى الواقع، والفكرة التى أتعرّف عليها بيقين ووضوح كاملين يتعذّر منى أن تصل إليها، فهى يصعُب أن تدرك أحلامى الخيالية -". (٥)

ودوّنت آنا الباقى بالسرعة الكافية.

ثم قال دستويفسكى "ربما علينا أن ننقّحها قليلاً. فدعيها كما هى حالياً. فما رأيك، يا آنا؟"

أحسّت كمن يضع علامة الصليب.

أهى من عليها أن تُدلى برأيها إليه! فمن يعرف متى سينفجر ثانيةً!

جلست آنا هناك يُملَى عليها، حتى عتّمت الدنيا تماماً. لم تكن واعية كم مرّ من الوقت. حينما هبطت العتمة على الغرفة، وعت أن النهار قضى.

وهى تتجهّز للرحيل، سأل دستويفسكى آنا: "هبط الليل. فكيف تروحين لوحدك، يا آنا؟"

ردّت آنا:

"ولمَ لا أقدر على الرواح لوحدي؟ فالغسق فى بدايته".

"سأُرسل فيدوسيا معكِ".

"لماذا؟ ما لم أكن أعرف الطريق".

"إذن سآتى معكِ. لمسافة، فما رأيكِ؟"

كانت على شفا أن تقول "لا تزعج نفسكَ من أجلي". لكنها لم تنبس. فماذا إن لم يعجبه؟ أم قرأت معنىً آخر فيه؟

التقطت أحد الكتب المكدّسة على الطاولة: "فى قبوي".

قالت آنا "هل لى أن آخذ هذا؟ سأُرجعه بعد قراءته".

فسألها دستويفسكى "لماذا تقرئين كتبي؟ ماذا لو شعرتِ بالنفور مني، لو شعرتِ أنكِ تعرفيننى من الداخل؟"

فضحكت.

ألا ينعزل الكاتب عن قرائه لو خشى انفعالاتهم كثيراً؟ ألا يرغب الكاتب أن يقرأ العالم كلّه أعماله؟

كمن يقرأ صمتها، قال دستويفسكي:

"حياتى وضيعة جداً. قد تولّد الحياة نفوراً، قرفاً، وسخرية لدى الآخرين. وما قد تجدينه فى قصصى هو أيضاً من الحياة".

فقالت بابتسامة لعوب:

"هل هناك قيود تضعها فقط لنفسكَ - فلم أر أياً منها؟"

"آنا، مهما كان تقديرك لى فسيتلاشى الآن".

حين سارا معاً على طول الشارع عبر ظلال الغسق، سرد دستويفسكى الظروف التى قادته إلى كتابة "فى قبوي".

"جوهر هذا العمل يضمّ أسئلة تمخّض عنها خيالى لدى منعطف حادّ فى حياتى. فمن جهة، تجارب حياتى بمعسكر السجن فى سيبيريا حيث خدمتُ كمحكوم زمناً فى قضية تآمر. ومن جهة أخرى، رغبتى الكثيفة أن أُنحّى جانباً تصاريف القدَر التى سدّت دروبى من الجهات كلّها وأن أُتابع رحلتى نحو تحقيق أحلامى. كان موقفاً عصيباً. وكان العالم حولى عندئذٍ يرقد مظلماً، أجرد، فارغاً".

أدارت وجهها تنظر إلى دستويفسكى.

كان بأعماق عينيها تعبير عبارة عن مزيج من العجب والحبّ والعاطفة والعبادة.

واصل دستويفسكي:

"كتبتُ عنها سابقاً فى "يوميات كاتب". ربما لم تقرئيها. فالإنسان لغز كبير. عبر رحلاتى باحثاً عن هذا اللغز، أصل أزقّة معتمة، فى عوالم سفلية، فى القِفار، فى مناطق ملعونة، وفى مستنقعات الخطيئة. وجدتُ هذا كلّه بعقل الإنسان. وتنتهى رحلاتى جميعاً هناك".

تذكّرتْ هذه اللحظة ما كتبه ناقد. فكرّرته كأنه رأيها:

"هناك مرضى فحسب، خاطئون ومجرمون، في قصصكَ. فيدور، ماذا يظنّ قارئ أجنبيّ عن قصصك؟ أن الروس كلّهم مرضى، خاطئون ومجرمون، مجانين ومبغضو بشر؟ ألست على حق؟ ليس هذا ما نراه بين أعمال الكتّاب الروس الآخرين. على المثال، تورجنيف (١١)، تولستوي(١٢)...".

ارتفع فجأة صوت دستويفسكى كالساخط:

"لقد ولدوا بملعقة من ذهب في أفواههم. لست على غرارهم. فقد نشأتُ من أدنى طبقة بالمجتمع. لمَ لا تفهمين؟ لا يكتب المرء إلا عن تجاربه. وتجاربى هكذا. لديّ أسف واحد، أن ما استطعت تدوينه فى كتاباتي، ليس غير رماد مما جربته. كما أني لا أحسّ بالحسد من حسن حظّ تورجنيف، الذى كان يحلم أحلام الروس الجالسين فى باريس، أو تلك التى عن الكونت أو أيّ امرئ من هذا القبيل. أنا ممن يحب سوء حظّه. تعرفين يا آنا، إنى مقتنع بأن من يفتّشون عن أحجية أو لغز الإنسان، سيتعقّبون حتماً موطئ قدمي فى النهاية".

لم تتوقّع منه آنا أن ينفعل كثيراً هكذا. مع ذلك أحسّت بالسعادة ـ كان أمراً جيداً أنها فكّرت فى استثارته قليلاً. فقد استطاعت على الأقلّ أن ترى لمحة خاطفة من كوّة فتحت فى قلعة عقل مسدودة.

توقّف دستويفسكى حين وصل عند عربة خيل تركن جنب الطريق. كان الحوذيّ معرفة. عجوز. جالس يدخّن سيجاراً. حين رأى الحوذيّ دستويفسكي، رمى عقب السيجار الذى كان يدخّنه احتراماً.

طلب دستويفسكى الحوذيّ "هذا صديقي، يا آنا. ألم يهبط الغسق؟ أيمكنك أن توصلها بيتها؟"، وافق العجوز سعيداً.

قالت آنا "لا حاجة لهذا كلّه. سأذهب مشياً. لم يعد البيت بعيداً الآن".

لم يعر دستويفسكى انتباهاً لهذا.

وهى تتحرّك مبتعدة فى عربة العجوز، نظرت خلفها.

كان دستويفسكى واقفاً هناك، جنب الطريق.

---

(١١) Ivan Turgenev: كاتب روسيّ طليعيّ (١٨١٨ ـ ١٨٨٣)، روائيّ، مسرحيّ، قاصّ، يعتبر مؤسس الرواية الواقعية الروسية. من رواياته: آباء وبنون، شهر في الريف، رودين. من مجموعات قصصه: من يوميات رجل نافلة، فاوست، آسيا. من مسرحه: سيدة المقاطعة، حظ الأحمق، حوار في طريق سريع. (م)

(١٢) Leo Tolstoy: من أعظم الكتّاب الروس، وفي العالم أيضاً، (١٨٢٨ ـ ١٩١٠)، روائيّ واقعيّ، كاتب جماليّ، سياسيّ مناهض للقيصر. من رواياته: الحرب والسلام، آنا كارنينا، حكاية حصان، وفاة ايفان إيليتش، البعث، السيد والإنسان. من كتبه: اعترافات، ما الفن، سيرته (الطفولة، الصبا، الشباب)، مملكة الله فيك. من مسرحه: الجثة الحية، قوة الظلام. (م)

٦

جلست آنا ليلاً، تُنهى قراءة "فى قبوي". على الرغم من أنها تشير فى البداية إلى أن "هذه الذكريات والشخص الذى يكتبها من ابتداع الخيال"، إلا أن وجه البطل يبدو شبيهاً بوجه دستويفسكى. امرؤ يقاسى جيشان عاطفة. يناسبه أن نسميه الحالم.

طبيعة بطل "فى قبوي" غريبة. فهو يجد السعادة فى إيقاع الألم بنفسه وبالآخرين ويخفى تلك السعادة فى الطبقة الدنيا من دماغه. فى شخصيته ازدواجية منكرة. مع أنه يرغب فى تمكّن القويّ، إلا أنه ضعيف فعلاً. حتى وهو يعذّب الآخرين، تحبسه العجلة المسنّنة بتعذيب ذاته. مهما كان عاجزاً عن نيل حياة حقيقية، إلا أنه يتوق إليها فى حياته الحلمية. مع ذلك، لا يصدّق نفسه، لا أكثر ولا أقلّ.

يزور ماخوراً، ينتقى أجمل فتاة، يخبرها كم أن حياتها بائسة وكم أن خطيئتها دنيئة، إلخ، ثم يملأ عقلها بالرعب وهكذا يعذّبها. حين تزوره ذات يوم بشقّته إثر دعوته، يُصاب بالذعر. ومن غمرة ما تُكنّه له من حبّ، تعانقه، وتخرج من هناك هاربة ـ تاركةً خلفها حتى المال الذى منحها إياه.

ما قصد دستويفسكى من هذه القصة؟ أن هناك تسامياً روحياً حتى فى الحبّ مع مومس لعينة؟

هناك شكوك أكثر.

قالت آنا حين عادت اليوم التالي:

"فى قبوى ـ ليست كأيّ عمل آخر من أعمالكَ، يا فيدور. هذا رأيي، على الأقلّ. فماذا قصدتَ بهذا العمل؟"

قال دستويفسكى فى تراخ "لم أُخفِ قصداً محدّداً فى هذا العمل. قد يوصف بأنه تمرّدى ضدّ الإله".

قالت آنا "حتى لو وضعتها على هذا النحو، فمن الصعب عليّ أن أفهم. فى حالة الروايات الأخرى، لم أواجه صعوبة تُذكَر. لا يعنى أنها كانت سهلة، بأية وسيلة. عموماً، لقصصكَ أعماق لا تُسبر بالنسبة لى أو من هو مثيلى. خاصة مع رواية ـ فى قبوي".

فسألها دستويفسكي:

"فلتكن ما تكون. هل قرأتِها كلّها؟"

فاندهشت آنا:

"إذن ماذا؟"

"ماذا أحسست نحوها؟"

"كيف أعبّر عما أحسّه؟ فلستُ ناقداً".

"ما أحتاجه رأى القرّاء".

"لماذا؟ أليس النقّاد من يحقّقون فى مزايا أيّ عمل؟ أليس رأى النقّاد الذى يقدّره أغلب الكتّاب؟"

"ربما. لكنى لا أثق بهؤلاء النقّاد. فهم سجناء أذواقهم الخاصة معظم الوقت".

"لماذا تحسّ ذلك؟"

"اسمعي، يا آنا. بعد قراءة "الفقراء"، قال بلينسكى إنى جوجول (١٣) الثانى. كان هذا مديحاً عالياً فى تقدير مستواى حينئذ. وكنتُ فى الواقع سعيداً متباهياً. تعرفين من بيلنسكي، أليس كذلك، يا آنا؟ مفكّر أدبيّ، ناقد، ثوريّ، مرشد، ونموذج رائد. فرضياً. لا. ليس فرضياً. هو ذلك حقاً. هكذا يُنظر إليه. لكن، لدى قراءته "المثل"، قال إنها مجرد نفاية! فصُعقت فعلاً. لقد توقّعتُ منه أن يحسّ مع "المثل" بسعادة أكبر. فمقارنة بـ "الفقراء"، "المثل" رواية أسمى. لكن ماذا حدث فعلياً؟ جزرنى بيلنسكى دون رحمة. فتلك الرواية تعانى من نقائص فظيعة! كم يمكن لامرئ أن يحسّ بالشفقة على الناقد، حين يكتب شخص مثل بيلنسكى ما كتب؟ هناك مشكلة فيمن يظلّون سجناء ذوقهم الخاص. يصعُب عليهم رؤية منظر يَخزُ عيونهم".

"لكن، أتستطيع تفادى النقّاد أجمعهم؟"

"هناك شيء يُدعى ـ الزمن. يقرّر الزمن إن كان ما يخطّه كاتب يستأهل أم لا".

جلسا حتى الظهيرة ثم كتب المزيد من "المقامر". قرابة الظهر، خرج دستويفسكى قائلاً إنه سيقابل أحداً. وهو يغادر، قال إنه سيعود فوراً. مع ذلك، فلم يُر بالرغم من أن الظهيرة قد علت. زادت فيدوسيا شكّها، حين قالت: أظنه ذهب إلى نادى القمار. لو كانت الحال هكذا، فلا معنىً لانتظاره ليعود هذا النهار. قد يظهر أحياناً متأخراً فى الليل.

---

(١٣) Nikolai Gogol: كاتب روسىّ (١٨٠٩ ـ ١٨٥٢)، أنهى حقبة التقليد الغربية في الرواية الروسية، يعتبر أباً للواقعية والمفارقة في القصة الروسية، يعزى لمن طوّر بعده لقب خرج من معطف جوجول، روائىّ، مسرحىّ، قاصّ. من رواياته: تاراس بولبا، أنفس ميتة. من مجموعات قصصه: أمسيات قرب قرية ديكانكا. من مسرحه: زيجة، المفتّش. (م)

ولأنه لم يعد هناك ما تفعله، خرجت آنا إلى المطبخ وبدأت تتكلّم مع فيدوسيا. ساعدت المرأة العجوز أثناءها. شعرت آنا أن فيدوسيا لا تزال تعتبرها عنصر شكّ. اتّضح هذا فى البداية. فنظراتها تفصح عن هذه الحقيقة. نوع من التلهّف "ماذا ستفعل؟ هل تحاول غواية سيدي؟"، أو نوع من الخشية. لكن هذا الشكّ لم يعد ينتابها الآن. مع ذلك، فلا تزال المرأة العجوز فى حذر، خشية أن تتقوّض سيطرتها عليه فى حال نقصت مراقبتها.

وفى محاولة لبثّ انطباع أن آنا تفهم حقّ فيدوسيا على سيّدها، قالت:

"ألا يمكنك إيقاف عادة المقامرة عند فيدور، لو كان عندكِ نية، يا فيدوسيا؟ ألم تجرّبى إبلاغه؟ وبحزم أيضاً؟"

قالت فيدوسيا عندئذٍ وهى تفرك يديها "هل تظنين أنى لم أخبره؟ لكن من يسمع؟ ومن أيضاً ينتظر ليرى من وجهة أخرى، متى يتاح للمرء أن يفكّر فيما يعانيه؟ هو إنسان محطّم كلياً. لنفكّر أن إنساناً لا يزال حياً قد مرّ بهذا كلّه...".

سألتها آنا عند هذه النقطة "فيم يعاني؟"

"تسألينني فيم يعاني؟"، ودارت فيدوسيا عن الموقد نحو آنا. "ألا تعرفين؟ ألم يخبركِ أحد؟ كنتُ أظنّ أنه لا أحد على وجه الأرض إلا ويعرف كلّ شىء عنه".

لتقترب منها، قالت آنا "لا، لا يا جدّتي! لا أعرف شيئاً. كما لم يخبرنى أحد".

نظرت فيدوسيا إلى وجه آنا بنوع من الذهول. ثم سردت واحدة بعد الأخرى من مآسٍ وإخفاقات حياة دستويفسكى الحزينة. لديها موهبة فطرية فى توصيف الأشياء بتفصيل كبير. أم براعة ما عهدت بسرده من تفاصيل؟ كانت تؤكّد أساساً على حياة دستويفسكى الزوجية المحطّمة. وقد أنصتت آنا بعناية وفهمته كلياً:

تبدأ الحكاية حين خرج دستويفسكى من سجن سيبيريا واستقرّ فى وظيفة خارج معسكر السجن. وفى ذات مكان صادف مارى ديمتريفنا. كانت زوجة إيساييف عندئذٍ وأمّ ولدٍ بثمانية أعوام. حين يحبّ المرء امرأة كهذه، فلا يصعب تخيّل أيّ نوع من الحبّ سيؤول. خلاله كان نموذجاً إلى حد ما بمسرحية تراجيدية.

حين يحبّ امرؤ زوجة آخر، فعليه تحمّل هذه المعاناة. لكن من يهتم؟ فالحبّ كان عنيفاً. وهنالك اللوعة ونشوة ذاك الغرام. مع ذلك، لا يحسّ المرء أنه سيبقى فى حياته ما هو أفضل. مثل مسافر فى فلاة، بالعطش والوصول إلى حافة الانهيار، يكتشف بحيرة ملأى بماء بلّوريّ رائق. أتساءل إن كان هذا التشبيه يناسب هذا المقام. وفى ذلك الوقت، يموت زوجها. لو كان هنالك عائق أمام هذا الحبّ، فقد زال. ثم يأتى زواجهما. سيكون تعبيراً غير ملائم أن نقول، مثل نهرين يلتقيان معاً. كان الأمر أكثر اضطراباً من هذا. أشدّ جنوناً من هذا. فالحبّ يتوهّج صاعداً من كلّ ذرة حياة. لكن، إلى متى؟ لم يمض وقت طويل حتى استحال الوهج لأزيز وانفجار. حين توصّل إلى معرفة أن مارى تقيم علاقة سرية مع رجل غيره، رأى دستويفسكى التربة تنزاح من تحت قدميه. فى البداية، كان شِجار المحبين. بعده، جاءت الحرب المفتوحة. ليس أقبح من الحبّ حين يستحيل إلى كره. فى النهاية، وصل الأمر إلى شىء كهذا. "لم يكن علينا أن نتقابل أو يحبّ أحدنا الآخر... ربما كان أفضل لكلّ منا...". وقتها، من سوء حظّ عتيد، ضرب مارى مرض خطير. فماذا يفعل؟ قبل هذا، كانت الحياة مليئة بالفقر والمصاعب. لكن الآن، اكتمل كلّ شيء. كم يداوم المرء فى حياة بالديون؟ ومَن هناك ليقرضه مالاً أيّ مال؟ بدأ المعارف يديرون ظهورهم ويتّخذون خطّ رجعة بمجرد أن يعاينوه عن بُعد، بظنّ أنه سيلتمس منهم قرضاً. قد يجادل المرء بأن هذا كلّه

كان طبيعياً. لكن ما البديل هناك؟ أو لنفترض أحداً هناك سيقرضه مالاً شفقة على بؤسه. فهل سيمضى كلّ شىء على خير، مع ذلك؟ لا فائدة. لم يعد من وفاق بين أحدهما والآخر. ففى كلّ لحظة، يتحركان مبتعدين كلٌ عن الآخر. مع ذلك، هناك حبّ بينهما. تخيلى عقدة تواصلين ربطها حتى لا يمكن حلّ وِثاقها، وكلّما حاولتِ ربطها أكثر لا تُحلّ أبداً. حتى هذا الوصف غير كاف. فالحال كان أكثر تعقيداً من هذا. تخيلى أنكِ طافية فوق بحار واسعة تتتبعين حطام سفينة. وكلما حاولتِ العوم للشاطئ بأيّ طريقة، تجرفكِ الأمواج فتعيدكِ من جديد لحضن البحر. كلّ تجربة، بتأثيرها، تبدو هكذا. ولتعزية نفسه من هذه الحياة اللعينة، حاول أن ينجز شيئاً، أو يواصل الرحلة.

لم تتحمل مارى مناخ بطرسبرج البارد. قد وصلت للحافة الآن. تسمع وقع أقدام الموت دانياً. فاستأجر منزلاً فى موسكو، ونقلها هناك. من ثم آلام الفراق. بعدما أعجزها الفراش زمناً طويلاً، توفيت مارى. عند الغسق، ذات يوم.

كانا يحبان بعضهما البعض دون حدود. مع ذلك، كانت الحياة مثقلة بالمآسى. هناك مناسبات أشبه بالعذاب. لكن حين راحت تحت التراب، شعر دستويفسكى أن حياته استحالت فجأة فارغة مظلمة.

مرت الآن سنتان منذ توفيت مارى. لكن حتى الآن يظلّ الحزن يلاحقه.

أصبحت الظروف أشدّ إرهاقاً. فهو مثقل بالديون. يلقَى الإخفاق تلو الآخر فى كلّ مكان. يشعر أنه لا فائدة مطلقاً من ناتج كلّ ما يفعله. النبذ الكامل من كلّ مكان. يبدو أنه لا يرغب فيه أحد. إلى متى يتحمل المرء أن يتحطّم أكثر؟

حينما سمعت الحكاية كلّها، امتلأ عقل آنا بالحدب عليه. فدستويفسكى يقف وسط حياة مناهضة تماماً لأيّ امرئ قد تتخيله حتى الآن.

عنّ على بالها سؤال فجأة.

لماذا يتفقّد هذا المصير الفظيع مثل هذه الروح الطاهرة لدستويفسكي؟

بينما آنا على وشك الرحيل يومها، تومئ بالوداع لفيدوسيا، وصل دستويفسكى فجأة أمام المنزل فى عربة أجرة ثم نزل. أمكن رؤية سعادة وحماسة لا تُحدّ على وجهها.

سألها دستويفسكى وهو يدنو "مللت انتظاري، هه؟ حين يمضى المرء إلى مكان مستعجلاً يصادف ناساً يقتلون وقته. قد يتوه أحياناً فى الطريق. وما العمل؟ آنا، تعالي".

صعد دستويفسكى السلالم فى عجلة، وآنا وراءه، بعد تردّد لحظيّ.

"سنكتب المزيد اليوم. ألا تحسّين بالملل، يا آنا؟ ستغادرين قبل الغسق، أليس هذا رائعاً؟"

فأومأت فى إذعان.

رأته آنا يُخرج شيئاً من جيبه ثم يضعه فى الدرج. يبدو أنه نال قرضاً أكبر مما توقّع، من مكان ما.

تناولت آنا دفترها والقلم الرصاص، ومضت مباشرة للجلوس فى الكرسيّ قرب النافذة.

بدأ دستويفسكى يُملى الرواية بدفق رائع. أحسّت لديه إلهاماً زائداً من مكان ما. كان فى بداية الفصل الخامس. باولين وألكسى يقفان قرب نافورة بالحديقة. وجه باولين مرئيّ حتى لتبدو فى مسلك يعجز عن الوصف. ألكسى أيضاً فى مزاج شبيه. قلبه زائغ بانفعالات متصارعة. سألها ألكسى "لماذا لم يكلّمك ذاك الفرنسيّ اليوم؟"، ومن دون تغيير فى التعبير قالت إنه وقح. كان دستويفسكى يصف ذلك المشهد كأنه رآه من قبل أمام عينيه.

فجأة ساد صمت.

حين رفعت آنا رأسها لتنظر، كان دستويفسكى يحدّق فى ألوان الزجاج المبقّع على هدى نور السماء فوق النافذة. كان وجهه مضيئاً فى نشوة. وفى اللحظة التالية بثّ ضجّة شنيعة. ظنّت آنا أنه الانتظار ونفاد الصبر من أجل كلمة نادرة أو تعبير. وضعية دستويفسكى شبيهة بقديس يتطلّع نحو السماء ملتمساً إلهاماً ربانياً. فجأة سقط، بهدير وحشيّ، على الأرض. جسمه متصلّب. يدفُق من زاوية فمه زَبَد ورُغاء.

أجفلت آنا. لم تفهم ما كان يحدث. فارتعدت خوفاً. نبعت صرخة هائلة فى حلقها دون أن تكتسى صوتاً. لحسن الحظّ، جاءت فيدوسيا راكضة وقتئذٍ. وهى تصرخ فى صمت "يا إلهي"، وضعت فيدوسيا يدها على صدرها.

من ثم، تحركت نحو آنا وهى واقفة وقد صعقها الخوف، فطمأنتها فيدوسيا:

"هذا صرَع. ترينه الآن للمرة الأولى، أليس كذلك؟ لا تبتئسى عليه. لا شىء فى مقدورنا فعله غير أن نرقب وننتظر".

تلوّى على الأرض زمناً، أصبح جسماً هامداً منهكاً. يُرى كالذابل المصفرّ، مثل ساق سبانخ فى شمس حارة. رقد هكذا حتى بان الغسق.

والغسق يعتم، أخبرت فيدوسيا آنا:

"روحي أنتِ للبيت. وإلا فسيقلق عليكِ أهلكِ".

كان هذا صحيحاً. فإن لم ترها أمها عائدة حتى بعد الظلام، فستنزعج قطعاً. مع ذلك، لم يطاوعها قلبها أن تتركه بهذه الحالة. ما العمل؟

تركته أخيراً بنصف قلب.

طيلة الليل، كانت مع آنا فكرة واحدة. تلك الوضعية. ذلك التعبير المنتشي. وذلك الهدير. السقطة. الارتجاف. يا إلهي، لم تتحمّل المنظر على الإطلاق!

اليوم التالي، حين وصلت مبكراً عن المعتاد، كان دستويفسكي على الأريكة، يقرأ شيئاً. به نوع من الانتعاش كأن شخصاً روّى نبتةً كانت على وشك الذبول في الشمس.

تطلّع دستويفسكي في آنا الواقفة تراقبه مفعمةً بمزيج من المشاعر، كالخوف والحدب والدهشة، فابتسم. كانت هذه الابتسامة مثل نور قمريّ باهت يسقط فوق زهرة شاحبة. ما شعرت به برؤية تلك الابتسامة، كان أسىً كثيفاً.

بتلك الابتسامة الباهتة، سألها دستويفسكي "فزعتِ أمس، أليس كذلك؟"

فوقفت صامتة، دون أن يطرف لها جفن.

"قد يحسّ الناظرون بأسىً بالغ عليّ من ذلك"، قال دستويفسكي وهو يضع الكتاب الذي كان يقرؤه. "لكني لا أرى هذا. فهل يمكنكِ تخيّل نِعَم معبود يمدّ يده بطعام وسمّ في الوقت نفسه على صحن ذهبيّ؟ بالنسبة لي، الأمر هكذا تقريباً. في تلك اللحظات، أختبر ذروة النور، السعادة، الرضا أو السلوان بكلّ جُزيءٍ من حياتي".

دُهشت آنا. فماذا يقول؟ المرض نعمة؟ يهبه الرضا؟

قال دستويفسكي "المرض مرض دائماً. لا أُنكر. يرتبط به غمّ ومكروه. لكني أعتبره مرضاً قدسياً. لن أُبادله بأيّ شيء آخر في العالم".

شعرت آنا أنها ترى كابوساً، وهي تقف هناك.

كان دستويفسكي مقتنعاً بأنها عاجزة عن التصديق.

مع الرعب البدائيّ والدهشة والإنكار الملتحمين معاً، يتخلّق فيها تعبير من مزيج غريب.

قال دستويفسكى "قد يكون قاسياً على الآخرين تصديق ذلك. لكنه صحيح. فهذه اللحظات ليست كغيرها. أثناء هذه اللحظات، هناك انسجام سماويّ يتخلّق بين الكون وبينى. هناك بالتحديد عنصر الموت - أو تجربة تشبه الموت - داخله. لكن قبل هذا الطرف الآخر للموت، هناك لحظات من إدراك الله. لا أعرف ما إن كانت تكفى فحسب أن نقول إنها هكذا! عموماً، أنصتى لمزيد من هذا، يا آنا. لقد أخبرتُ صحابى عنه من قبل. وها إنى أخبركِ الآن أيضاً. لأجل هذه اللحظات السماوية القليلة، فإنى مستعدّ أن أقايض بعشر سنوات من حياتى - ولماذا عشر سنوات؟ بحياتى كلّها!"

كانت على شفا أن تسأله "ألا تزال تتكلّم برطانة، حتى بعد رواح نوبة الصرع؟"، وإن لم تكن رطانة، فماذا تكون؟ ذلك المرض نعمة! فيه لحظات من إدراك الله! يقايض بحياته كلّها، لقاء تلك اللحظات القليلة! رطانة واضحة. أم أنه يقول هذا الكلام كلّه من باب المزاح - لشدّ انتباه الآخرين.

نهض دستويفسكى من الأريكة ليشعل سيجارة.

سأل دستويفسكى آنا، وهو يتحرك مقترباً منها "تريدين سماع نكتة؟ بداية هذا العام. أم فى موضع ما بوسطه؟ أثناء رحلة وأنا أمرّ بموسكو، قمت بزيارة منزل إحدى أخواتى. سعدت أختي، بمجرد أن رأتنى. هى أكبر منى. ومع أنى أردتُ أن أعود اليوم نفسه، إلا أن أختى لم تدعنى أذهب. جهّزت لي، بعد العشاء، فراشاً. وجعلت خادماً أيضاً ينام بغرفتي، مرافقاً لى. فأختى تعلم أن عندى هذا المرض. بلّغَت الخادم أن ينام بغرفتي، ربما احتجتُ عوناً لو صادفنى مرضى. وجلسنا فترة نتبادل النكات. وطبعاً زارنى مرضى المقدّس. بهدير مرعب، سقطتُ أرضاً. تدحرجتُ على الأرضية. رفستُ بيديّ وقدميّ. وخرج زَبَد ورُغاء من فمى. فماذا فعل الخادم، إذن؟ صاح "ماماي"، واندفع خارجاً من الغرفة! البائس! تخشّب من رعبه. ولم يعد حتى غادرتُ المكان".

لدى سماعها القصة، طفر الضحك من داخل آنا أيضاً؛ مع أنها كتمته، ووقفت كأنه يسرد قصة على سبيل المزاح. وانفجر دستويفسكى فى الضحك كأنه يحدث أمامه الآن.

كلّما تتوصل آنا لمعرفته أكثر فأكثر، يزداد حبها وهيامها وحدبها واحترامها نحوه. خلال خمسة أو ستة أيام، صارا حميمين مثل اثنين يعرفان بعضهما الآخر من زمن طويل.

كما توصلت آنا لإدراك أنه أدّى لمزيد من المتاعب. فكلّما تُبدى الحبّ والقرب نحوه، يزداد عناداً وهياجاً. يعاملها مثل أحد ملتزم بتحمّل نوبات غضبه كلّها.

ذات يوم، فجأة، أمسك دستويفسكى جنون المقامرة. فنهض، ذرع الغرفة، دخّن سجائر واحدة إثر أخرى، وهو ينفخ "ششي!"، ويحكّ يديه معاً. نوع غريب من التوتّر. توقّف عن الكتابة بالفصل السابع من الرواية التى وصل منتصفها، لبس معطفه، واستعدّ للخروج فوراً إلى مكان ما. ولدى ملاحظتها تغيّره فى سلوكه وتحضيرات الرحيل العاجل، عرفت آنا ما كان على وشك أن يفعله. كان سيخرج إلى نادى القمار...

لم تنتظر أن تفكّر ما إن كان سيسعده تدخّلها أم لا، أو تفهم أيّ سطوة يمكنها أن تمنعه بها، سألته، وهى تبدو منزعجة:

"إلى أين ذاهب، بمثل هذه العجلة المفزعة؟ إلى طاولة القمار؟ لا تذهب الآن".

توقّع دستويفسكى ذلك قليلاً. وهو واقف أمام المرآة يمشّط شَعره، دار من حوله مصدوماً وهو ينظر إليها.

واصلت آنا:

"أليست الرواية فى أوج دفقها؟ وتريد أن تقطعه، وتخرج للقمار! إنى أسألكَ هذا لأنى أخفقتُ فى فهمكَ. ألا يمكنكَ إيقاف هذا على الأقلّ من الآن فصاعداً؟ لماذا تدمّر نفسكَ هكذا؟"

ألقى دستويفسكى المشط على الطاولة، ونظر إلى آنا بتعبير مفاجئ من الهياج تبدّى على وجهه. ثم انفجر فى صوت خشن كلّه هدير:

"إنى أُقرّر ما يجب أن أفعله وما لا يجب أن أفعله. كما أنها إرادتى ولذّتى المحببة أن أدمّر نفسى أو لا أدمّر نفسى. فمن أنت لتنصحيني؟"

أمسكتها نزعة عابرة من الشجاعة، فاتّخذت آنا موقفاً:

"إنى لا أحد. مجرد كاتبة اختزال جاءت تنسخ روايتكَ، وكلّى أمل أن يُنيلنى هذا خمسين روبية. فأيّ حق لى فى أن أوقفكَ؟ لا شيء، على الإطلاق. ما دخلى إن كنتَ تدمّر نفسكَ باختيارك؟ اذهب. قامر، أو اشرب، أو اسكر. اذهب، قامر، اقترض، ارهن، أو أياً ما تحبّ. قامر، والعن نفسكَ! فماذا أخسر؟ إنى راحلة. لا أريد وظيفتكَ أو أُجرتها. هاتِ لنفسكَ شخصاً آخر وأملِ عليه!"

فى الحقيقة، كان دستويفسكى هو الذى ارتعش عندئذٍ. لكنه وقف من دون خيانة مشاعره.

قامت بترتيب الأفرخ المكوّمة بعناية على الطاولة، وأسرعت بالخروج دون حتى أن تقول وداعاً. تتوهّج بغضب وحزن متصاعدين.

وهى تنزل السلالم، كانت فيدوسيا قادمة بالشاى.

لدى رؤيتها انفعال آنا، خمّنت حدوث شيء خطأ.

سألتها فيدوسيا "ما لكِ، يا عزيزتي؟"

لم ترد آنا.

نزلت السلالم مسرعة واختفت.

وهى تمضى قُدماً على بُعد مسافة من الشارع، كانت عربة تسرع إليها، ثم تقف أمامها. حين تطلّعت لترى من يجلب عربة بهذه الشيطنة قريباً منها ويقف ليسدّ عليها دربها، كان من نزل من العربة دستويفسكى.

كانت اللحظة واحدة من أعجب لحظاتها.

تحرّك دستويفسكى جنبها، متطلّعاً فى عينيها، بتعبير مهيب لكنه فارغ فى عينيه.

لوقت معين وقفا هناك هكذا، يتطلّع كلٌ فى عين الآخر بصمت.

فى ذلك الصمت، سمعا طبقات من الجليد تتحطّم فى ذوبان كبير.

حينما هدأ توتّر عقله نوعاً، قال:

"سامحينى. أنا وغد عاجز أن أدرك الحبّ فيمن يقلقون على شؤونى. إن لم تسامحينى يا آنا، فمن غيرك يسامح فى هذا العالم كلّه؟"

كأنه لمس شغاف قلبها. فذاب حزنها من خلال عينيها.

"هل تعرفين أيّ اضطراب أنزلتُ نفسى فيه، يا آنا؟"، سألها دستويفسكى بصوت يخنقه الانفعال. "إنى مدين بثلاثة آلاف روبية لذلك الناشر ستيلوفسكى. اقترضتُ منه المال عند موقف لم يعد أمامى فيه من أذهب إليه وكانت حياتى على شفا أن تغرق. فنفحنى المال بشرط: عليّ، قبل ١ نوفمبر ١٨٦٦، أن أُسلّمه مخطوطة رواية من ١٦٠ صفحة. وإن أخفقتُ فى كتابتها، فحقوق أيّ مما أكتبه وأيّ شىء آخر يُحتمل أن أدوّنه طيلة السنوات التسع القادمة، ستؤول إليه آلياً، من دون أن يلتزم بدفع كوبك واحد لى أتعاباً. ذلك ما يريده منى المجرم الوضيع. إنه فعلياً كمن حجز على حياتى كلّها. كما أنى إن لم أكتب الرواية، فسأروح للحبس".

شعرت آنا ساعتها أن من يقف أمامها شخص يتركّب من معضلات عديدة.

بعد فترة صمت قصيرة، سألها دستويفسكى ثانيةً:

"إن لم تساعدينى الآن يا آنا، فماذا ستصبح عليه حياتي؟"

ورأى فى اللحظة التاليَة أن عينيها اللتين كانتا تحدّقان فى فراغ أمامها من دون أن يطرف جفناها، قد طفحتا بالدمع.

٧

كما يكتب جالساً إلى ساعة متأخرة فى الليل، يصحو متأخراً أيضاً. حين وصلت آنا، كانت فيدوسيا تقف أمامها تتكلّم مع أحد. لم تعرف آنا من هو. ربما كان أحداً يسكن أياً من شقق البناية الكبيرة.

بمجرد أن عاينت فيدوسيا آنا، قالت "لا. لم يستيقظ بعد".

ذهبت آنا إلى المطبخ مع فيدوسيا. كان الحليب يغلى على الموقد. فيدوسيا راحت تتلمّس الخزانة لتأخذ شيئاً، وهى قلقة طول الوقت من أنها قد لا تجده. واصلت تفتيشها؛ نافدة الصبر متوترة، تتمتم أنه لا يوجد شىء بمكانه الصحيح. أنزلت آنا الحليب عن الموقد فقد أوشك أن يفور.

لحسن الحظّ، وجدت فيدوسيا ما كانت تفتّش عنه. كانت شكاية المرأة العجوز أن الأشياء لا توجد حيث يُفترض. ومَن هناك يحرّك الأشياء من مكانها الصحيح؟ لا أحد غيرها. فيدوسيا نفسها تفعل هذه الأشياء كلّها.

تضعها فى مكان ما فى عجلتها. ثم تنساها. المرأة العجوز مشوّشة قليلاً؛ ونسّاءة أيضاً. تظلّ تتمتم بهذا وذاك. كلّهم يزعقون فى أحد. افترضت أن النار قد انطفأت بالموقد. فبدأت تشعله فوراً، وهى تلعن الموقد والنار. "ما هذا الموقد؟ ما هذه النار؟"، أو لنفرض أنها كانت تفتش عن أيّ كان ما فقدته. على المثال، ملعقة خشبية. قد لا توجد حين تفتّش عنها. فتقول "وضعتها هنا، اللعنة!"، وفى الحقيقة، لم تكن قد وضعتها هناك. لا. ليست قطعاً هناك حيث وضعتها. أنّى لملعقة خشبية أن تتحرك بعيداً من تلقاء نفسها حيث وضعتها؟ إن لم يغل الماء للشاى بصورة كافية، تثُر ثائرتُها فوراً وتبدأ التذمّر. "لماذا تأخّر؟ أليست النار كافية. يختبر صبرى. ماذا أيضاً! عليكَ أن تغلى وقتما أريد. ثم لماذا لا تغلى بسرعة؟"

كان هذه المرة وعاء السكّر الذى أخفى نفسه. ينال أقذع تعنيف تبديه الجدّة بلا رحمة. "تفعل هذا لتثيرني، أليس كذلك؟ لماذا إذن تنزح من رفّكَ السفليّ للعلويّ؟ ما مشكلتكَ لو ظللتَ حيث توضع؟ أنتَ تعرف كم أستغرق بحثاً عنكَ؟ ألا تتركنى أفعل الأشياء بدقّة ونظام حين أريد أن تتم من الصباح الباكر. هممم!"

لم تستطع آنا منع نفسها من الضحك. لقد اختفى بمهارة عن الجدة. أو، ماذا لو طار من المقبض؟

خلطت الشاى بصبّه فى الحليب. وأعطت كوباً إلى آنا، فى حنان.

ثم قالت "فيدور يحبّه أسودَ قوياً. ويطلبه كلّ حين وآخر. وقد يمزح أحياناً، فى مناسبات نادرة، قائلاً "أيها العجوز! شايكِ الأسود سرّ ذكائى وألمعيتي".

توافقه آنا أيضاً. شاى الجدة الأسود له مذاق غريب. لكن، لا يجب أن يكون قوياً هكذا.

لكن هل يوافق فيدور؟ لا فائدة! فهو يحتاجه قوياً. هكذا يحبه. لو كان أقلّ قوة، يتذمّر. سألها من أيام "ماذا حدث لكِ أيتها العجوز؟ كبرتِ على الأقلّ سبع سنين فى ليلة. فمن عمل الشاى اليوم؟"

ضحكت السيدة العجوز حين أفضت بهذا. يطفح منها، فى كلّ كلمة، حبّ وحدب واحترام لدستويفسكى. وعاطفة أيضاً. ذلك ما تحفظه دائماً فى عقلها.

"لفيدور رأى جيد فيكِ، يا آنا"، قالت فيدوسيا، وهى تُخفض صوتها كمن يُفشى سراً. "أخبرنى أمس: آنا فتاة رائعة. ذكية. عندها استعداد لفهم ومساعدة الآخرين. صبور.. وهى فى الوقت نفسه واعية وفخور بشخصها".

دُهشت آنا بهذا الانكشاف. فلم تجد سبباً واحداً تعتقد أن دستويفسكى قد يقدّرها هكذا. فى الحقيقة، لا بدّ أن يكون بشكل آخر. صارا يعرفان بعضهما الآخر منذ الأيام الستة أو السبعة الأخيرة. وخلال هذه الفسحة الزمنية، كانت هناك مواجهة أو اثنتان. أول يوم، لامها بعنف، أهانها وآلمها. وكانت بينهما معركة أمس.

"هل تحاولين إسعادي، فيدوسيا، باختراع هذا كلّه. أم..."، ثم راقبت آنا وجه فيدوسيا بعينين حادّتين. "لأنى أحسّ أنه لا يمكن أن يُصدر فيدور هذا الرأى فيّ".

أومأت فيدوسيا برأسها، تبتسم بمكر:

"إذن، تشاجرتما أمس، أليس كذلك؟ أخبرنى فيدور. يخبرنى فيدور أياً ما يحصل. أرجوكِ لا تُسيئى فهمه. فهو روح طاهرة. حتى لو قال شيئاً وهو منفعل، لا يغلّ حقداً فى قلبه. لكن مَن بمقدوره فهم هذا كلّه؟"

في تلك اللحظة نزل دستويفسكي على السلالم. من نظرة يتكشّف أنه استيقظ تواً. فخطوط النوم لم تغادر وجهه بعد. تحرك، جاء إلى باب المطبخ وهو يضحك في دهشة وسعادة.

"هل وصلتِ من وقت طويل؟"

"لا. من نصف ساعة فقط".

"أوه، نصف ساعة؟ انتظرتِ هذا كلّه، لا؟ فلمَ لمْ تناديني؟"

"أخبرتني فيدوسيا أنكِ رحتَ للنوم الليلة الماضية في وقت متأخر".

"نعم. كتبتُ بنفسي. حتى قُرب الثانية والنصف. أليس عليّ الانتهاء من الرواية قبل الوقت المحدّد؟"

"وكيف سارت الكتابة أمس؟ بانفعال كبير، أم، ماذا تقول، بفرح كبير؟"

"أوه! فرح! في الحقيقة، لم أجرّب الفرح في حياتي إجمالاً".

ارتبكت آنا لحظة، فلم تعرف ماذا تقول.

كان دستويفسكي يستمتع عندئذٍ بتلذّذ ما كان على وشك أن يقول:

"لقد أنعم الله على امرئ بلعناته! فقط ليرى ما سيكون عليه. وهو يراقبني الآن!"

تطلّعت آنا في دستويفسكي بتعبير عميق. قدر ما كانت مهتمة، فإن تلك اللحظة كانت لحظة ذهول.

في الحقيقة، كان عقلها مضطرباً. وخمّن ذلك دستويفسكي أيضاً. تعبيرها الساكن ـ أنه فضح أعماق قلبها.

لكن، من الأفضل التظاهر بأنه لم ير. قال دستويفسكي:

"من المؤسف حقاً أن شخصاً يستحيل جاداً كأنه عاجز عن التمتّع بنكتة".

قالت آنا عندئذٍ، دون أن تخرج عن نطاق سلوكها الجادّ:

"هذه ليست نكتة. افترض أحداً لا يسمح للآخرين بالمرور حتى سبعة أميال قريباً من قلب امرئ؟"

ارتطم هذا بانتباه دستويفسكى. فتلك التكشيرة المزعجة علامته.

ما قصد قوله وقتها أن:

"هذه الفتاة ليست بسيطة كما أظنّ".

لكن ما قاله فعلاً كان شيئاً غيره:

"آنا، هيا انهضى. سأتبعكِ بعد لحظة. بعد غسيل وجهى وغيره...".

شعرت فيدوسيا أيضاً بنوع من التبجيل نحو آنا جريجوريفنا سنبتكين. لسبب ما، تلك اللحظة، ذكرت العجوز اسم آنا كاملاً.

صعدت آنا السلالم، وصلت الدور، دخلت غرفة دستويفسكى ونظرت حولها كأنها ترى الغرفة للمرة الأولى. ثم رتّبت الكتب المبعثرة على الطاولة. التقطت أفرخ ورق كتبها دستويفسكى الليلة السالفة وتطلّعت فيها. رأت الأفرخ مجعّدة وملقاة على الأرض. رماد سجائر على الطاولة. حينما نفختِه، أخذت قطعة ورق نفاية ومسحت رأس الطاولة تنظفه. حينئذٍ وقعت عيناها على صورة مارى ديمتريفنا. وقفت تتطلّع فيها فترة. ثم أطلقت آهة عميقة. لم تكن على وعى بما قد يدور فى عقلها وقتها.

"عرفتِ من هي؟"

بسماعها السؤال، دارت آنا، فكان دستويفسكى واقفاً لدى الباب.

قال ثانية، وهو يدخل:

"كانت فترة معينة فى حياتى. قلتُ (فترة) عمداً، لأضمنها المعانى كلّها - فرحي، قلقي، رضاي، نعمتي، حياتي، وموتى - بالأحرى، شبه موتي! عانيتُ هذا كلّه. لو وضعتُ الأمر فى بالي، لانتحرتُ، فلم أجد ساعة هنيئة فى أيّ من تلكم الأيام. كانت حياتى هكذا. ولا أزال أحبها. لماذا يحبّ المرء أحداً

يكرهه بإخلاص، فى الوقت نفسه؟ نحن لا نفهم عنا كلّ شيء. فالعقل عميق للغاية. يكون أحياناً أزرق كثيفاً؛ وبأوقات أخرى ترى القاع! كيف تنفصل النعمة والنقمة؟ ما أفكّر فيه هو: هناك فحسب شاشة مرهفة بينهما. غير مرئية... فماذا قلتُ؟"

مسترجعاً لحظة، قال دستويفسكي:

"حينما ماتت صرتُ وحيداً على حين غرّة. كنتُ فى خوف بالغ. حالة مرعبة هى المرء فيها. حياتى انشقّت نصفين".

وقفت آنا دون أن يطرف لها جفن، تتطلّع فى دستويفسكي، كأنها فى حلم، كأنها فى النسيان. حمل خيالها فكرة "كم عانى هذا الشخص!"، وهو "لم يستفق بعد من هذه الحالة العقلية".

أشعل دستويفسكى سيجارة، وذهب فوراً إلى الأريكة واتكأ.

مرّ وقت هكذا. فى صمت.

التقطت آنا القلم الرصاص والدفتر، وقرأت استعداداً لتكتب.

قالت "لا خيار أمامكَ إلا أن تُنهى الرواية قبل ميعادها. وإن لم... آه، من جانبي، سأعطيكَ حُكمى. أنا على أتمّ استعداد للكَدْح ليلاً نهاراً".

أطفأ دستويفسكى عقب السيجارة فى الطفّاية، ومال للوراء: "أين وقفتُ أمس؟"

قرأت آنا ذلك القسم:

أدار الفرنسيّ ظهره؛ كان هذا كلّه جديراً بالتصديق وظهر نتيجة هذا أنى فى وضع ستتسبّب عنه المتاعب حقاً.

وشرع بصوت مناشد "لكن أرجوك"... (٦)

أمسك دستويفسكى اللحظة وكيف يواصل.

"نعم - وشرع بصوت مناشد"، واصل دستويفسكى القصة، مغمض العينين ويده على جبينه:

"دعك من هذا كلّه! يبدو أنك مسرور للغاية من أن الفضيحة قد تنفجر! أنتَ لا تشبع، تريد الفضيحة! قلتُ إن النتيجة ستكون سارة بارعة - وهو ما قد تحاول إنجازه، لكن - باختصار"، واستنتج، حين رآنى وقفتُ وتناولتُ قبّعتى "عليّ أن أعطيكَ هذه الأسطر القليلة من شخص معين؛ فاقرأها - قيل لى أن أنتظر رداً".

بقوله ذاك، أخذ من جيبه مفكّرة صغيرة وناولها إياي، كانت مغلقةً برُقاقة.

المكتوب فيها بيد باولين، هكذا:

"خطر لى أنكَ تنوى مدّ أمد هذه العلاقة، أنكَ غاضب وقد بدأت تلعب كالصبية. مع أن هناك ظروفاً خاصة وسأبيّنها لكَ فيما بعد؛ لكن كفّ أرجوكَ وتعقّل. ما أسخف الأمر كلّه! إنى أحتاج إليكَ، وقد وعدتَ أن تطيعنى. فتذكّر شلانجينبرج. أناشدكَ، وإن استلزم الأمر، سآمركَ أن تطيعني".

المخلصة ب.

ملاحظة: إن كنتَ غاضباً منى عما حدث بالأمس، فسامحنى أرجوكَ.

غامَ كلّ شىء أمام عينيّ حين قرأتُ هذه الأسطر. اصفرّت شفتاي، وبدأتُ أرتجف. شكراً للفرنسيّ اللعين الذى واصل النظر بحسّ مبالغ فيه من عدم الانتباه، ثم نحّى عينيه بعيداً ليتفادى اضطرابى. كنتُ أوثر أن يضحك بصوت عال. (٧)

وجدت آنا أنه يصعب عليها مجاراة سرعة دستويفسكى. فلا التواء، لا تردّد. وقد قرأت ذلك مباشرة من خياله.

حتى وهى تتلقّى ما يُملَى عليها، طرقت بال آنا أسئلة معينة. إنها تعرف ألكسى ايفانوفتش. فمن هى باولين ألكسندروفنا؟ وأين هى روليتنبرج؟ وأيّ "فترة" كانت فى حياة دستويفسكي؟

لا شك فى أن ما كان يصفه هو حياته. وأن مَكرَهُ فى أن يُشيد ستاراً على الواقع لم يوفّق. فالكلمات تجعله شفّافاً.

أيّ شاشة للروح تقف فى علبة من زجاج؟

حين بلغت الخامسة، تعب. فكّر دستويفسكى أن آنا أيضاً أحسّت بالتعب مثله.

"الآن، الباقى غداً. كيف يتسنّى للمرء أن يعمل أكثر من هذا بيوم واحد؟ أعصابى مشدودة. فلنخرج إلى مكان يتوافّر فيه هواء وضوء وسماء تُرى من فوقنا. حين أقضى وقتاً فى المنزل، أحسّ بالاختناق. السماء التى لا تُحدّ... بوقوفى تحتها... ها! أفكّر غالباً كم أخطأ الله حين صنعنى. فقد وضع الروح التى خلقها لطائر داخل صورة إنسان".

هما الآن بقرية بديعة على الحدود الخارجية لسان بطرسبرج. فى الوادى أسفل تلّ.

لم يكن موسم أزهار. مع ذلك، هناك وفير من الأزهار فى الوادى. كأنكَ تتطلّع فى حلم إلى وادٍ بديع.

من هناك، أخذ دستويفسكى آنا إلى طفولته.

كان كالسير للخلف لحظة، على مسار الزمن، إلى الماضى. واصل دستويفسكى سيره، مسافة خمس وعشرين سنة، فوصل أخيراً إلى طفولته. كالعودة إلى قرية خلّفتَها وراءك من أربعين سنة.

المنزل القديم فى موسكو. هناك والده، أمه، إخوته وأخواته. منزل طبيب بائس بالمستشفى العسكريّ. كلّ من يرى المنزل يحسّ بذلك. تبدو أمه معتلّة.

صحتها مدمّرة بالولادات الكثيرة، واحداً بعد آخر. نحيلة للغاية. أخوه الأكبر يقرض الشعر. وهو دائماً فى عالم من خياله الخاص. ومع أن أخاه الأكبر مضروب بالشعر، إلا أن أخاه الأصغر مضروب بالخمر. لا يذهب أمام أبيه. أما أخواته فراضيات بسوء حظّهن. لا يملكن أحلاماً كبيرة. لماذا يتعلّق أولاد أب بائس بأحلام كبيرة؟

يعتقد الأب أن عينيه وأُذنيه يجب أن تصل إلى كلّ مكان. فأنّى للأشياء أن تمضى بيُسرٍ؟ كثمرة لتقتيره، اشترى عقاراً على بُعد مئة ميل من موسكو. ولإدارة ذلك العقار، كان يذهب بنفسه. فمن غيره يهتمّ به؟ يغضب الطبيب حين يمعنُ فى هذا. يفكّر "كم ستدوم هذه الحجارة لو قَضيتُ؟"

ماتت الأمّ، بعدما رقدت ستة عشر عاماً طويلة. شكراً لله! دون تأخير، جلب الأبَ عشيقة. فكّر فيها فقط كعلاقة حبّ عابرة. وكان سديد التفكير وحازماً على يقين من أن شحّه سيزدهر يوماً بعد يوم.

أبوه وأمه فى عالمين مختلفين على مسافة معقولة من أمور قلبيهما. واعتماداً على هذا، كانت أمه دائماً تظلّلها الدموع. شكّ أبوه أن لأمه عاشقاً سرياً.

يتذكّر دستويفسكى الرسالة المكْتَشفَة بعد وفاة أمه:

"أُقسم بالله والأرض شاهدَين عليّ؛ أنى لم أخنكَ".

ويتشكّك دستويفسكى الآن أن أباه صدّقها.

ليس محتملاً. فلم يكن يصدّق أحداً. ليس ذلك فقط. فقد كان يستقى لذّة من عدم تصديق الآخرين.

كان دستويفسكى يخشى أباه. كيف لامرئ أن يحبّ هذا الأب العنيف؟

"عليكِ أن تتذكّرى أننا نقف على مسافة حوالى خمسة وعشرين عاماً للوراء من الزمن الحالي". ويقود دستويفسكى آنا إلى قسم من ذلك العقار الذى يبعد مئة ميل عن موسكو.

"تطلّعى نحو تلك البقعة. فهل ترين رجلاً راقداً مَيْتاً هناك؟ دم نازف من الجرح، دم على الأرض، قد تخثّر... وتطلّعى أقرب. فالرعب والألم وقت الموت لم يشحبا من عينيه المحدّقتين بعد. اسمعي، ذلك أبي!"

أجفلت آنا، دارت لتنظر إلى دستويفسكى فى خوف. ليس ثمة تغيّر فى وجهه؛ عدا تعبير غير منفعل داكن.

"هل ترين فتىً واقفاً قرب الجسد المُسجَّى، بين دائرة من ناس يشهدون الموت؟ فتىً لم يكد يبلغ الثامنة عشرة؟ هل يمكنك أن تخمّنى من هو بمجرد التشابه فى ملامح الوجه؟ إنه أنا. انظرى مرة ثانية! أنا واقف هناك أُخفى بهجتي".

فغرت آنا فاهاً أمام دستويفسكي، فى ذعر كبير، كأنها تسأله "ماذا تقول؟"

سألها دستويفسكي، مبتسماً "أنا من كنتُ أرغب فى موت أبى. فمن لا يرغب فى موت أبيه؟"

قالت آنا بصوت باكٍ "لا، لا تقل هذه الأشياء. فهى جُرم فظيع! حتى أولئك الذين ينصتون إلى مثل هذا الكلام يرتكبون خطيئة!"

"سمّينى ما تشائين". وأشعل دستويفسكى سيجارة ونفخ الدخان. "عنيف، حقير، خاطئ. قد تودين لعنى بهذا، لأنكِ لا تفهمين عُمق بياني".

غضبت آنا "أوه! أيّ عمقٍ!"

"لا تغضبي"، ونظر دستويفسكى فى وجه آنا بابتسامة. "حين أقول الابن يرغب فى موت أبيه، فعليك أن تأخذى الأمر كأن شيئاً داخله وراء معناه البسيط. فيه شىء عميق".

وقفت آنا ساكتة، بوجهها منخفض.

قال دستويفسكى "مع أنه كانت عندى تلك الرغبة، يا آنا، إلا أنى حين رأيت جسد والدى المُسجَّى مُستحماً بالدم، وقعتُ فاقداً وعيى. وكانت بداية مرضى المقدّس".

من مسافة خمسة وعشرين عاماً أمامي، عادت تلك الظهيرة ثانيةً، إلى الوادى المُحاط بالتلال من تلك القرية البديعة على الحدود الخارجية من سان بطرسبرج.

شعرت آنا أنه شبيه بشخص منطوٍ. ليس كمنطوٍ. بل هو منطوٍ. لا مجرد منطوٍ. فلا يوجد كهذا المنطوى فى مكان آخر من العالم. يبدو أنه يحمل بركاناً داخله. لا يتكلّم مع أحد. لا يرتبط بأحد. منسحبٌ من الجميع، من كلّ شيء، وحتى من هذا العالم.

فمن يمكنه الارتباط بمثل هذا الشخص؟

هناك شيء آخر لم تعرفه آنا عن دستويفسكى. جوع حادّ للحبّ. لكن أنّى له أن يلاقى قلباً محباً؟

فالحبّ لا يعنى صدقة الحبّ. عليه أن يكون استسلاماً تاماً. لنقل "خذه كلّه". كمن يتصوّر عطيةً فى معبد. "الشيء كلّه، النسغ وكلّه".

فمن هناك ليهبَ هذا الاستسلام التام؟

٨

دقّت الساعة عندئذٍ الحادية عشرة ونصفاً. من الصباح الباكر وهما يكتبان. دون توقّف. لم يعيا كيف مرّ الزمن. حينئذٍ، جلبت فيدوسيا الشاى فارتكنا بعضاً من الوقت. بعد الشاي، استأنفا الكتابة. فيما بعد، أعلن وقع أقدام على السلالم عن وصول شخص. أصغت لتحاول وتتحقّق من يكون. لو كانت فيدوسيا، فهى لن تصعد السلّم بهذه السرعة، وبهذه الضجة. إذن، فهو شخص آخر.

تحرّك ظلٌ إلى الباب. وصار صوت حذائه مسموعاً. حين رفعت آنا رأسها، كان رجل شاب عند الباب. أحدٌ بوجهٍ خشن. ظنّت آنا أنه أحدٌ جاء للقاء دستويفسكى لأجل شيء. زائر ما.

قالت آنا:

"شخص على الباب".

أدار دستويفسكى الذى كان مستغرقاً فى أفكاره وجهَه ناحية الباب. وأطلق صوتاً "أوه". من الواضح أنه يعرف الزائر.

دخل بخطوات ثقال. لم يُظهر توقيراً لدستويفسكى. على العكس، كانت فى وجهه خشونة مستمدّة من سُلطة ما أو غطرسة تامة.

حين وصل منتصف الغرفة، نظر إلى آنا بتعبير فظّ غامض. لم تعجب آنا نظرتُه مطلقاً. فمن هو، ليتطلّع إليها بتلك الغطرسة؟ لديه السمات كلّها لريفيّ ساذَج من الطراز الأول.

قال دستويفسكى "أين كنتَ؟ فلم أركَ منذ أيام. ظننتُ أنكَ غادرتَ البلد".

قال حاسماً "كان عليكَ أن توضح أمنيتكَ. فلم أذهب لأيّ مكان. تعال. هل لديكَ أية خطط للتخلّص مني؟ إن كان، فأخبرني".

"لم أركَ هنا. ولا أعرف أين ذهبتَ. فماذا عليّ أن أظن؟"

"كنتُ مع صديق لي".

"إذن، لمَ لمْ تقُل ذلك مبكراً؟"

"لم أظنّ أنكَ كنتَ آسفاً كونكَ لم ترني".

"لماذا تتكلّم هكذا؟ بتمرّد فى صوتكَ؟ وأيضاً أمام شخص آخر؟ ماذا ستخسر لو أمسكتَ عليكَ لسانكَ قليلاً؟"

"أنا مقتنع بحبكَ لى وإلخ. فلا تكبح نفسكَ الآن فى تفسير الأمر. فلم آت لأسمعه منكَ أيضاً".

"إذن؟ ماذا أتى بكَ الآن؟"

رأته آنا ينظر إلى دستويفسكى باحتقارٍ تام ورفض كليّ، بدلاً من الردّ على ذلك السؤال.

شعرت آنا بتوتّر غامض. لماذا يستعرض هذا الشخص بكثير من الوقاحة؟

كما شعرت أنها خارج اللعبة. ولدى إحساسه بذلك، قال دستويفسكي:

"انزلي، آنا، أرجوكِ واجلسى هناك بعضاً من الوقت. فلدينا كلانا كلام قليل. سأستدعيكِ بعدها. آمل ألاّ تتضايقي".

"لا. لا يعنينى أن أجلس هنا". ولدى تفكيرها هكذا، نهضت نازلة إلى فيدوسيا.

وهى تنزل السلالم، سمعت الشاب يسأل دستويفسكي، بهُزء وسخرية فى صوته، عمّن تكون هذه. أحست آنا كأن الطين سقط على جلدها.

كانت فيدوسيا تقف قرب الباب، تقشّر الأوراق الخُضر من حول حبّة كرنب. على الرغم من أنها كانت منهمكة فى العمل، إلا أن انتباهها كلّه كان منصبّاً حول ما يدور بالدور العلويّ.

لدى اقترابها منها، سألت آنا:

"من هذا؟"

"أوه، ألم تعرفيه؟ باشا، ابن زوجة فيدور الأولى، الابن الأعزّ للراحلة العزيزة مارى ديمتريفنا من زوجها الأول. ألم تسمعيه يقول إنه شخص يصعب على أهل الأرض تحمّله؟ ينتمى إلى ذلك الصنف. وغد من الطراز الأول. يعيش هنا مع فيدور. بين الحين والآخر، يُفتقد هنا. يكون قد سكن مع شخص آخر. وحين تشقّ عليه الأموال، يأتى راكضاً إلى فيدور. لم أر مبدّداً للمال مثله فى حياتى. حتى الآن، جاء طلباً للمال. ومن أين يعطيه فيدور؟ ألا يتبرّم من التفكير فى هذا؟ وحينما يرحل، ستأتى تلك المرأة. حين أراهما كليهما معاً يخربان...".

"قلتِ: تلك المرأة؟ ومن هذه أيضاً؟"

التوى من جديد وجه فيدوسيا:

"إميلى. زوجة أخيه المتوفّى. نتيجة لالتزامه بأخيه، يجمّع فيدور المال من أيّ مكان، يقترض، يرهن، أو حتى يبيع بعضاً من أثاث المنزل. تعرفين يا آنا! آخر مرة أعطاها فيدور المال الذى باع به معطفه. فى عزّ الشتاء!"

فهمت آنا كيف تجرى الأمور. هناك مزيد من الأحمال الثقيلة، على شخص يكافح لحمل أثقاله.

يُسمع تبادل صاخب من الدور العلويّ. صوت باشا الذى يخرج أعلى.

قال دستويفسكى "ليس اليوم كسابق الأيام. تبدو هناك مشاجرة. كما أنه لا يجب أن تكون هذه الضجّة كلّها".

بعد بعض الوقت، نزل باشا على السلالم. كان وجهه داكناً من الغضب. قبل أن يخرج، وقف عند العتبة، أدار وجهه مسدّداً نظرة مليئة بالاحتقار والغيظ إلى آنا. ثم خرج إلى الشارع دون أن ينبس بكلمة، وسار مبتعداً.

قالت فيدوسيا، وهى تكزّ على أسنانها "الصفيق الوقح! كبر كالجاموسة. مع ذلك يتعيّش على هذه الروح البسيطة، يمصّ دمه. ما صلته بفيدور؟ ما التزامه عليه؟ يعيش بالتحديد على كرم الزوج الثانى لأمه! يا للمأساة!"

حين عادت آنا إلى غرفته، كان دستويفسكى جالساً على الأريكة، رأسه مائل للأمام ويده على جبينه. لدى سماعه وقْع قدمَى آنا، رفع وجهه، وتطلّع. تلبّس ابتسامة عمليّة على وجهه ليُخفى بلادته التى ذبلت بسهولة.

قال دستويفسكى "إنه باشا. يمكنك القول إنه ليس له أحد فى هذا العالم غيرى. شخص سيء، صحيح. مع ذلك، فهو زميل بائس. غضب منى اليوم قبل رحيله. فرددتُ له الصاع أيضاً. لا يمكن أن أدعه يذهب سالماً".

فقدت الكتابة دفقها. كانت تمضى قُدماً بسرعة فائقة. ثم دخل ساعتها. الآن، كم عليه أن يكدّ فى مشقّة، لاسترداد تلك الحالة العقلية!

ذرع دستويفسكى الغرفة، وهو يدخن سيجارة. ثم خرج، ووقف بالشرفة، يتطلّع فى البعيد. على مدىً أبعد، يُرى شريط أزرق من السماء، أشجار، وبرج كنيسة يبدو بين أغصان الشجر. تدفّق شىء عندئذٍ فى قلبه، كعزاء صامت. بعد فترة، عاد دستويفسكى للغرفة، قائلاً "لا، لم يُفقد شيء. ما تصوّرته سابقاً رُدّ على عقلى الآن كاملاً".

واستؤنفت الكتابة. لكن آنا أحسّت أنه لم يعد الدفق الأصليّ ببساطة. فقد ضاع فى مكان ما. كان يتلمّس الكلمات المناسبة. تظلّ الأفكار غامضة. يصبح السرد زهيداً. أين جماليات الأسلوب؟ أين كثافة الفكرة والعاطفة؟ أين العمق؟ أين ذاك الجلال القدسيّ الذى يلامس الأبدية؟

سأل دستويفسكى آنا "لست راضية، أليس كذلك؟ هناك شىء ضاع، صحيح؟ ليس السبب مجيء باشا أو ما شابه. فانقطاع دفق الكتابة مألوف عندى. يظلّ العقل أحياناً كالفلاة".

قال دستويفسكي، وهو يفكّر فى شىء بعض الوقت:

"سنفعل شيئاً واحداً. لنأخذ استراحة ثم نعود بعد فترة، ما رأيك؟"

وماذا تقول آنا لو سألها: ما رأيك؟ لم يكن مهماً. فمتى ستمطر فى الفلاة ثانية؟ متى يشطأ العشب، تطلق الأشجار الفسائل والبراعم؟ متى ستنفجر الفلاة بالنعم القدسية؟

كان نهر نيفا مثل عقل مستغرق فى التأمل. يظهر بطريقة مماثلة. لكن التيارات من تحته. ليس غير الهدوء على سطحه. ظلال السماء والأشجار على ضفّتيه، تقع فيه.

يتذكّر دستويفسكى غسقاً آخر على ضفّتَى النيفا... فى تلك المناسبة أيضاً، كان النيفا ساكناً. ولا يزال. كنتُ أسير على طول ضفّة النهر. بروحى الكامنة. حدث الوخز من فكر مجهد عن أيامى التى تمضى ضائعة. ماذا تساوى أوجاع رجل وحيد؟ يشبه نهر النيفا الحلم فى ضوء القمر. والسماء ترتيلة صامتة تفعم قلب امرئ.

ماذا فعلتُ حتى الآن فى حياتي؟ كانت رغبتى أن أعاف الوظائف كلّها التى قمت بها وأصبح كاتباً طوال الوقت.. وماذا حدث؟ ترجمتُ "يوجينى جراندیه" لبلزاك (١٤). وكتبتُ قصصاً بوليسية لم تكن أكثر من مضيعة للوقت. ماذا جلب عليّ هذا كلّه؟ هل سأبلغ مكانةً لو استمرّيتُ على هذا المنوال؟

كان العقل ملتهباً وقتئذ.

يتساقط الثلج على ضفّتَى النيفا. وهناك نور قمريّ واهن.

"بزغ شىء فجأة كالإلهام على عقلى. رؤيا فى العين الداخلية! هل يمكن وصفها هكذا بالضبط؟ لا! تنبّه عقلى فى تلك اللحظة بإلهام قدسيّ. الغمام، التوتّرات وإجهاد العقل، صفا كلّه ساعتها من عقلى. بدأ الميلاد الحقيقيّ لروايتى "الفقراء" من وقتئذ. كنتُ على شفا الثقة بنفسى. ماكار ديفوشكين، نموذج الموظف نقيّ القلب الّذى يعيش مع أشواقه المكبوتة بغرفته المعتمة الصغيرة فى شارع ضيق. فارنكا، العذراء الحزينة فى المنزل المواجه - فرفارا دوبروزيولوفا. كان حبهما منقوعاً بالأسى. وسبّب هذا جراحاً بقلبى. أظنّ هذا كان عيد ميلادى. فى عامى الرابع والعشرين".

نظرت آنا فى تلك اللحظة إلى دستويفسكى بتعبير يضمّ الفرحة والهيام.

فجأةً، هلّ على بالها مشهدٌ من "الفقراء":

... كنتُ أبرى قلمى حين حدث وأن تطلّعتُ - كم قفز قلبي! ففهمتَ ما كنتُ أريد، ما يرغب فيه قلبى البائس! كان طرف ستارتك مرفوعاً وشدّنى البلسم على عتبة النافذة كما اقترحتُ. بدا جزء من وجهكَ الغالى وقد ظهر لحظة عند النافذة، كنت تختلسين النظر، وتفكّرين فيّ. (٨)

جالساً على ضفّة النهر، واصل دستويفسكى قصة "المقامر". وتسابق عقل آنا خلف كلّ كلمة يقولها دستويفسكى.

فى هذه اللحظات كان قلب ألكسى ايفانوفتش على نار يفكّر فى باولين.

---

(١٤) Honoré de Balzac: روائيّ فرنسيّ (١٧٩٩ - ١٨٥٠)، يُعتبر أول من استخدم فنّ الرواية لعرض المشهد الاجتماعيّ خلال تاريخية معينة. مؤسّس الواقعية الاجتماعية، ومبشّر بالنزعة الرومانسية. من رواياته: الكوميديا الإنسانية، يوجيني جراندیه، عقد زواج، لويس لامبير. من مسرحه: كرونويل. (م)

كانت عين دستويفسكى فى مكان ما بعيد، وراء منحنى النيفا:

كانت هذه الأفكار تدور برأسى وأنا أعتلى السلالم الكبيرة من غُرف الجدّة أنتونيدا إلى غرفتى الصغيرة بالدور العلويّ. أثار هذا كلّه اهتمامى بصورة فعّالة: على الرغم من أنى استطعتُ قبل هذا، طبعاً، أن أُخمّن الخيوط السميكة تلك التى كانت تربط الممثلين قبل وصولي، لكنى لم أعرف بالتحديد المداخل والمخارج الغامضة لهذه المسرحية. لم تكن باولين تثق بى أبداً. حتى لو صحّ أحياناً وصادَف أن فتحت قلبها لى كرهاً، كما كان يحدث، لكنى لاحظتُ أنه غالباً، فى الواقع دائماً تقريباً، بعد هذه المجاهرات، إما أن تقلب كلّ ما تقوله إلى مزاح أو تمنحه على مهلٍ مظهر زيف أو اضطراب. آه، كانت تخفى أشياء كثيرة! فى حالتي، كنتُ أحسّ بمآل هذا التوتّر كلّه والموقف الغامض الذى يقترب. صدمة أخرى زيادة، وينتهى كلّ شيء، ويبدو فى النور. كنتُ أيضاً أحد المتورّطين فى هذا الموضوع، لكننى نادراً ما أعطيتُ فكرة عن مصيرى. كنتُ فى مزاج غريب: فلم يعد معى أكثر من عشرين فريدريكاً ذهبياً فى جيبي؛ وأنا بعيد عن البيت، فى بلد أجنبيّ، دون عمل أو وسيلة للحياة، دون أمل، دون خطط - ولم يكن ينتابنى قلق من جرّاء هذا كلّه! لم أكن أفكّر فى باولين، فقد وهبتُ نفسى كليةً ببساطة إلى ذلك الاهتمام المضحك بالمآل الوشيك، ورحتُ أضجّ بالضحك. لكن باولين تزعجني؛ فمصيرها معلّق بالميزان، كما تنبأتُ عندئذٍ، لكن يؤسفنى القول: إنى لا أقلق عما سيصير معها. أريد تفهّم أسرارها، أحبّ أن تأتى عندى وتقول "أحبكَ"، وإن لم تفعل، لو كان هذا جنوناً غير متخيّل، إذن... حسن، فماذا أتمنّى؟ أنّى لى أن أعرف ما أريد؟ أنا عاجز ويائس، أعرف فقط أن عليّ الاقتراب منها، من شعورها، من بهائها، دائماً وللأبد، طيلة حياتى. لا أعرف أكثر! وأنّى لى بالفرار منها؟ (٩)

كان حبّ ألكسى لباولين قد بدأ يحترق...

حينما وصلا هذا الحدّ، فغرت آنا فاهاً أمام دستويفسكي بنمط من هذيان غريب. يتوهّج فى داخلها شيء. إعصار يهبّ فى قلبها. لم تستطع مواصلة التدوين. لم تعرف ما كان يحدث لها. كان دستويفسكي يواصل الإملاء، وتستحيل الكلمات فى أُذنيها إلى طنين أجوف.

أخيراً، فى لحظة يصعُب الدفاع عنها، سألت آنا:

"مَن باولين ألكسندروفنا؟"

وأدركت بعدها أن صوتها ارتفع فوق درجته العادية. فلمَ انفجرت هكذا؟

حين سحب دستويفسكي عينيه من البعيد وراء النهر ناظراً إلى آنا، كانت تفغر فاهاً فيه، كأنها تنبّهت تواً من كابوس مريع.

أذهل دستويفسكي ذاك التحوّل فيها:

"ماذا سألتني، آنا؟"

كانت عيناها لا تزالان مفتوحتَين ذاهلتَين:

"من باولين؟"

ناظراً فى وجهها لحظةً، ضحك دستويفسكي:

"شخصية بهذه الرواية".

فأنكرته فجأة:

"لا. من يصدّق أنها مجرد شخصية؟"

فاعتبرها دستويفسكي نكتة:

"حين لا تبدو الشخصية فى قصة ما قابلة للتصديق، فقد أخفق الكاتب. هل نوقف القصة هنا؟"

"لم أقل هذا".

"إذن؟"

"أعرف أن هذه القصة ليست خيالاً كلّها. ولا باولين هذه. ألم تقل: إن قلب ألكسى كان يتوهّج بحبّ باولين؟ أليس هو قلبكَ، يا فيدور، الذى توهّج فعلاً؟"

دُهش دستويفسكى حين لاحظ أن هذه الفتاة ليست هيّنة كما يحسب. لكنه لم يُبن عن دهشته. لبس دستويفسكى على مهلٍ مظهر الحياديّ ونهض سائراً نحو آنا.

نظر دستويفسكى فى عينيها، محتفظاً بتعبير الحياديّ لم يتغيّر.

ثم قال بصوت ناعم:

"كان هذا من زمان مضى. حبستُ قلبى ورميتُ بمفتاحه. الآن لا أتذكّر أين. فهل وجدته فى مكان ما؟ هلاّ أتيتِ إليّ بمفتاح قلبي؟"

فاصفرّت آنا.

لم تستطع الكلام فترة. ثم غاص قلبها. ماذا لو أطلق دستويفسكى هياجاً وسألها "من أنتِ لتبحثى فى أسرار قلبي؟"

ثم لامت نفسها "لماذا طرحتِ عليه هذا السؤال؟ ماذا هناك فى قلبي، إذن؟"

وكاعتذار، بصوت متهدّج، قالت آنا "سمعتُ شيئاً عن علاقاتكِ. من آخرين. هذا ما جعلنى أطرح السؤال. أرجوكَ، لا تبتئس مني".

ونبعت الدموع فجأة من عينيها. كانت على وشك البكاء.

فقال دستويفسكي:

"أنتِ لا تعرفين، يا عزيزتي، المسافات التى اجتزتها لأصل هنا. كم عانيتُ! وكم صُلبت! الصلب - أكثر كلمة مناسبة ترتبط بما عانيته".

كانت آنا تقف هناك لا ترمش كتمثال من الطين! الفرق الوحيد أن حزناً يوشك أن يتداعى فى تلكم العينين.

"ألم تقولى إنك سمعت شيئاً عني؟ فماذا سمعت؟ معدم، وضيع، حقير، تركبه الديون، مقامر؛ امرؤ يخفق فى حبّ أيّ امرأة يصادُف أن يلتقيها. فاسق حدّ النخاع. هل هذا ما سمعت؟ لا أُنكر أياً من هذا. لو خدشتني، فستجدى نقائص أكثر بكثير من هذا. دعينى أضع سؤالاً بسيطاً إلى أولئك الذين يهينوننى وينتقدونني، إليكِ هو: ما فحوى تلك الحياة ومصيرى المعلّق بي؟ لو افتقر المرء، أهو جُرم؟ كيف يصبح المرء وضيعاً؟ أيكون بعد بيع إمبراطورية كنتُ أمتلكها وأُلقى بالعملات الذهبية فى البحر فأصبح فقيراً تركبنى الديون؟ لماذا يصبح المرء حقيراً فى مجتمعنا؟ تعرفين يا آنا، لقد ولدتُ لأسلاف من الطبقة الدنيا. أنختار مولدنا بأنفسنا؟ هل نحن أحرار فى اختيار أسلافنا المفضّلين، عائلتنا وآبائنا الذين نولَد منهم؟ انظري، إن الله يدخل بيننا الآن. لو انخرطتُ فى جدل مع أحد، بأيّ وقت، فهو مع الله فقط. لماذا يسمح الله بهذا؟ ما معنى هذا كلّه؟ وما المنطق وراءه؟ لماذا يصمت الله؟ فليكن. ما سرّ أولئك "النبلاء" الذين نراهم حولنا؟ لماذا يصبحون "نبلاء"؟ رأيتُ أوغاداً بين "نبلاء". رأيتُ لصوصاً بين "نبلاء". لا أقصد باللصوص من يسرقون. رأيتُ قتلة، فاسقين، ومجانين على الأشواك. فى الوقت نفسه، رأيتُ أرواحاً كبرى فى هيئة مُعدَمين. هل تعتقدين أن أولئك الجالسين فى مراتب ومكاتب معينة مجهّزين تماماً ويستحقّون تلك المناصب؟ أخبريني، هل من يستحقّون هم من يَصِلون؟ لا شيء عندى أخجل منه كونى معدماً أو وضيعاً. ليس هذا فقط؛ أحسّ أحياناً أن مجدى الحقيقيّ كونى فقيراً مهمّشاً. لستُ متأكّداً كيف يستطيع شخص آخر فهم هذا. لنفترض وجوده. حين يهينون وينتقدون الآخرين تلمع عبقرية ناس معينين. هكذا بصورة مشابهة، فيما يخص الاتّهام أنى أحدٌ يقع فى حبّ أيّ امرأة تصادفها عيناى. هو جُرم لم أرتكبه، حينما قُبض عليّ وسُجنت. فكّرى فى

هذا فقط! أربع سنوات فى سيبيريا بسجن أومسك! مع اللصوص والقتلة والتعساء الفاسقين! من يستمع إلى نواح صامت من أحدٍ ينظر إلى الحياة للمرة الأخيرة من أمام فرقة إعدام؟ لماذا لم أُجنّ؟ حين خرجتُ من هناك، عرضَت فتاةُ الحبّ وأنا واقف خارج السور! على من؟ على شخص قد فرّ من الموت! كما كانت حزينة الروح. فى الحقيقة، كانت حالتها أسوأ منى. كان لها زوج وطفل. لكن أيّ نوع من الأزواج؟ شخص يسكر تماماً ويصل بيته مستنداً إلى كتف شخص آخر. أنا نفسى حملته للبيت مرات كثيرة. هكذا صادفتُ مارى أول مرة. فتاة قلبها جريح مع إهانات ومشاعر دونية وأحزان. أنا لا أعرف بنفسى كيف وقعنا فى الحبّ. شىء واحد مؤكّد لكلّ منا، أن الحبّ مثل العزاء. وعليكِ أن تتذكرى شيئاً آخر. أنى جرّبتُ بأقصى طاقتى تفادى هذا الحبّ. مع ذلك، وقعتُ فى الحبّ. أهو برهان على كونى شخصاً فاسقاً؟ لو كان، فأين البرهان على الحبّ الحقيقيّ؟ حتى عندما تعذّبتُ بمآسى حياتي، ظللتُ أراعى حُرمة حبى. لا شكّ فى ذلك. قلتُ "حُرمة"؛ فعلاً. من يقول إن ذلك الحبّ خطيئة؟ لماذا يشعر المرء بالحبّ تجاه آخر؟ من يضع هذا الانفعال داخل قلب بشريّ؟ انظرى. الله يأتى ثانيةً. ما من طريق أخرى. كيف نبعد الله عن حياتنا؟ ولماذا نفعل هذا؟ فلنسأل أساتذة الأخلاق. هل لأحد بتحدّى الإله بأدنى ما يمكن؟ حتى عندما تتحكّم الفضيلة. ما الإله؟ ما الفضيلة؟ كيف تصبح خطيئة أن يحبّ المرء من وصل إليه ليحبه؟ لم أخطف مارى. ما الحبّ؟ إنه حبّ المرء الذى يُصدر الموسيقى من أوتار كمان. حبّ المرء الذى يبتدع إلهةً من مرمر أو طين. يمكننا أيضاً استعمال الكلمة الأخرى، المتعة. كيف يتّخذ الكون هيئته من عدم بدئيّ؟ لأن حبّ الله دخل مرحلة الفعل. لا يجب أن نتذكّر الأسرار القدسية. إنى أفعل هذا الآن، فلم يعد عندى ثمة مهرب. سيفهمنى الله. لم تكن مارى وحدها.

فلماذا أُخفى هذا؟ سأتذكّر من البداية. زوجة بانيف. ألكسندرا شويرت، مارتا براون، آنا كورفن كروكوفسكايا. ما السرّ الذى تبدّى لى فى حبّ أولئك النسوة؟ ماذا كان خاصاً ورأوه فيّ ليحببنني؟ رأوا جمالي؟ مرتبتي؟ سأُخبرك حقيقة. أنا أيضاً كنتُ أعيش منسحباً بسبب مشاعرى الدونية. ذلك ما لم أخبر به أحداً قطّ؛ عداك الآن، يا آنا. ليس محتملاً أنهن أحببننى من أجل شهرتى. فأنا أعيش دائماً وسط كتّاب أكثر شهرة منى. من بين هؤلاء النسوة، كانت زوجة بانيف فقط مَن أحبّت الكاتب فيّ. كان حبّها كالتمتّع بقصيدة. أو مثل لحن بأغنية. لقد قابلتهن جميعاً بمصادفات بحتة. وتحدّثتُ معهن بكلمات قليلة. مرة أخبرتنى ألكسندرا أن كلماتى تُرجف قلبها! أنى أملأ جزيئات حياتها بالنور! فلم أفهم شيئاً. ما السرّ وراء الحبّ؟ لماذا يحبّ امرؤ آخر؟ يا إلهي! لا أعرف. لكنى على علم بشيء واحد. أنه لا يوجد بى شيء لغرس الحبّ أو الاحترام فى الآخرين بصورة عادية. لا شيء مثل رمز الحبّ، الشخصية، الثروة، أو المهنة. كان واقعى النقيض تماماً. كنتُ شخصاً غير مرغوب فيه من قِبَل أحد. ألهث وراء الحبّ طيلة حياتى. وفى النهاية، لقيتُ من يحبوننى أيضاً! هكذا كنتُ أشعر كلّما انخرطتُ فى علاقة حبّ. رأيتُ الحبّ كلّه مقدّساً. وكلّ مَن أحبّنى أنكر هذه الحقيقة، أليس كذلك؟ هل أيّ ممن أحبنى اتّهمنى بكونى فاسقاً؟ أنا فقط الذى أحببتُ. وكان حبى مثل كلمة لا يمكن النطق بها. كيف يفهم الكثيرون هذا؟ ليكن. ما مصيري، فى النهاية؟ أحدٌ لا يريده أحد. من دون أحدٍ يحبه. مقيم مع الإهانة، الهزء، الافتراء، الاتّهام، والإهمال. لكن، من دون أحدٍ يحبه. هذا مصيرى. قد تكون لدى الله مسألة يوضّحها من خلال حياتى. قد يكون هذا السبب الذى خلقنى الله من أجله. لا تظنّى لديّ اعتراض أو شكاية على الله بسبب هذا. فعمل الله فنّ. لا أقول إنه معيب أو نحوه. فماذا يظنّ الله لو قلتُ هذا؟"

كان دستويفسكي، فى تلك اللحظات، مثل شخص بين أشواك الوحى. وكمن ينجز أمراً قدسياً، مَسكَ يد آنا وقبّل راحتها.

نظرت آنا إلى وجه دستويفسكى كأنها المرة الأولى. هناك تعبير روحى غامض عميق يملأ عينيه. صمت حزين ينمو بينهما مثل طوفان.

شعرت آنا بحسّ لا يوصف من الأسى. تمنت أن تبكى صامتة. هكذا اللحظة.

٩

مع أنها استيقظت فجراً، فلا تزال راقدة بالفِراش. حين جاءتها أختها الصغرى ونادت عليها، لم تستجب، نامت على بطنها، ووجهها فوق المخدّة. عقل آنا لا يزال على ضفّة نهر النيفا. فى الغسق، على ضفّة النيفا. ألا يشبه دستويفسكى قدّيساً فاشلاً وهو يسرد أمس خيباته ومآسيه وإخفاقات الحبّ فى حياته؟ يقول عقلها إنه كذلك حقاً. فهل هناك أحد آخر فى هذا العالم سيء الحظّ مثله؟ أليس عقله الحزين كغابات تحترق؟ مع ذلك، لا يبدى علامات عنه خارجه. إنه فريسة القدَر، حتى وهو يتلوّى بين براثن والغة، يرى ألمه كأنه نعمة!

ألم يفتح قلبه من دون حيلة أو اضطراب؟ صدّقت آنا أن ما سمعته اليوم السابق كان صمت روح مقدّسة مهيبة. وصف نفسه كعمل فنيّ إلهيّ معيب. لم تكن تلك الحقيقة. فهو عمل من فنون الله يُفتخَر به دائماً كأفضل ما صنعته يداه. وأضاف قلبها، وهو الأعظم أيضاً.

أخيراً، تلك اللحظة، حين قبّل راحة يدها!

يا إلهي، نادت آنا من قلبها. أحسّت آنا: ربما هذه أسعد لحظة فى حياتى. اللحظة الأجمل. اللحظة الأعظم. اللحظة التى لا تُقدّر بثمن.

لماذا شعرتُ أنى سأبكي، قلّبت آنا الفكرة ثانية فى رأسها مرة تلو مرة. لماذا اغرورقت عيناي؟ تذكّر آنا آثار اللحظة. كانت تتشبّث بحزنها، وتميل بوجهها.

تستعيد الآن تلك اللحظة، وهى ترتجف!

ألم أسمع عواء العاصفة الكبيرة التى هاجَت فى قلبه؟

فى قلبه قوة سحريّة غامضة تشدّ إليه القلوب الأخرى.

حين تفكّر الآن فى هذا، لا تحسّ باللوم ناحية زوجة بانيف، مارى ديمتريفنا، ألكسندرا شوبرت، مارتا براون أو آنا كورفن كروكوفسكايا. لقد لامَسْن الخلود فحسب حين وقفن وراء قلبه.

أولئك الذين يدينونه بالفسوق يعجزون عن قراءة الطهارة والنقاء فى ذلك القلب المحترق بحزن مُضمَر، كما أحسّت آنا.

لكنها ترهب اللحظة التى قبّل فيها دستويفسكى راحة يدها وهى واقفة على ضفّة نهر النيفا اليوم السابق، حتى الآن يحسّ قلبها بألم خافق حين تفكّر فيها. تحسّ بوشيك البكاء.

مضت، فذهبت إلى النافذة ووقفت تنظر إلى الشمس التى تقارب الشروق.

من هذه باولين ألكسندروفنا التى تحرق قلب ألكسى ايفانوفتش، وهى تتقلّب بين إغوائه وإحباطه؟ لماذا يحفظ دستويفسكى ذلك السرّ مطوياً بصرامة؟

أحسّت بأحد على الباب. فدارت لتنظر. كانت أمها، وهى تطوى فستاناً قديماً.

"ألن تذهبى للعمل اليوم، يا آنا؟"

قالت بكسل "لا!"

"لماذا؟"

"لا شيء. لن أذهب".

نظرت إليها أمها بتعبير "أيّ نوع من السلوك هذا، يا بنت؟ تشاجرتِ معه ثانيةً؟"

قالت، وهى لا تزال على موقفها: "لا".

"ماذا، إذن؟ هل انتهت الكتابة؟"

"لا".

"لماذا، إذن، لن تذهبي؟"

"من دون سبب".

وتساءلت، هل تصدّقها الأم. ليس محتملاً. فقد تطلّعت الأم فى آنا صامتةً لحظةً أكثر، ثم استدارت ومضت مبتعدة.

تذكرت آنا عندئذ شيئاً فجأة، فنادت على أمها بصوت عال نوعاً. وتوقفت الأم فى انزعاج بالممرّ ثم التفتت:

"ماذا؟"

واقفة بظهرها إلى النافذة، قالت آنا:

"لو جاء أحد باحثاً عنى هنا، فاعتذرى بأنى لستُ هنا".

"لماذا؟"

"من دون سبب. لا أريد رؤية أحدٍ اليوم".

على الرغم من أن الأم فكّرت فى سؤال آنا "أيّ شيطان تلبّسكِ اليوم؟"، إلا أنها وقفت من دون أن تنبس.

حين دارت الأم مبتعدة، نادت عليها آنا مرة ثانية:

"أيّ من يأتى بحثاً عني، اعتذرى بأنى لستُ هنا".

وقفت تتطلّع من جديد فى السماء الشرقية متوردّة، فى مستهلّ الشروق. لكن ما رأته لم يكن تورّد الشروق، بل السماء الشرقية أو أعالى الشجر. فى بالها، كان الغسق على ضفّة نهر النيفا اليوم السابق.

فى تعبيرات دستويفسكى وسلوكه، هناك قوة سحرية غامضة. أليست هى حقاً ما جذب زوجة بانيف، مارى ديمتريفنا، والأخريات؟ حين تجابه الوحدة، تستزيد هذه القوة التنوع.

واقفةً هناك تتطلّع فى أزرق السماء غير المتناهي، نفثت آنا آهةً.

يا إلهي! ماذا جرى لي؟ ماذا جرى لقلبي؟

دون أن تمضى لأيّ مكان، أغلقت على نفسها فى المنزل اليوم بطوله.

خمّنت آنا أن دستويفسكى قد يضطرب حين يكتشف أنها لم تصل منزله بعد. إن لم تنته الرواية قبل ١ نوفمبر، فستؤول روايات دستويفسكى كلّها إلى عهدة ستيلوفسكى. وليس ستيلوفسكى من النمط الذى يبدى ليونة. فالجميع يعرفون أنه علَقَة تمصّ دم الكتّاب.

ماذا سيفعل دستويفسكى حين يتعب من انتظارها؟ وهو ليس ممن يُهزَم بسهولة. سيبدأ الكتابة بنفسه. لقد درّب نفسه أن يجتاز أية صعوبة. كما أنه يتمتع بعنصر من تعذيب الذات حين يكتب دون انقطاع بالتصميم العنيد الذى قد ينهى به كتابة الرواية خلال أيام.

فتحت آنا الخزانة، فتّشت عن كتاب لدستويفسكى بين الكتب العديدة المرصوفة هناك. كان ما وجدته "مُذلّون مُهانون". بدأت تقرأ الرواية مستندة إلى المخدات المكوّمة على الفِراش. قرأتْها سابقاً. وتذكّرت ناتاشا، فانيا، أليوشا والآخرين. مع ذلك، تستطيع الآن قراءتها بنوع جديد من الانفعال. فى بعض المواقع يوضع خطّ تحت اسم شخص ما. أهو أبوها الذى فعل، بالمواضع التى ظنّها مهمة؟

قرأت قسماً تزيد أهميته عمّا وضع تحته خطّ:

ناتاشا: هل كان هذا حلماً؟

فانيا: وما الحلم؟

ناتاشا: كلّ شيء! ما حصل العام الماضي! فلماذا حطّمتُ سعادتكَ؟

حين يمضى المرء فى قراءة الرواية، يحسّ أن مبدعها واع بتراجيديات العالم.

فى قسم آخر وجدت آنا أباها قد شدّد بخطوط سميكة مضاعَفة. بالهامش الأبيض إلى اليسار من هذا القسم، مَهَرَ بتوقيعه. كان أبوها يعزّه كثيراً. اعتاد وضع مثل هذه العلامات بالكتاب الذى يتوصل فيه إلى شىء قد يلامس لغز الحياة.

بإحدى المناسبات، ناتاشا تخبر فانيا:

لن ألعن أحداً. ولن آسَى على شيء. من خلال التجارب الأليمة نكتسب حقّ سعادة المستقبل. يمكن تحقيقها فقط بمزيد من الألم العنيف. فالمعاناة تصفّى كلّ شيء.

تساءلت آنا إن كان أحد آخر فى العالم، قد أُخذ بجمال المعاناة. لا عجب أن قال مرة فى حوار "أغمط السيد المسيح، خاصةً فيما يتعلّق بالموت على الصليب".

شعرت آنا مما عرفته أن حياة دستويفسكى ضربٌ من الخيال. رؤيةٌ من هذيان! فقط بضع ذرات من الواقع تنتثر هنا وهناك.

لن يصدّق أحد ذلك، ما دام سيقول إنها كانت حياة إنسان عاشها حقاً.

ليس لأحد أيضاً أن يعيش هذه الحياة. حياة جدّ مختلفة. حياة لا يصدّقها عقل. لا يوجد تشابه محدّد بين هذه الحياة وأيّ حيوات أُخَر. لا تُقارَن بها. وليس لأحد أن يقلّدها أيضاً. يراها هكذا، حياة أصلية فى شتّى مناحيها.

ذات يوم، حين سارا معاً، خرجت آنا برأى عَقَدَته. وكان فى مزاج متّزن. تتذكر آنا الجواب الذى منحها إياه عندئذٍ دستويفسكي:

"أنا مخلوق يستحيل تقليده".

xxx

بعد الغسق بقليل، سُمِعَ أحدٌ يطرق الباب. أمها التى فتحت الباب.

"أين آنا؟"

تعرّفت آنا على الشخص بمجرّد سماعها الصوت. فاختفت وراء الباب.

تلعثمت أم آنا قليلاً فى البداية. ثم قالت، بلوعة ذهنية كمَن يرتكب خطيئة:

"ليستْ هنا".

"أين ذهبت؟"

"إلى منزل أحد الأقرباء".

"لم تخبرنى عن هذه الرحلة، حين خرجت المساء السابق".

"شيء مفاجئ".

"متى ستعود؟ قالت لكِ؟ ربما غداً؟ أم الليلة؟"

"لا أعرف. لم تقُل".

وقف هناك لحظةً أو اثنتين، ثم فكّر فى شيء، وقال:

"اسمى فيدور دستويفسكى. حين تعود آنا، بلّغيها أرجوكِ أنى أتيتُ باحثاً عنها".

سمعت صوت دستويفسكى وهو يسير نازلاً السلالم. حين وصلت آنا بسرعة إلى الباب، كانت أمها تقف هناك تشاهد دستويفسكى وهو يتحرك مبتعداً إلى مسافة. شعرت بنوع فظيع من الإحساس بالذنب.

مجرد أن عاينت آنا، دارت إليها أمها غاضبة:

"انظري هنا، لا أستطيع مواصلة الكذب على رجل عظيم كهذا. سأُريكِ لو سألتني فعل شيء كهذا مرة ثانية. فمن ظننته؟"

نظرت إلى أمها خرساء. هل تعتقد الأم أنها لا تعرف من هو؟

هاجمتها الأم مرة ثانية:

"لماذا تُخفين نفسكِ عنه؟ أخبريني. أيّ جُرم اقترفته؟"

دون التبرّم بالردّ عن السؤال، أو حتى كأنها لم تعرف بسماعها السؤال، وقفت تنظر دون أن تطرف لها عين إلى دستويفسكي وهو يمضي مبتعداً إلى مسافة في النور المعتم لمصابيح الشارع.

خلال لحظات، اختفى بالعتمة خلف مصابيح الشارع ملتفّاً إلى طرفه البعيد.

لا تزال آنا واقفة هناك، تنظر إلى العتمة. تحترق بحسّ صامت من الذنب.

ذكرت دستويفسكي، تلك الليلة، في صلواتها:

يا ربي! هذا الرجل! هذا الرجل العظيم! كفّ عن امتحان روحه بعقابكَ المعذّب. هل من مزيد ستعلّم إياه العالم عبر بلاياه؟ هل تحاول أن تعلّم العالم أكثر - مع أنه لم يتعلّم كفاية حتى بعدما شَهِدكَ وأنت تهب ابنكَ، الوليد الوحيد، على الصليب - بجعل مثل هذه الحياة المُرهَفة تختبر المزيد من المعاناة؟

تراجعت عن القرار الذي اتّخذته الليلة السابقة ألاّ تعود إلى زيارة منزل دستويفسكي. ليس لديها بديل آخر، إلا أن تتراجع. لم يسمح لها قلبها ببساطة.

xxx

بوصولها اليوم التالي، كان دستويفسكى يكتب. لم يع آنا واقفةً عند الباب. كأنه منغمس فى النسيان. كومة أوراق مجعّدة على الأرض. الطفاية ملآنة بأعقاب سجائر. الفنجان حيث شرب الشاى الأسود كما هو على الطاولة. لم يبد عليه أنه نام طيلة الليل. ربما لم يدرك أن النهار قد طلع وأن نور الشمس ساطع بالخارج. فالمصباح لا يزال مشتعلاً! شعرت آنا بأسىً فادح. لقد تألم بصورة معقولة الليلة السابقة. وقرّر فى النهاية الاعتماد على نفسه. وقفت عند الباب، وأحدثت صوتاً بسعلة. لم يسمعها. فهو منغمس فى الكتابة. يبدع "المقامر" من ذكرياته عن حياة فى نوادى قمار فسبادن.

بشجاعة مجمَّعة، دخلت آنا. حتى بعدما وقفت قربه، لم يشكّ أن شبحاً على الأقلّ قد تحرك. فماذا عليها أن تفعل الآن؟ راح عقلها فى جدال. فهل أناديه؟ أم أُحدث جلبة أخرى بتصفية حلقي؟ أم أدقّ على الطاولة؟ لم تفعل أياً من ذلك. لتتركه يغضب، يحتقرها، يطردها أو أياً ما سيكون. فلن تأسَى. وضعت راحة يدها إزاء أعلى الورقة التى كان يكتب عليها.

فى البداية لم يبد أنه تعرّف كنه هذا. ثم رفع وجهه ونظر إليها. وجه شاحب. عينان محرومتان من النوم. وضع القلم على الورقة التى يكتب عليها، وارتدّ دستويفسكى فى كرسيّه. لم يتحدّث. راح فقط ينظر إليها. هل ظلّ ما كان هناك تلك الأيام من عمق المحيط هو نفسه؟ غضب، لا مبالاة، فراغ؟ أم الحزن؟

قالت بصوت ناعم:

"سامحني".

الصمت لا يزال. ماذا يشتعل فى باله؟ أهو القلق من أنه لو لم ينه الرواية قبل ١ نوفمبر، فرواياته كلّها وهو نفسه سيُعهد بها أبدياً إلى ستيلوفسكي؟ أم اليأس من أنه لا يوجد أحد هناك يمدّ يد العون إليه؟ أم الصمت الذى يهدر من ثقته بنفسه، من أنه ليس لأحد أن يهزمه بسهولة؟

قالت:

"لا تقلق. سأدوّن. فقط أملِ عليّ. إن احتجتَ، يمكننا أيضاً الجلوس ليلاً. سننهى الرواية قبل الميعاد".

بعد مزيد من الوقت، كسر دستويفسكى صمته:

"ليس قلقى الآن أن أستطيع إنهاء الرواية قبل ١ نوفمبر. لا يبعث العقد وشرطه فيّ أيّ قلق الآن. إننى أتألم لا من التفكير بأن رواياتى ستؤول إلى عهدة شخص آخر. متى سأُنهيها؟ هل ستظلّ للأبد سماءً لأفكاري؟"

هذه مشكلتى الآن!

قالت آنا "الآن، انهض أرجوكَ وقف بالخارج بعض الوقت. دعنى أكنس وأنظّف الغرفة".

ناهضاً، خرج دستويفسكى إلى الشرفة ومدّد نفسه.

رتّبت آنا الأوراق والكتب بدقّة. مسحت الطاولة. فرّغت الطفاية فى علبة القمامة بالخارج.

حين بدأت كنس الغرفة، قال دستويفسكي:

"سأخرج قليلاً. فلأر ما إن كانت السماء والأرض وسان بطرسبرج على الهيئة نفسها لا تزال كما كانت أمس".

فضحكت. شعرت بقليل من الارتياح. انفكّ توتّر عقلها إلى مداه كمن أطلقت نكتة!

حيثما نظر حوله كان القَذَر والوَسَخ بكلّ مكان. نسيج عنكبوت معلّق باقاتٍ فوق الرؤوس. نظّفت ذلك كلّه. وضعت الكتب مرتّبة بأرففها. ثم مسحت عن صورة مارى الغبار. بدت عندئذٍ أشدّ حيوية. وقفت تنظر إلى الصورة لحظة. ألم تكن الجمال الذى ملأ حياة فيدور عدّة سنوات بالحبّ والألم؟

رأت مفارش السرير وستائر النافذة كلّها مُتربة. هل هناك بدائل منها؟ تشكّكت. ثم رأت على الطاولة الأكبر بالخلف، مزهريتَين. واضح أنهما صينيتان، بديعتان جداً. هدية من صديقٍ كتذكار. مسحت آنا المزهريتَين، ورتّبت فيهما الأزهار. لمّعت المرآة، ومسحت ما كان يبقّعها من وَسَخ. حين انتهى كلّ شيء دقّت ساعة الحائط التاسعةَ. فأين فيدور؟ ألم يعُد بعد؟ أين الذى خرج ليرى إن كانت السماء والأرض وسان بطرسبرج على الهيئة نفسها كما كانت أمس؟

لم يُر فى أيّ مكان. رفع الشكّ رأسه داخل عقلها. هل حطّ به جنون المقامرة فى نادى قمار؟

التقطت أفرخ الورق التى كان دستويفسكى يكتب فيها أثناء الليل. أكمل فصلين تقريباً. ألم تغمض له عين، إذن. حين جاء إلى الجزء الأخير مما يكتب، كان خطّ يده ضائعاً فى الجاذبية. التقطت آنا الأفرخ، وبدأت نسخها بترتيب.

بعد قرابة نصف ساعة، سمعت أحداً يصعد السلالم. حين رفعت وجهها تظنّه عاد من تفقّد السماء والمدينة، كان إيفان الواقف على الباب، لا دستويفسكى.

ارتاع عقل آنا حيناً. كما اندهشت. فكيف وصل إيفان هنا؟

وهي تقف متسائلة، دخل إيفان الغرفة سائراً نحو آنا. شَعرٌ ممشّط بعنايةٍ ووجهٌ يستعرض ملامح رجلٍ شابّ ذكيّ، سمات شخصيته. وقف في المنتصف، متطلّعاً حواليه في الغرفة كلّها.

"ذهبتُ إلى منزلكم لأراك. فقالت أمك عندئذٍ إنك ذهبتِ إلى منزل دستويفسكي. هل تعملين هنا الآن؟ حسن. إن أسفك أن لن تجدي وظيفة وصل نهايته. لقد كافحتُ لأجد هذا المنزل. ذهبتُ في شارع وراء شارع مستفسراً عن منزل دستويفسكي. ثم قال أحدهم إن دستويفسكي يسكن في بناية ألونكين ذات الأدوار الخمسة. فأين الشخص؟"

انزعجت آنا. كيف يتهكّم على دستويفسكي فيقول عنه "شخص"؟

قالت آنا "لا تُشر إليه بدون توقير. أتظنّه أحداً من مستواكَ، يا إيفان؟ حين تتكلّم عن أحد يهتم العظمة، عليكَ أن تبدي له التوقير اللازم".

قاتحاً ذراعيه، سأل إيفان "أهو هكذا؟"

لم يعجب هذا آنا. فسألته مُغضَبة:

"لماذا أتيتَ هنا، يا إيفان؟"

قال إيفان:

"لأراك".

"ولماذا تريد أن تراني؟"

"سؤال جيد فعلاً! أعرف أني أضطرب كثيراً إن تأخّرتُ ثانيةً على بيت عمي، ولا أستطيع الخروج. ما السرّ وراء ذلك؟"

"لا أعرف".

"بل تعرفين. فقط لا تريدين البوح".

"على أيّ حال، ليس لكَ أن تأتي هنا لتراني".

"ما الضرر من مجيئي هنا؟ أخبريني".

دون أن يعنيها الردّ على سؤاله، أعادت آنا ترتيب الورق على الطاولة.

"أوه، إذن هذا منزل دستويفسكي"، ولدى قوله هذا، ذهب فوراً إلى الطرف الآخر من الطاولة الأكبر. وتطلّع في المرآة إلى مَرآهُ الوسيم. مشّط شَعره للخلف بيده. عدّل وضع ياقة قميصه. فرأى عندئذٍ إيفان المزهريتَين الصينيتَين البديعتَين. وبينما يمسك واحدة منهما صائحاً "ها! يا للإبداع"، يستمتع بجمالها من زواياها كافّة، ويديرها في يده، انزلقت فسقطت أرضاً، فتهشّمت.

يا ربي! صرخ عقل آنا.

انفجرت:

"إيفان! هل هذا المكان الذي تُبدي فيه رعونتكَ؟"

لم يتصوّر إيفان أن المزهرية قد تسقط فتتهشّم. مع أنها كانت مصادفة، إلا أنه ارتاع حقاً.

كانت آنا على حافّة الدموع:

"ماذا أقول له الآن؟"

حاول إيفان أن يهوّن الأمر:

"ليست تاجاً من الجوهر أو نحوه، أليس كذلك؟ مزهرية مصنوعة من الفَخّار! لا شيء يستعصي جلبه من السوق".

فاستشاطت آنا غضباً:

"اخرج من هذا المكان".

وراحت تبكي.

شعرت آنا خلالها أن أحداً يقف على الباب. حين نظرت، كان دستويفسكي نفسه. فذُهلت. ماذا سيقول؟ وماذا ستقول؟ وكانت اللحظة نوعاً من صمت مطبق.

سار دستويفسكى داخلاً، ومضى نحو الطاولة، مال أرضاً، وبدأ يجمّع كِسَر تلك المزهرية فيكوّمها فوق فَرْخ ورق. كان إيفان هو الذى اكتأب الآن، فمضى قائلاً "أنا آسف، آسف جداً".

وهو يخرج هارباً من صمت اللحظة، تحرّكت تواً جنب دستويفسكى وكنست كِسَر المزهرية والأزهار المنتثرة. وبعدما أودعتها فى الخارج بعلبة القمامة، عادت.

انعقد أسىً واعتذار غير ملفوظ على وجهها.

قال دستويفسكي:

"من هذا؟"

ردت آنا "إيفان".

"ومن إيفان؟"

"نحبّ بعضنا بعضاً".

"إذن، جاء ليراك، غيرَ مستطيعٍ تحمّلَ حبّه؟"

"لا أضمر له ذلك الحبّ الكبير. لا تعجبنى قطّ وسامة إيفان الزائدة على الحدّ".

"أوه، هكذا؟ عليكِ أن تتعلّمى تحمّل ضعف حبيبك. هكذا الحبّ".

"يقول إيفان إن زواجنا لا يمكن تأجيله أكثر. لكنى لم أتّخذ قراراً بعد".

"لِمَ؟"

"هناك أحدٌ آخر يحبنى أكثر بكثير من إيفان. اسمه إيليتش. وأنا أحبّه أكثر".

فانفجر دستويفسكى ضاحكاً:

"هذا أيضاً. جيد جداً. دعى العاشق الآخر يأتى أيضاً. هناك مزهرية أخرى باقية له ليكسرها".

ومن خجل آنا، صار وجهها قرمزياً.

١٠

العزلة ولحظات قبيل الفجر الصامتة. السماء والأرض، الشجر والبشر، والكائنات الحية الأخرى فى سُبات عميق. هناك نور راقد بالأرض كظلٍّ من السماء.

كان دستويفسكى واقفاً جنب الطريق المارّة قرب القلعة. يلازم هنا طيلة اليومين الماضيين محطّماً بالتعب والضعف من نوبة عنيفة وحشيّة من الصَرَع. حينما بدأ يفيق من كابوسٍ أتاه قبيل الفجر أحسّ أن عليه القيام بنزهة. قصد مبدئياً السير فقط وهلة وجيزة. لكنه لا يذكر الآن كم ظلّ سائراً. لديه شعور بأنه بدأ الرحلة من اللانهاية التى كانت وراء شواطئ الزمن. وبينما يسير منصتاً إلى ما ينطق به الصمت المشعّ من روح الطبيعة، كانت مدينة سان بطرسبرج تُفسِحُ كالكون. فى اللحظات التى تسبق الشروق، كان والكون وحدهما!

تقع القلعة وسط بريّة كبيرة. إلى مسافة، يقف شجر الحور ساكناً. أبراج الكنيسة تُرى من بين أماليد الشجر. قرأ دستويفسكى الصمت والعزلة، السكون وترنيم الخلود المتألّق، من الغموض الذى يغلّف ذلك كلّه.

حين واصل الرحلة بطمأنينته تلك، راح دستويفسكى يفكّر:

قُرب هذا الخلود، كم يرتحل الطيران التجريبيّ لحياتي؟ وسط فضاء ملعون!

ما معنى طِرادُ حياةٍ بإخفاقات قاسية، بخسائر وإهانات؟ ما معنى هذه الحياة؟

فى النهاية، ألن أصبح غيرَ مرغوبٍ من قِبل الجميع؟

معزولاً عن الجميع، بوحدةٍ مستحكمةٍ...

أليست حالتى الآن شبيهة بقطعة صخر ملقاة فى الطريق؟ متى أفكر فى بلواي، أحسّ هكذا...

فى صلاتى أجد ملاذاً للهرب من الحقائق التى تمزّق نفسى.

كم سيظلّ الإنسان يصلّي؟ وماذا يحدث حين يخرج المرء منها؟

من جديد إلى براثنِ نَسْرٍ!

لا مكان للفرارِ. عدا إلى سوء حظّي!

حياتى تستحيل إلى مجرد كابوس.

ورنّ فى باله صدى أبياتٍ من شكسبير:

ليست الحياة غير ظلٍّ سَارٍ،

لاعبٌ بائسٌ يختال باكياً ساعتَهُ على المسرح،

ولا يُسمَع منهُ المزيدُ؛

هى حكايةٌ يرويها ساذَجٌ،

مليئةٌ صخباً وعنفاً، لا تدلّ على شيءٍ...

حين مرّ بميدان البلدة، رأى أمداء السماء الخفيضة تستحيل باهتةً.

قد تأتى إميلى اليوم. أين أجلب مالاً لأدفع لها؟ لا فكرة. ماذا تبقّى بالمنزل لأبيعه، أربع أو خمس ملاعق خشبية. الباقى كلّه مباع أو مرتَهن. حتى الأوانى. الأوانى مباعة لجنى مال إلى باشا. ماذا أفعل أيضاً حين يأتى ويطلب. لن يتركني، إن قلتُ لا مال عندى. وقاحته جاوزت الحدّ. أسمع أنه يشرب كثيراً هذه الأيام. فلا جدوى من نُصحه. فهل يلوى الناس نحو الشرّ من قلّة النصح؟

أو لماذا أُحمّل نفسى باتّخاذ هذه المسؤوليات، واحدة تلو أخرى؟

يضحك عليّ المعارف مؤخراً بقولهم إن جلب المتاعب على نفسى نوع من العجز الذهنيّ. ولا أجادل أو أحتجّ. أضحك فقط كأنى أسمع نكتة أو أفكّر من داخلى أنى بالتأكيد لديّ متاعب.

أهى نكتة، فى الواقع؟ أنا متأكّد أنها ليست كذلك. لكنى أتساءل. هل لأحد أن يحلّ نفسه من الأعباء كافّةً؟ هل تكون حياة دون معاناة، وهل تستحقّ الذكر؟

كان دستويفسكى يكلّم نفسه كمن يكلّم صديقاً يسير جنبه.

سأتحدّث عن حياتى. لا عنها كلّها. يستحيل أن أفعلها. هناك أشياء لا يمكن أن أقولها عنى عرَضاً. قد تعى أن أخى الأكبر ميشيل كان يتهرّب من النشر بمجلة "الزمان"(١٥)؟ فهى تصدر بطيئاً. ظهرت "فى قبوي" بدايةً بهذه المجلة. كانت مَعلَماً فى حياتى الأدبية. أسّس أخى النشر بأموال مقتَرَضة من هنا وهناك. وكان على عملية النشر أن تتوقّف، من ناتج الخسارة الفادحة. كانت ضربة قاصمة بكلّ معانيها. منها انهار أخى. كنتُ عندئذٍ فى موسكو جنب زوجتى. تخيّل. واحد جالس جنب زوجته، ينتظر موتها عاجزاً خلال اثنى عشرة أشهر طوالاً! وهي، ماري، ظلّت تحبنى من أعماقها. وأردّ لها ذلك الحبّ بقَدْر مساوٍ. هكذا بدأنا حياتنا معاً، بمثل هذا الحبّ العجيب

---

(١٥) Epoch: مجلة الزمان التي كان يديرها أخو دستويفسكى، ونشر فيها عدّة أعمال. (م)

لبعضنا الآخر. تخيّل عندئذٍ الشفقة! فلا نستطيع الحياة بسعادة. لن يفهم أحد لو قلتُ ذلك كلّه. قد تسأل لمجرد السؤال "أوه، هل أحبّ حقاً أحدكما الآخر من أعماقه؟" كانت طبيعتها هكذا، مع تلك الأفكار الخادعة من خيالها وبعض الزلاّت، جعلت حياتنا معاً بائسة. كانت تملأ حياتى باللعنة. ذلك ما أحسّ به اليوم. مع ذلك عجزتُ عن كرهها. فقد كانت أكثر امرأة بطبيعة طيبة رأيتها فى حياتى. وحين ذهبت أدركتُ أنى دفنتُ الكثير معها بالقبر. بعدها أفكّر فى الفراغ الذى غزا قلبى من وقتها فصاعداً... يا إلهي! أدرك الآن كم أن موت أحدٍ يحبّه المرء كثيراً يُحيل حياة المرء إلى امتداد مقفر تماماً! وهل انتهى بعد؟ لا. خلال ثلاثة أشهر، يموت أخى أيضاً.

كم كان أمراً فظيعاً! ماذا هناك فى حياتى أستبدل به حبّ كليهما؟

الديون التى خلّفها أخى. عائلة أخى اليتيمة. أيمكن خلعهم مني؟ هى كلّها أشياء مشتبكة ـ وتظلّ حياتي، بهذه الورطة، مرتبكة!

حينما وصل دستويفسكى بيته وحيداً، لم يكن النهار قد طلع. كانت فيدوسيا تؤدّى عملاً بالمطبخ. وصل غرفته، اضطجع على الأريكة، أغمض عينيه بحزم لحظة، وأطلق آهة عميقة. يده اليمنى تلامس الكتاب الذى كان على الأريكة. كان الكتاب المقدّس. أين توقّفتُ فى سِفر أيوبَ أمس؟

العلامة بموضعها. فقرأ من هناك. لديه عادة القراءة من سِفر أيوب بين كلّ حين وآخر:

إن أذنبتُ فويلٌ لى
وإن تبرّرتُ لا أرفعُ رأسى
إنى شبعان هواناً
وناظرٌ مذلّتي
وإن أرتفع تصطدنى كأسدٍ

ثم تعودُ وتتجبّرُ عليّ
تجدّدُ شهودكَ تجاهى
وتُزيدُ غضبكَ على نوبَ وجيشُ ضدّى
فلماذا أخرجتَنى من الرحمِ
كنتُ قد أسلّمتُ الروحَ ولم ترنى عينٌ
فكنتُ كأنى لم أكن
فأُقَاد من الرحمِ إلى القبرِ
أليسَت أيامى قليلةٌ
اتركْ كُفّ عنى فأتبلّج قليلاً
قبل أن أذهبَ ولا أعودُ
إلى أرضِ ظُلمة وظلِّ الموتِ
أرضِ ظلامٍ مثلَ دُجى ظلِّ الموتِ
وبلا ترتيبٍ وإشراقُها كالدُجى. (١٠)

حتى أيوب قد لعنَ يوم ميلاده. هكذا "لتظلم نجومُ عشائهِ".

قال دستويفسكى من قلبه:

"لن أمضى لفعل أيّ من ذلك. سأحمل فقطْ هذه الأشياء وأتساءل عمّا قد يكون معنى هذا كلّه. علّمتُ الحبّ عذاباتي".

وصلت آنا قبل أن تدقّ الثامنة، قلقةً من ضياع ذينك اليومين فعلاً.

مجرد أن دخلت استفسرت "كيف حالكَ اليوم، يا فيدور؟ أنتَ بخير؟"

قال دستويفسكي:

"طبعاً! نهضتُ باكراً اليوم. وسرتُ مسافة قبيل الفجر. أحسّ بالانتعاش. تتّضح مواقف القصة بحيوية. أحتاج فقط إلى أن أغمض عينيّ وأُملى مباشرة".

جلست آنا قرب الطاولة، مستعدة للتدوين.

جالساً لحظة بعينيه مغمضتين كمن يتذكّر أو فى صلاة، دخل دستويفسكى فى القصة مباشرة:

أمسك الجدةَ أنتونيدا جنونُ المقامرة. الجنرال خائف أن تقامر المرأة العجوز بثروتها كلّها. لو حدث فهو الخاسر، وهو وحده! بعد وفاة الجدة، ستؤول الثروة كلّها إليه فهو الوريث الشرعيّ الوحيد. ستُضيّعها بالتأكيد، فى المقامرة. هى الجدة من كبار الشخصيات الآن حول موائد القمار، بنادى القمار. أيّ امرئ قد يُخلّى كرسيه لها. تقامر باستخدام ألكسى بالوكالة. ويمسك الجنرالَ حقدٌ على ألكسى. حين يقول ألكسى إنه عاجز، لا يفهم الجنرال.

الجدّة فى غاية التصميم الآن. تطلب فى كلّ وقت من ألكسى أن يلعب من أجلها بوضع عشرين قطعة ذهبية. بدأت اللعبة سريعاً بوضع ألكسى المال على نقطة الصفر. هى المرة الثانية والثالثة التى يلعب فيها على الصفر. والصفر لم يظهر. لن تفهم الجدّة إن كان عليه أن يخبرها اليوم إنه ليس محتملاً ظهورُ الصفر. تصرّ أن يلعب فى الصفر. اتّخذت موقفاً أنه لو تطلّب الأمر فهى مستعدّة للّعب حتى عشر مرات متوالية على الصفر. الأربعة آلاف جيلدر(١٦) التى ربحتها باللّعب فى الحمراء بينهما، خسرتها باللعب فى الصفراء. عندئذٍ كانت الجدّة مقهورة نوعاً. وتقبّلت الهزيمة كاملة برفع يدها.

لاحظت آنا انفعال دستويفسكى سراً بوصفه المقامرة. أليس هذا الانفعال وتلك العاطفة هما ما ينسخه بشخصية الجدّة أنتونيدا؟

كلّما خسرت زادها تصميماً. فهى لا تقلق من الخسارة. هل يبقى أن تضع فى القطع السوداء والحمراء؟ تعى بالهزيمة فى الحقيقة حين يفرُغ

(١٦) :guilderوحدة النقد الهولندية. (م)

جيبها. سترهن شيئاً على الفور وتجلب مالاً. أو تجلب بعض المال بسعر فائدة باهظ. سؤالها هو: أيّ لاعب حقيقيّ يتقبّل الهزيمة ويمضى مبتعداً؟ حين دفعت باثنى عشر ألفاً زيادة، ركضت الجدّة إلى الضفّة التى يتّخذها ألكسى. عليها برفع قيمة المبلغ. إن تجّار العملة الجالسين بالبنك لصوص كلّهم! تقضى تعاملاتهم عملياً على كثير من الزبائن. ولا تتبرم الجدّة من هذه الأشياء. حتى وهى تخسر كلّ شيء، فما تفكّر فيه حتماً هو أنها ستربح اللعبة التالية. وحين غيّرت الجدّة مالها بما يزيد عن اثنى عشر ألف فلورين نقدية وذهباً، زادها حماساً.

قرّرت الجدّة أنها لن تلعب بعد على الصفراء أو الحمراء. حين ربحت عشرين قطعة ذهبية فى اللعبة التالية، عجزت عن استيعاب فرحتها التى لطمت بها ألكسى. تنسى الحزن على الخسائر المكرّرة بنصر واحد متواضع. لكن ذلك النصر المتواضع كان ورطة. فقد خسرت اللعب اللاحقة جميعاً، وصارت الجدة أخيراً مفلسة تماماً، دون قطعة نقدية واحدة فى يدها.

لم يكن لدى آنا أدنى شكّ فى هذا الجنون للمقامرة الذى يصفه الروائيّ، ناسباً إياه إلى الجدّة أنتونيدا. تبيّنت الانغماس والانفعال والعاطفة على وجهه وهو يعايش اللعبة. لقد واجه كثيراً من الإخفاقات! عانى كثيراً من الخسائر! مع ذلك لم يلن. ينهمك كتّاب آخرون فى تجمّعاتهم الليلية، مناقشاتهم ومآدبهم، هذه المرة بنادى قمار، مع ناس يأتون هناك من مشارب مختلفة من الحياة...

ما فائدة الشعور بالأسى حيث يمكن لكلّ امرئ أن يتفاداه؟ لماذا لا يرى أنه بهذا ينتقل بعيداً عن الآخرين؟

هناك إهانات، عزلة ونبذ. صحيح. آنا تعرف ذلك أيضاً. لكن لو كان هذا، طرح الدونية، مثلما يقال "ها أنا ذا"، فستُحلّ المشكلة.

لكن، عليه أن يصل إلى هذا الوعى كلّه بنفسه.

فكّرت آنا وهى تتساءل "مع ذلك، فهو هذا الشخص، الذى ابتدع السمّ والترياق ممزوجَين معاً! كأنه قارّة يتسيّد عليها بالتبادل اللهُ والشيطان".

وعلى الرغم من صفاء عقله، كانت آنا قادرة على رؤية ما يعانيه من توتّر وهو يدخل فى الرواية.

فى هذه الأثناء، وهو يشرب شايه الأسود، قال دستويفسكي:

"لا أتمنى الانتهاء من هذه الرواية عاجلاً".

فسألته مندهشة:

"لماذا؟ إن لم تُنه هذه الرواية قبل ١ نوفمبر، أفلن يُعهد إلى ستيلوفسكى بحُقوق الروايات التى كتبتها والتى ستكتبها فيما بعد جميعاً؟"

"أوه، ستيلوفسكي! دعى عنك هذا اللعين! كيف يتسنّى لامرئ أن يكتب رواية بشرط زمنيّ؟ هل يمكن للروائيّ أن يتنبأ متى يخلص من كتابة رواية؟ ليس هذا حَرْث حقل أو كَسْر صخر. إنه وحى من الروح. حين يستغرق كاتب فيه، فليس لشرط أن يؤثّر عليه".

"هل هذا العظيم ستيلوفسكى من النمط الذى يفهم هذا كلّه؟"

"العظيم؟ إنه مجرد علَقَة! علَقَة تمصّ دم الكتّاب. أو هو الشيطان نفسه".

"ثم؟"

"إن الكتب التى سطّرت كلّها حتى الآن وتلك المحتمل أن أسطّر مستقبلاً ستؤول إليه! ذلك يعنى أن دعيه يستمتع بما سيجنيه من دَخْل منها. لكن لن يُقال إنه هو الذى سطّرها، أليس كذلك؟"

نظرت آنا إلى دستويفسكى بحسنّ من العجب غير المنطوق.

بعد لحظة، قال بضحكة ماكرة:

"هناك سبب آخر أيضاً. لو انتهت الرواية الآن، أفلن تختفى فى التوّ، يا آنا؟"

فضحكت أيضاً.

"إذن تعرف كيف تُلقى أيضاً بالنكات!"

هزّ دستويفسكى رأسه نفياً:

"من قال هذه نكتة؟"

دون استجابة، جلست آنا، وجهها خفيض، منكبّة على قطعة ورق فوق الطاولة.

ثم قال دستويفسكي:

"أريد أن أكتب أعمالاً أكثر تميزاً. هناك برأسى أفكار عدّة. لكن ظروفى ليست موائمة. فماذا أفعل! أنا فى وضع غريب! سيدمّرنى بالتأكيد، لو واصلتُ هكذا".

دون أن ترفع وجهاً، سألته:

"لمَ لا تواصل الكتابة لو كانت لديكَ أفكارٌ؟ لقد قرأتُ ما كتب أحدهم فى مكان ما: مشكلة معظم الكتّاب أن ليس لديهم ما يكتبون عنه".

"من مجد الله أنى لا أواجه مثل هذه البليّة! فأنا، فى الحقيقة، أرتجف فى خيالى بأكوام من الأشياء المكدّسة التى لم أكتب عنها بعد".

"إذن اكتب ما يجب عليكَ. لا أعرف إن كنتُ مؤهّلة لقوله، لكنى سأغامر بقوله: هناك عالمٌ أو قرّاءٌ ينتظرون قراءة ما لم يكتبه العظيم دستويفسكى بعد".

"هكذا؟"، ثم تحدّث دستويفسكى عن الرواية التى ينوى كتابتها تالياً:

"فكرة تثير خيالى منذ وقت طويل! ليست مما أستطيع الإمساك بها عفوياً. لكنها تغرينى الآن. هدفى أن أبتدع روحاً طاهرة، تجسّد الخير. فما أصعب أن يبلغها أحدٌ فى هذا العالم؟ خاصةً فى زماننا الذى يمتلئ بفاعلى الشرّ".

ارتكن دستويفسكى فى الأريكة، مشعلاً سيجارة، ثم استأنف كلامه عن الرواية التى ينوى كتابتها:

"يعود ميشكين إلى سان بطرسبرج، بعد أربع سنوات من العلاج والاستجمام بمصحّة فى سويسرا. ماذا كان مرضه؟ الصرَع، طبعاً. المرض الذى يزور الأرواح الطاهرة فقط. حين نقابل ميشكين أولاً نتذكّر فجأة السيد المسيح. حتى مظهره شبيه بالسيد المسيح نوعياً. امرؤ يسير فى الدرب الذى يُبيّنه له قلبه. مُدان من قِبل الجميع. مُهان من قِبل الجميع. مع ذلك، فهو روح طاهرة. أليس من خلال هؤلاء يشتغل الربّ؟ خلال عام من حياته النشطة، يعود حيث جاء. هكذا، للمصحّة العقلية. أتصوّر ميشكين مسيحاً فاشلاً. لكنه بعيون الآخرين، أحمق مغفّل".

"مغفّل؟ هذه الروح الطاهرة؟"

نظر دستويفسكى إلى آنا كمن يسألها "لمَ تندهشين؟"

"فى زماننا، مَن غيرُ المغفّل يبقى روحاً طاهرة؟"

قالت آنا:

"إذن اكتبها بسرعة. افترض أنكَ غيرتَ رأيكَ لو وضعتها فى وقت آخر؟"

قال دستويفسكى "لا. لن تكون شبيهاً بهذا حال ما صارت رواية. سأكتب بضعة أعمال أهبط بها إلى الأرض".

ثم، مضطجعاً بالأريكة، ناظراً إلى السقف، قال دستويفسكي:

"ستكون فيها شخصية عمرها أربعة عشر عاماً. ايبوليت. يموت مستَنفَداً. سيقوم بمحاولات انتحار. هدفه أن يستفسر من الله مولانا عن الحياة والموت، عبر انتحاره. لكن محاولته تبوء بالفشل. حين يلتقى ميشكين فى إحدى المناسبات، يسأله النصيحة عن أفضل طرق الموت. يبلغه ميشكين أنه مهما كان من يؤمن بنقائه وروحانيته، فعليه أن (يمرّ بنا غافراً لنا سعادتنا)".

قالها دستويفسكى وتلعثم صوته. حين نظرت آنا، كانت الدموع تنهلّ من عينيه الطافحتين!

تذكرت آنا عندئذٍ صلاة المسيح العفوية وهو على الصليب:

"ربّى اغفر لهم! إنهم لا يعلمون!"

ما قاله أبوها وهو يقرأ "الجريمة والعقاب" رجّع أيضاً أصداء بذاكرة آنا: فليس لكاتب آخر أن يَهدينا إلى الأدغال، الكهوف، الذُرى، الصدوع، شفا الكوارث، الفلوات، المستنقعات، القلاع الغامضة، المذابح، الشقوق، والبرارى فى منظور الإنسان، كما فعل دستويفسكى.

سألت آنا "قلتَ إنكَ تلقيتَ كثيراً من الجروح فى قلبكَ. هل تذكُر؟ أنكَ قمتَ بتوزيع هذه الجروح بالقسطاس بين شخوص أعمالكَ. فهل أنا على حقّ؟"

تطلّع دستويفسكى فى عينَيْ آنا بتعبير "هل تقفين داخل قلبي؟"، ثم سألها "وماذا غيره سأمنحهم؟"

أعلنت آنا بشيطانية:

"وتعلّمهم كره الحياة. أليس صحيحاً؟"

قال دستويفسكي، دون أن يزيح عينيه عن عينيها "كنتِ أذكى مما تخيّلتُ. لكنك تراجعتِ. فكلّ مأساة علّمتنى أن أحبّ الحياة أكثر".

أحنَت برأسها، كمن هى فى حضور روح سامية.

١١

اليوم التالى.

وصلت آنا مستعجلة، وقت أن تطوّر جدال مرير بين دستويفسكى وإميلى. كانت على وشك صعود السلالم، فهسهست فيدوسيا من باب المطبخ تلفت انتباهها، سألتها بالإشارة ألاّ تصعد عندئذٍ الدور العلويّ. وقفت مترددّة لحظة، تُجهد أذنيها لسماع الأصوات من فوق، ثم نزلت السلالم. وقفت فى ذعر قرب فيدوسيا، تسمع صوت إميلى واضحاً من الدور العلويّ.

حين تأكّدت أنه شىء خطأ، فى الحقيقة، تهدّل وجه آنا.

قالت فيدوسيا بنبرة هامدة:

"لا تقلقى. إنها زوجة أخيه، إميلى. وهى أيضاً مُعوزة. لكن ما الجدوى؟ ألا ترى الظرف هنا؟ لا تفكّر فى ذلك. إن لم تأخذ المال متى طلبته، ستخرج مع الهراء كلّه، عن الأخ الأكبر الذى أعان يوماً أخاه الأصغر...

على الرغم من أن فيدوسيا كانت على وشك أن تعبّر بالمزيد، بلعته. فقد نزلت إميلى على السلالم فى نوبة غضب. تحركت آنا بعيداً نحو المدخل قليلاً. ولدى وصولها أسفل، نظرت إميلى إلى فيدوسيا وآنا بإهمال، ثم خرجت. على خدّيها، جداول جافّة من الدمع.

قالت فيدوسيا "لا تصعدى الآن. سيكون فيدور مضطرباً للغاية. ولا يحبّ أن يرى أحداً بمثل هذه الظروف".

جلست آنا بالمطبخ، تقشّر البطاطس. الفقر واضح فى المطبخ أيضاً. فالأرفف والخزائن فارغة. لا شىء من ذلك يزعج فيدوسيا. فهى تعدّ شيئاً بما هو متاح. دستويفسكى غير معنيّ مطلقاً على وجه خاصّ بالطعام، عدا الشاى الأسود. ذلك ما يطلبه فى الميعاد. قويّ. سيأكل أيّ شيء. ولن يهتمّ حتى لو لم يكن هناك شيء. فقد أصبح الجوع نوعاً من المعاناة المحببة!

تغسل آنا البطاطس المقشّرة، ثم تضعها فى إناء ذى حافّة مكسورة. قالت آنا لفيدوسيا:

"دعينى أذهب لأراه".

حينما وصلت الباب، وقفت آنا لحظة. كان دستويفسكى مضطجعاً بالأريكة، ويده على جبينه. دخلت، بعدما أحدثت صوتاً بحنجرتها. فتح دستويفسكى عينيه، حين أحسّ بوجود آنا.

"لماذا تأخرت، يا آنا؟"

قالت "وصلتُ مبكراً".

"إذن؟"

"كنتُ جالسة مع فيدوسيا بالدور السفليّ".

جلس دستويفسكى ساكناً لحظة، كمن توصّل لمعرفة السرّ.

ثم قال، كأنه تذكّر حادثة مضحكة:

"أوه، إميلى كانت هنا. عموماً، كان جيداً أنكِ لم تأت حينئذٍ. لو وقفتِ أحياناً شاهدة بكماء على أشياء معينة، قد ينالكِ الأسى. فلماذا... ليس ضرورياً".

لم تلق آنا بالاً لذلك. مضت توّاً إلى الطاولة، تناولت القلم الرصاص والدفتر ثم جلست مستعدة لتدوين ما يُملَى عليها. دون أن تنظر إلى الجانب الذى يجلس فيه دستويفسكي، وضعت مرفقيها على رأس الطاولة، مسندة جبينها إلى قبضتها المضمومة، وجلست تنظر لأسفل.

فاصل من الصمت.

بعده، سألها دستويفسكي:

"أين وصلنا آخر مرة؟"

تتذكر آنا بوضوح تام:

"بداية الفصل الثالث عشر، فى مونولوج ألكسى ايفانوفتش. دوّن ملاحظاته وهو يتفحّصها. يفكّر: من يفهم ما كتبتُ ليس فى مصحّة عقلية؟"

قال دستويفسكى "كاف. أتذكّر كلّ شيء. سنلاحق ألكسي".

جالساً بعينيه مغمضتين لحظة، دخل دستويفسكى فى الرواية:

الآن أنا وحدى تماماً. الخريف موشكٌ، أوراق الشجر مصفرّة. أجلس فى هذه البلدة الحزينة الصغيرة (كم هى حزينة، المدن الألمانية الصغيرة!)، وبدلاً من أن أفكّر فى الخطوة التالية، أعيش تحت تأثير حواسٍّ كففتُ عن الإحساس بها، تأثير ذكريات لا تزال طازجة، تأثير دوامة الأحداث الأخيرة التى اكتسحتنى بتيارها، ثم جرفتنى جانباً من جديد. لا أزال أحسّ فى هذه الأوقات أنى ألفّ فى دوامة، كأن إعصاراً سيهبّ كاسحاً إياى ثانيةً بأيّ لحظة، يخطفنى ثانيةً بأذياله ثم يضرب عندى كلّ حسّ بالنظام والتناسب، ويرسلنى فى دوامة ألفّ وألفّ... (١١)

تواصلت القصة، ولدى نقطة معينة، بوصول باولين ألكسندروفنا، انزعج عقل آنا فجأة. حتى وقتئذٍ، كانت مجرد ناسخة للقصة دون انفعال. لكن حين وصل السرد قرب باولين، زادت سرعة دقات قلبها.

طيلة ذلك اليوم، كانت باولين تسير عبر الحديقة مع الأولاد ومربيتهم أو تمكث فى البيت. تتحاشى الجنرال من وقت طويل، ونادراً ما تتحدّث معه، على الأقلّ فى أيّ موضوع جادّ. لاحظتُ ذلك من فترة طويلة. لكن بمعرفة موقف الجنرال ذلك اليوم، ظننتُ أنه لن يفوّت لها، لن يُخفق فى الانخراط بمناقشات عائلية مهمة بينهما. على أيّ حال، حينما قابلتُ باولين والأولاد وكنتُ عائداً إلى الفندق بعد الكلام مع السيد آستلي، ظهر وجهها أكثر راحةً وهدوءاً، مع أنها قد نجت، وهى وحدها، من آثار العاصفة العائلية. فأومأت رداً على انحناءتى. فوصلتُ غرفتى وأنا فى مزاج سيء للغاية. (١٢)

ماذا سيحدث الآن؟

دقّ قلب آنا بوتيرة متسارعة.

إلى أين تتّجه القصة؟

ومن هذه باولين؟

ماذا سيحدث بين ألكسى ايفانوفتش وباولين؟

أشعل دستويفسكى سيجارةً، ثم واصل ما يُملي:

طبيعيّ أننى كنتُ أتفادى معها الحوار كلّه، ولم أكلّمها تقريباً منذ حادثة البارونة فورمرهلم. بعض هذا كان عجرفة وتكلّفاً من جانبي؛ لكن كلّما مرّ وقت، زاد سخطى بداخلى اشتعالاً وغضباً. حتى لو لم أكن أُلقى إليها بالاً على الإطلاق، فكّرتُ أنه لم يكن عليها أن تدوس على مشاعرى هكذا أو تتلقّى إعلانى إليهم بمثل هذا الاحتقار المخزى. عموماً، عرفت أنى أحبها بإخلاص؛ وانتوت السماح لى بالكلام معها بهذه الطريقة. صحيح أن

الموضوع كلّه بدا أشدّ غرابةً. فقد بدأت ألحظ أحياناً، وفعلاً، طيلة شهرين، أو قبلها، أنها ودّت لو تعتبرني صديقاً موثوقاً فيه، وحاولت حقاً وإلى حدّ ما فعل ذلك. لكن لسبب ما لا تمرّ الأشياء من تحتنا في الوقت المناسب؛ فتُركنا بدلاً من ذلك مع علاقتنا الغريبة الحالية؛ وهو السبب في أني بدأت أتحدّث إليها كما كنتُ. لكن لو كان حبي منفّراً، فلِمَ لمْ تمنعني صراحة من الحديث عنه؟ (١٣)

أصبحت آنا غاضبة.

إن لم تكن تريده، فلماذا يطاردها بحبه؟

كانت الكلمات تأتي من قاع القلب. ليست كسرد قصة. مع دفء تجربة طازجة، مشحونة بالانفعال... فمتى يصل إلى المقامرة أو الحبّ، يبدأ قلبه الجيشان:

لم أكن ممنوعاً؛ كانت تقودني للكلام أحياناً و... كان ذلك، طبعاً، مبعث سرورها. أعرف أنه صحيح. لاحظتُ بالتحديد أنها وجدته شيئاً مقبولاً، بعدما أنصتت إليّ من جُماع قلبها، لتُربكني فجأة بخدعة ما تُبدي بها أقصى ازدرائها وقلّة مراعاتها. وكانت تعرف طبعاً أني لا أستطيع الحياة من دونها. مرّت ثلاثة أيام الآن منذ حادثة البارون، ولم أعد أطيق بُعادنا أكثر. حين قابلتها قرب المحطة، شرع قلبي يخفق بكثافة حتى استحلتُ شاحباً. لكنها طبعاً لا تستطيع مواصلة الحياة أيضاً من دوني. فهي تحتاج إليّ، و - هل يكون هذا حقاً لأني بمثابة مهرج لها؟ (١٤)

صار قلب آنا كأنه في عُقدة مُحكَمة. لا يجب على المرء أن يُدنّي نفسه إلى هذا الحدّ. ولو كان باسم الحبّ، فهل هذه الطريقة؟ هل ستردّ واحداً من ألف مما يبديه نحوها؟ من تظنّ نفسها؟ أميرة؟ عذراء سماوية؟ ماذا لو سقط ألكسي ايفانوفتش على قدمَيها؟ لو انشغلت بأجد غيره، ألا يتركها

لمصيرها؟ هو الحبّ، فعلاً! هل هى الوحيدة فى هذا العالم التى يُعرَض عليها الحبّ؟ لماذا يعذّب المرء نفسه بالتفكير فيها؟ هناك الكثير ليعانيه بصورة مختلفة. علاوة على كلّ شىء آخر! ليس هذا هو الحبّ، بأيّ تعريف. هذا طِراد امرأة مشاكسة تكمُن فحسب لتُحبطه بتقلّباتها. لا يجب على المرء أن يسمّى هذا حباً. أهو الحبّ، بأيّ صفة؟ هل تلفظ كلمة واحدة عن الحبّ، بدلاً من أن تجعله شبيهاً بالأحمق؟ لماذا لا يفهم هذا ألكسي؟ فهى سعيدة مع أيّ أحد. هل هو ملائم للحبّ؟ لماذا لا يفكّر فى هذه النواحي؟ أيرهن احترامه لنفسه من أجل الحبّ؟ لأجل هذا يُهينه بانتظام ويهزأ منه، فيقول إنه سيقفز من قمة شلانجينبرج؟

فقدت آنا اتّزان عقلها بمثل هذه الأسئلة التى تطرحها على نفسها. ثمة طعم مرير يملأ فمها. قد تسمع صوت قلبها خافقاً.

جاء استسلام ألكسى ايفانوفتش الكليّ قرب هذا الوقت. وصل الأمر ذروته. ففى هذه اللحظة ألكسى يسأل باولين، كأنه لن يطرح سؤاله ثانية "هل تريدين حياتى أم لا. أخبريني...".

فكّرت آنا: ماذا يقصد حين يسألها "هل تريدين حياتي"، ألا يقصد "ألا تريدين حبي؟"، على المرء ألاّ يذلّ نفسه إلى هذا المستوى.

حينما رفع دستويفسكى بصره، كانت آنا تجلس ذاهلة. بشحوب تمثالٍ من المرمر مُصفَرٍّ على وجهها.

فسألها دستويفسكي:

"ماذا جرى لك، يا آنا؟"

كمن بدأت تفيق من هموده، حدّقت آنا فى دستويفسكى. ثم قالت:

"لا شيء".

نهض دستويفسكي، سائراً إلى جانبها ثم قال:

"لماذا، لديكِ بعض الاضطراب، يا آنا؟"

ردّت كأنها من النسيان:

"لماذا يطارد ألكسى مثل هذه، ليحبها؟ ليحبّ شخصاً يظل يسخر من حبه ويجرح قلبه؟"

ناظراً إليها لحظة باستغراق كامل، قال:

"حتى هذا النوع من الحبّ موجود. معاناة الجرح. معاناة الإهانة. ونحن نعرف تمام المعرفة أحياناً أن هذا الحبّ لن يُرَدَّ بمثله، أبداً".

لم تفهم آنا بسهولة. فهبّت قائلة "لا أحسّ أنى على ما يرام". وجهها كان شاحباً. ومع أن دستويفسكى فهم أنه بعض الشك المتعلّق بالحبّ الذى يهجم عليها، إلا أنه لم يفصح عنه. ولم يأخذه على محمل الجدّ. فالعقل الرقيق يصعُب عليه تخيّل تعقيدات الحبّ. بالنسبة لها، فالحبّ مثل وردة حمراء حمراء، أو مثل حلم يقظة زمن الربيع. أو قطرة دمع تنتظر أن تتقطّر بين الرموش.

"يبدو عندكِ مشكلة، يا آنا. سنتوقف إذن، ما رأيكِ؟"

"لا. ليس ثمة مشكلة. فأملِ عليّ أرجوكَ. سأدوّن".

مع أنها قالت ليس ثمة مشكلة، إلا أنه واضح أن هناك مشكلة. لكن كنهها غير جليّ. أسف، إنكار، أم غضب؟

مِن ماذا؟

تعطّل دفق أفكاره. كان قد وصل إلى سرعة مريحة واستغراق. وصارت المواقف فى متناول يديه. وطفق الآن كلّ شىء يتشتّت.

الآن، من أين يبدأ؟ كيف يبدأ؟

بينما كان جالساً يفكّر فى تلك الأسطر، جاءت فيدوسيا بالشاى الأسود. أحسّ دستويفسكى أنه يودّ أن يشكرها، فقد كان على وشك أن يطلبه.

وهى تخرج فى المساء لتعود إلى بيتها، خرج دستويفسكى أيضاً معها. فكّر فى السير معها مسافةً، تحت سماء لا نهائية.

وبينما يسيران هكذا، شعرت آنا بفكرة مزعجة ترقأ منها. أليس هو أحداً سيموت لأجل الحبّ؟ وعن ذلك الحبّ كان شكّها:

"أنتَ تتحدّث عن الحبّ العميق وذلك كلّه. أفلم يكن الحبّ حين ذهبتَ فى رحلتكَ الأوروبية ومارى على فراش موتها؟ تاركاً إياها وحدها تعود للبلاد؟"

هل انحنت لتشدّ أسرارى كلّها من شُعورها وتضعنى محكّ التجربة بسبب هذا؟

مزج دستويفسكى بالأمر بعض الفكاهة معرباً عن نوع من كره الذات، رداً على هذا السؤال.

"ماذا أفعل. فأنا شخص عنيف".

قالت آنا كأنها تستحضر فكرة ظلّت جاهزة:

"لا أظنّ. فأنتَ شخص بعنصرين من قدّيس وشيطان فى نفسكَ".

"ما هذا؟ مدح أم قدح؟"

"لا شيء. قلتُ فقط ما هلّ على بالى. أعرف شخصيتكَ منذ أيام فقط. لكن هذا ما توصّلتُ لمعرفته عنكَ خلال هذا الوقت القصير".

"أظنّ الآن أننا كنا معاً من وقت طويل. وقد ولجتِ إلى داخل عقلى وفحصته. وجذبتِ إليكِ أسرارى وذرائعي".

"لا. لا. لا شيء من هذا القبيل. فأنتَ الأعظم من بين كلّ من رأيتهم. وقد فكّرتُ أنى لا يجب أن أكتم أية شكوك عن مثل هذه الشخصية. ذلك فحسب".

"هيا. هل تبقّى هناك مزيد من الشكوك؟ فأفصحي، سنحلّ عقدتها هنا والآن".

"أنا هكذا. فشكوكى لا تنتهى. لكن هل يحبّ كلّ امرئ هذه العادة التى عندي؟"

"لا مشكلة. اطرحى السؤال".

كان شكّها جاهزاً على طرف لسانها:

"كيف تحمّلتَ موت ماري؟"

نفث دستويفسكى آهة عميقة، كمرء تذكّر هذه اللحظات:

"صلّيتُ لها. كانت حياتنا معاً مليئة بالحبّ والكره الذى تفهّمه الآخرون بصعوبة. ربما سمعتِ عن ذلك كلّه من أحد، يا آنا. ليس مقدّراً عليّ عقد صلات غرامية هادئة. فالخدوش التى جرّحت القلب قد تكون مصير أيّ حب، أكبر أو أقلّ. لم تكن تلك مجرد خدوش؛ كانت صدوعاً. لا أجد دوراً لى فيها بأيّ صورة ولو كان ضئيلاً".

اتّخذت الطريق دورة. تلفّ الآن حول حديقة. حينما وصلا الحديقة، لم يكن فيها أحد. خالية تماماً.

"هلاّ نجلس بهذه الحديقة بعض الوقت؟ أنتِ مستعجلة فى الرواح، يا آنا؟ لو كان لديكِ مزيدٌ من الشكوك فاطرحيها أيضاً".

وافقته.

سارا نحو شجرة تفرش ظلّها وراء النافورة. هناك تمثال قديم واقف بأحد أركان الحديقة. لا يعرف أحد لمن هو. كأن أحداً قدّه من صوّان.

حين جلس دستويفسكى يتطلّع فى التمثال، سألت آنا:

"إنى أسأل هذا من واقع ذكراى عن قراءة (الجريمة والعقاب). من أين استقيتَ راسكولنيكوف؟ هل ابتدعتَ هذه الشخصية من أحد معين فى بالكَ؟"

فسحب دستويفسكى تحديقه من التمثال القديم فى ركن الحديقة.

قال دستويفسكي "أنا ذلك الراسكولنيكوف لا أكثر ولا أقلّ. بحسّ ما، تلك الرواية تُقرأ نوعاً ما على أنها سيرة ذاتية".

"كيف ذلك؟ أليست قصة قاتل؟"

"هنالك قاتل داخلي أيضاً".

"لكن راسكولنيكوف يندم. أية معاناة عليه أن يقاسيها فيما بعد، يا إلهيّ!"

"تتذكرين، أليس كذلك؟ لم أتكلّم مع أحد من قبل عن رواياتي وشخوصي. لكن الآن... أو هناك شيء آخر أيضاً... لم يطرح عليّ أحد مثل هذه الأسئلة عن شخوصي. أما من صراع داخليّ يقاسيه راسكولنيكوف؟ ذاك أنا؛ وقد قاسيتُه. لو سألتِني لماذا، فسأخبركِ. عندي فكرة معهودة عن طهارة الذات".

"ماذا عنها؟"

"هي اسم لحلمي المتعلّق بالحبّ إلى حدّ كبير. لا أستطيع التفسير أكثر".

قرأت آنا "الجريمة والعقاب" من المجلّدات الملفوفة لمجلة "الرسول الروسيّ" التي كان يحتفظ بها والدها. وكانت تحسّ دائماً أنها عالم معتم يضمّ ميولاً إجرامية، إحساساً بالخطيئة، عجزاً، عاطفة، خيراً وشراً مشتبكاً. ألم يخرج ذلك كلّه من خياله؟ نظرت آنا إلى دستويفسكي بحسّ من الدهشة.

كمن يقرأ قلبها، قال دستويفسكي:

"إن عقل الإنسان أدغال. غابة كثيفة تجوب فيها حيوانات وحشية ضارية هادرة. ما أقاسيه هو تمزيق حيوان وحشيّ فيّ. في قصصي، هناك عويل ونشيج من هذه المعاناة. لا أعرف ما ستحسّينه حين تتفهّميه تماماً. فأنا روح ملعونة".

لا تظنّ آنا ذلك. فهو روح مباركة في عينيها. امرؤ نال توقيع الله على قلبه! تلك العقيدة لن تخسر، ولو قليلاً. ولن تنقضي أبداً.

سألته:

"دائماً؟"

قمع دستويفسكي الألم الخافق من روحه، نازعاً الأقنعة عن شخصيته:

"لا. هناك لعنات أكثر بكثير. الفقر. المرض. فصمُ عُرَى الحبّ. العزلة. المعاناة. العقل الذي يتوتّر دائماً. يمكننا الاعتبار بأن المصير والحياة يرتّبان ذلك كلّه. لكن ماذا عما فعلتُ بنفسي؟ المقامرة، أثقال الديون، سوء الطويّة، كُره الذات ـ لقد شدَدتُ نفسي إلى مصرف ثم انتُشلت نفسي منه. فليس لي الحقّ في الشكوى من حياتي".

"ألم تفعل هذه الأشياء بمحض إرادتكَ؟"

"نعم. لماذا قلتُ إني روح ملعونة؟ في الحقيقة، لقد أصبحت حياتي كلّها عبثية. أليس كذلك؟"

بدأ بمجرد كلام بسيط. ثم داخلَه بعضٌ من كره الذات. الآن، القلب شبيهٌ ببحر عاصف!

كانت آنا محيّرة لا تعرف ماذا تقول. فأنّى لها أن تواسي بحراً هائجاً مليئاً بالدوّامات والفوّهات والتيارات التحتية؟

"لم أقصد أبداً قول هذا لأحد. مع ذلك، أخبرتكِ الآن، يا آنا. من العقل المضطرب، مويجات من براعم حاسرةٍ. وأنا أقف عند منعطف حاسم في حياتي. هناك ثلاثة دروب أمامي: واحد، إلى القدس؛ الثاني، إلى نادي القمار؛ الثالث، إلى حياة زوجية. يبقى الدرب الثالث الآن مسدوداً. فماذا أفعل؟ أيّ درب عليّ أن أختار؟"

ارتجفت أمام السؤال. كان دستويفسكى يتلبّس تعبيراً كمن سينفجر بالبكاء.

تفكّر آنا. إنه لا يرانى متطفّلة، وإلا لما طرح عليّ مثل هذا السؤال؟ كأنه يقول "منبوذاً من جهة العالم أجمع، أقف أمامك".

امرؤ قادر على هداية العالم فى أمور الفضيلة والخطيئة يسأل فتاة بكماء، أيّ درب عليه أن يختار!

لم تفكّر عندئذٍ فى منطقه أو معناه.

سألته:

"ألا تستطيع التفكير فى درب يفتح ذلك الدرب المسدود؟"

تطلّع دستويفسكى فى عينَيْ آنا بتعبير عميق من قلبه.

لحظتها جاشَ قلبها كالبحر. كانت المرة الأولى التى تدرك فيها أن هناك بحراً فى قلبها.

١٢

فى الليل كانت لدى آنا فكرة واحدة فى بالها. ما قاله دستويفسكى أن هناك ثلاثة دروب أمامه. الدرب إلى القدس درب إلى الزهد. ترك حياته وراءه. الدرب الثانى نحو نادى القمار، درب إلى اللعنة. تدمير حياته. الدرب الثالث نحو حياة عائلية. يبقى مسدوداً. أليس ذلك بسبب هذا الموقف الذى يحسّ بأنه رجل كسير؟ منبوذ من قِبَل الجميع؟ غير مرغوب فيه؟

التغيّر الذى استبدّ بمرآهُ حينما سألَته أن يفكّر فى درب ما يفتح به الدرب الثالث! الطنين الصامت للقلب المهتاج كالبحر!

هذا التوانى كلّه فى قلبها تضخّم مئة ضعف.

تذكرت عندئذٍ أن قلبها أيضاً كان مهتاجاً كالبحر...

وقفت آنا جنب النافذة تتطلّع فى السماء المرئية من بعيد على الأفق.

من أية لحظة بدأ ذلك الجيشان؟

لا تذكُر.

وهل يذكُر البحر من أية قطرة ثار الموج للمرة الأولى؟

حين سألتها أمها اليوم التالى "هل قارب عملك نهايته؟"، بلّغتها آنا مُفصّلاً كلّ شيء. مع أن الأم سألتها عن تقدّم الرواية، إلا أن آنا تحدّثت عن الروائيّ. مع الحبّ والتوقير والعاطفة. عن تلك الحياة المحطّمة كلياً. شخصٌ لا يريدهُ أحد. شخص لا أحد لديه يحبه. لكن حبه عطشان للحبّ. قالت آنا ذلك كلّه بتوكيد من كلّ ناحية. واستمعت الأم لذلك كلّه، من دون تحيّز. القصص التى سمعتها مسبّقاً. لا تطوّر من أيّ نوع. لماذا لا يريد هذا الرجل أن يفرّ من الدمار؟ تفكّر الأم فى ذلك حسبَهُ.

حينما علم أحد أقاربهم أن آنا تذهب إلى منزل دستويفسكى لنسخ روايته، منعها فى حزم. "إنه خليع"، هذا ما أعطاه سبباً. كانت آنا فى البداية أيضاً قلقة ما إن كان هناك عنصر من الصدق فى ذلك. لكن لم تحدث حركة تدلّ على هذه الطبيعة مطلقاً، إلى اليوم، من جانبه. لم يتلفّظ حتى بكلمة بغيضة تُشير لهذا الإحساس. ليس ذلك فقط؛ بل شعرت أنه شخص يحاول دائماً التعرّف على شخصية الآخرين واحترامها. كانت نوعية من المراعاة أولاها إياها. الحبّ، العاطفة ـ لم تكن نادرة هناك. مع ذلك، فللناس رأى نقيض. بالنسبة لبعضهم، فاسم دستويفسكى يعنى الشيطان. هناك أشياء أخرى. يتحدّثون عن ناحيتين. إنه كاتب كبير وإلخ. لكن حذارِ، فشخصيته ليست تلك النظيفة أبداً.

هل وجدتُ أيّ تخبّط بشخصيته؟ فشلَت آنا فى تذكّر تجربة معه قد أفضت إلى هذا الاستنتاج. ينزعج بسهولة. ينفجر أحياناً. لا يكون الشخص نفسه بين لحظة وما يتلوها. كلّه صحيح. لكنه ليس سيئاً قطّ.

ثم علاقاته الغرامية. لا أحد يصادفه يحسّ بتصديق ذلك. كيف جذبت هيئته زوجة بانيف، مارى ديمتريفنا، ألكسندرا شوبرت، وأخريات؟

فكّرت آنا فى ذلك وابتسمت. هنالك شخص آخر داخل هذا المرئيّ من خارج. من المشكوك فيه إن كان هذا له اليد الطولى فى أيّ من تلك العلاقات.

أم هل له أيضاً قوة قدسية من خلال قلبه ينظر بها إلى ما يعرض له؟

xxx

حين وصلت آنا شقّته، كان دستويفسكى يكتب شيئاً. ليس الرواية؛ استطاعت أن ترى ذلك. كان يدوّن شيئاً فى دفتر. والكتاب المقدّس مفتوح قربه.

التعبير المتوتّر الذى كشف قلبه الليلة الماضية لم يكن على وجهه اليوم. وصف "الهدوء" غير كاف لوجهه الآن؛ فهو شبيه بوجه زاهد. لم يكن حتى ظلّ شىء دنيويّ على ذلك الوجه.

جلست جنب الطاولة الأخرى، بدفتر وقلم رصاص فى يدها، على هيئة "إنى مستعدّة". حين أنهى دستويفسكى ما يكتبه، نهض مغلقاً الكتاب.

لا تبدو الآن لديه فكرة عن إنهاء الرواية. فهو يتكلّم عن أشياء أخرى. فيدوسيا تكبو وتسقط فى الممرّ الذى كان يكتب عنه بمزاج عاطفيّ وقتئذٍ.

أظهرت آنا لدستويفسكى الصفحات كلّها التى أخذتها للبيت ونسختها بعناية طيلة الليل. قرأ بسرعة هذه الصفحات، ونحّاها على الفور جانباً.

"إننى أفكّر فى رواية أخرى الآن. أكثر قيمة ومهابة من هذه".

فسألته آنا:

"وماذا عن هذه التى بين أيدينا؟"

"دعيها راقدة فى مكان ما. سنُنهيها فى وقت لاحق".

"لماذا؟ ألا يجب إنهاء هذه قبل الشروع فى العمل على الرواية التالية؟"

"لا تعرفين، يا آنا، بعض عاداتى - عاداتى السيئة، أقول - ضمنها هذا. إننى هُكذا، أترك الأعمال نصف مكتوبة، ثم أنتقل إلى التالية. وستبقى نصف المكتوبة شذرات، لأعمل عليها وقتاً آخر...".

"هذه الرواية لا يمكن التعامل معها هكذا. فإن لم تنته منها فى الميعاد...".

"صفقتى مع ستيلوفسكي، هه؟ سأفعل شيئاً واحداً. سأُنهيها له قبل ١ نوفمبر، ما رأيكِ؟"

كانت آنا منزعجة. وحان وقت النكتة!

قالت "لو ظننتَ أنه أيسر أن تكتب رواية أخرى عن إنهاء الحالية فى ميعادها، فلا اعتراض لديّ. امض على خير، أرجوكَ".

"الأمر ليس كذلك! حين يغمر القلبَ كالطوفان شيءٌ أكبر من هذه...".

"وما ذاك؟"

"(الأبله). تغرينى بشكل فظيع. يقول قلبى إنها ستكون شيئاً عظيماً. أعرف أنه ليس يسيراً كتابتها. كنتُ أدوّن خطّة مبدئية لها. الفكرة من الكتاب المقدس".

"أهى شىء يتعلق بالدين؟"

"لا أستطيع قول شىء عنها حالياً. ستكون تجربة أدبية يمكن تقديمها من خلال مفارقات كالإلحاد بالله، الخَبَل غير المرئيّ للحصيف، جمالية الشرّ، الحرّ الشديد داخل البرد الشديد وما أشبه".

بينما كانت آنا تراقب وجهه، لاحظت أن واجهة اللامبالاة التى رأتها على وجهه قد اختفت. محلّها الآن تعبير متوهّج. عيناه وامضتان. لقد شعرت آنا أنه يبدو كالممسوس فعلاً بشيطان. فمتى زحف هذا التغيّر على وجهه؟

"هل تذكُرين إنجيل لوقا؟"، نظر دستويفسكى إلى آنا بتعبير ملتهب. "أخبريني، هل تذكُرينه؟"

تأخّرت آنا دقيقة أو اثنتين فى النطق بالردّ "نعم" أو "لا".

التقط دستويفسكى أثناءها الكتاب المقدس وفتحه. وسبقها فى قراءة القسم الذى ميّزه من قبل:

وساروا على كورة الجدريين التى هى مقابل الجليل. ولما خرج على الأرض استقبله رجل من المدينة كانت فيه شياطين منذ زمان طويل، وكان لا يلبس ثوباً، ولا يقيم فى بيت، بل فى القبور. فلما رأى يسوع صرخ وخَرّ له، وقال بصوت عظيم "ما لى ولكَ يا يسوع ابن الله العليّ؟ أطلب منكَ أن لا تعذبني!" لأنه أمر الروح النجس أن يخرج من الإنسان. لأنه منذ زمان كثير كان يخطفه، وقد ربط سلاسل وقيوداً محروساً، وكان يقطع الربط ويُساق من الشيطان إلى البرارى.

فسأله يسوع قائلاً: ما اسمكَ؟ فقال: لجئون. لأن شياطين كثيرة دخلت فيه. وطُلب إليه أن لا يأمرهم بالذهاب إلى الهاوية. وكان هناك قطيع خنازير كثيرة ترعى فى الجبل، فطلبوا إليه أن يأذن لهم بالدخول فيها، فأذن لهم. فخرجت الشياطين من الإنسان ودخلت فى الخنازير، فاندفع القطيع من على الجرف إلى البحيرة واختنق.

فلما رأى الرعاة ما كان هربوا وذهبوا وأخبروا فى المدينة وفى الضياع، فخرجوا ليروا ما جرى. وجاءوا إلى يسوع فوجدوا الإنسان الذى كانت الشياطين قد خرجت منه لابساً وعاقلاً، جالساً عند قدمَيْ يسوع، فخافوا. فأخبرهم أيضاً الذين رأوا كيف خلص المجنون. فطلب إليه كلّ جمهور كورة الجدريين أن يذهب عنهم، لأنه اعتراهم خوف عظيم. فدخل السفينة ورجع. (١٥)

لم تحاول آنا ولا تصوّرت كيف سيكون هذا القسم من الإنجيل أساس رواية. كان عقلها لا يزال فى "المقامر"، والتى اكتملت ثلاثة أرباعها. كما

هلّت فكرة أخرى على بالها. فلو كفّ عن "المقامر" عند هذه المرحلة، فلا مجال أمامها يحملها على العمل معه من بعد.

بينما بدأت أفكار آنا تتشتّت هكذا، بدأ دستويفسكى فى الحديث عن البنية الداخلية للرواية الجديدة. خطّته أن يربط القصة الإنجيلية بالتاريخ الروسيّ. تترك الأشباح أهالى روسيا وتدخل فى قطيع خنازير. إنهم الإرهابيون الذين ينظر دستويفسكى إليهم على أنهم خنازير. سيبرزها بشكل جميل بتضمين حقائق معاصرة من روسيا خلال الأناقة الخيالية لقصة الإنجيل! لديه بعض الناس بوضوح فى خياله. حين سمعته يتكلّم عنها، ظنتها رواية سياسية تلك التى فى باله. وتبنّت الشكّ.

قال دستويفسكى "أسأت فهم الموضوع كلّه بذكرى (الحقائق المعاصرة)، أليس كذلك؟ مع أنها موجودة أيضاً هناك. لكن، ليست بذات أهمية، فما يشدّنى أكثر بكثير من الأمور السياسية، المعضلات الأخلاقية. وأستخدم فقط الأمور السياسية المعاصرة لتوضيح المعضلات الأخلاقية. لقد طوّرتُ مفهوماً عن "فلسفة الإفلاس الأخلاقيّ". فمن خلال هذا المنظور أنظر إلى الحياة. وعبر هذه القصة سأقول شيئاً جاداً؛ للجنس البشريّ ولله!"

عندئذٍ سألته آنا "معنى هذا أنه لا يوجد هذا النوع بقصة (المقامر)؟ وإن لم يكن، فلماذا شرعت فى كتابة رواية كهذه؟"

قال دستويفسكى "فيها. الفكرة بسيطة. هل تظنين بقولى (بسيطة)، أنه لا توجد جدّية فيها".

قالت آنا "أنّى لى أن أعرف دون أن تخبرني؟ حين أنظر إليها، فهى مجرد قصة".

ثم طرح عليها دستويفسكى سؤالاً بمنتهى الجدية "ما الحياة؟"

فحدّقت آنا أماماً كمن ينظر إلى فراغ.

ثم سبقها دستويفسكى لاستحضار منظور مختلف عن الحياة:

"الحياة مقامرة. يربح البعض. يخسر البعض. انظري، أليس ذلك ما يحدث بحياة أيّ امرئ؟ وهو يجتاز مساحة عمر بأكمله، يجلس الإنسان بشرفة الخان الأخير ذات مساء ويتصفّح السجلاّت التى جمّعها فى حياته. هل كانت حياته أكثر ربحية أم أشدّ خسارة؟ لعبة حظّ وسوء حظّ. حين يتطلّع المرء فى الحياة على ضوء من هذا، أليست الحياة بأكملها مقامرة كبيرة؟ فيها جنون. فيها نشوة. صلابة، رغبة فى الثأر، حبّ، عاطفة، خداع، فخاخ، أوهام، يأس، عداء، غطرسة، بؤس، تدمير، موت، وماذا غيره؟ ما فى الحياة بأكملها مقامرة أيضاً. أليس كذلك؟ فى الحياة، كما فى المقامرة، نحسب. نضع المال ونُدير العجلة. من يدرى بأيّ قطعة تأتى الإبرة لترتاح؟ أهو نحن الذين نقرّر؟"

"لم أفكّر فى هذا كلّه"، واتّسعت عيناها دهشةً "فى رأيى المقامرة لعبة ملعونة".

قال دستويفسكى "نعم. سيكون قطعاً ما نضطلع به. لو رأيتها لعبة مجنونة، فلتكن هكذا. من يقول لا؟ لو فكّرتِ فيها، أليست الحياة هكذا بالضبط؟ لعبة مجنونة. لعبة كوميدية".

لم تستطع الانخراط فى أعماق الحياة بمثل هذا المنظور. بالنسبة إليها، فلا تزال الحياة شيئاً ذا معنىً؛ تحوّم بها فوق رغباتها وعقائدها. وما أحسّت بالأسى من أجله كان حينما بدت الحياة مجرد لعبة مازحة. مع ذلك، بينما كان الشخص الذى يعرضها قادراً على رؤية الجوانب المختلفة والظلال والمعانى الداخلية للحياة، فهى تواجه تلك الفلسفة بحسّ من الدهشة.

"حين يحكى كاتب قصة، فهو يتحدّث عن الحياة"، برزت الكلمات مباشرة من قلب دستويفسكى. "إنه يتحدّث عن النشوة، الفرحة، الحظوظ وسوء الحظوظ، الأحزان والموت. حينما يتحدّث الكاتب عن المقامرة أيضاً، يصبح ناطقاً باسم الحياة".

عندها نظرت آنا إلى "المقامر" بحسّ من التقدير الذى لم تحسّ به حتى اللحظة.

وبأثر من إلهام الإعجاب المستجدّ، قالت:

"هذا طلبى العتيد. فلننه هذه الرواية بشوط واحد. لا حاجة للتفكير أن ذلك بسبب من خشيتكَ ستيلوفسكى. أعرف على الأقلّ أن الأمر ليس كذلك".

قال دستويفسكى "ستيلوفسكى وعَقْده!"، ليس بين الأشياء التى تقلقنى. إنه عقلى الذى يسبّب لى الذعر. وإن كان الخوف من الفقر والديون ما يضطرنى للكتابة، لكتبتُ روايةً كلّ يوم. إننى لم أكتب كلمة إن لم أحسّ أننى بغير الكتابة سأنفجر كتمثال معدنيّ أو سأُجنّ. فمن يعى هذا، لكن؟ كم يُفضَّلُ أن أنتحر عن أن أكتب روايات خشية الدائنين. لكن هل بمقدورى أن أحكى هذا للعالم أجمع؟"

قالت آنا "دع العالم يفكّر فيما سيكون. آمن فقط أن هناك على الأقلّ أحداً لا يظنّ ذلك؛ إنه أنا، أنا التى لا أُعتَبر أحداً فى العالم. لا أعرف ما إن كنتَ تحبّ قولى هذا أم لا، لكن عندى رغبة واحدة: أرى هذه الرواية مكتملة. وإن لم يحدث لأيّ سبب، فسأتذكّر حتى يوم أموت، أننى أول من سمع هذه القصة".

جلس دستويفسكى ناظراً إلى آنا كتمثال من الطين، دون أن يطرف له جفن.

ثم تشكّكت آنا. ماذا يختمر فى دماغه؟ ماذا هناك على وشك أن ينفجر؟ أم أنه الصرَع سيوشك أن يندلع من جديد؟

ثم استأنف، مغمضاً عينيه لحظة، إملاء قصة المقامر. شيء يتسامى بروحه إلى قمة شامخة. أو إنه يقف فوق ذروة الروح.

في ذلك اليوم شرعا في الكتابة على تواصل حتى الظهيرة. كان دفقاً فائقاً للعادة. عند مرحلة منه، رقد دستويفسكي على ظهره فوق الأريكة، مُجهَداً. فكّرَت "دعيه يأخذ بعض الراحة راقداً هكذا"، فنحّت الدفتر ونزلت السلالم على أطراف أصابعها، لتفادى إحداث أية جلبة.

بعد نصف ساعة، نزل دستويفسكي راكضاً على السلالم بذعر كامل، واندفع إلى باب المطبخ. حين رأى فيدوسيا تعمل الشاي، وقف متحجّراً على الباب:

"ظننتكِ رحلتِ، يا آنا".

فالتقطت فنجان الشاي، ومضت به إلى دستويفسكي:

"هل سأخرج هكذا، دون أن أبلغكَ؟ فكّرتُ أنكَ سترتاح فترة".

وهو يأخذ الفنجان من يد آنا ويشرب الشاي واقفاً هناك، قال دستويفسكي "هناك اضطراب فظيع في بالي. سيرتاح فقط بنهاية الرواية. حتى وقتئذٍ سيكون شبيهاً بالوقوف على طرف شوكة".

بعد شرب الشاي، صعد دستويفسكي السلالم ولدى وصوله منتصفها، عرّج هناك ثم استدار:

"آنا، تعالي فوق".

شربت آنا شايها على عجلٍ، وصعدت للدور العلويّ. كان دستويفسكي واقفاً يتطلّع من النافذة. فكّرت آنا أنه على وشك أن يُملي، فتناولت القلم الرصاص والدفتر واستعدّت.

ثم قال دستويفسكي وظهره إلى النافذة "هذا ليس مما يُدوّن. اسمعي الحكاية. بعناية. سأطلب رأيكِ حين ينتهي السرد".

فأبدت حماسة أكثر مما كانت تحسّ به فعلياً، صمّمت أن تجعله يحسّ أنه مبتهج.

حتى دون جهد إضافيّ من جانبها، كان دستويفسكى فعلاً فى بهجة عارمة. لم يكن لأيّ شىء صريح، بل لشيء غامض جداً.

قال دستويفسكى "هل تعرفين لماذا ناديتكِ، يا آنا؟ لكى أخبركِ عن حلم حلمتُ به أمس".

كانت آنا مندهشة "حلم؟"

"نعم. حلم. لماذا تستغربين سماع ذلك؟"

"لا. أبداً. عن ماذا كان الحلم؟"

"انظرى إلى هذه الخزانة المصنوعة من خشب الورد. لقد أهدانيها شوكان فاليخانوف (١٧)، وهو صديق فى سيبيريا، علامةً على حبه لى. داخل هذه الخزانة أحتفظ برسائلى وأوراقى الخاصة. الليلة السالفة، فى حلمي، وأنا أنقّب فى هذه الخزانة عن بضع أوراق، وجدتُ شيئاً يلمع وسط الرسائل. مثل نجمة. المضحك أنه وأنا أفتّش بين الأوراق، ظلّت تلك النجمة تظهر وتختفى. حين انتهت الأوراق جميعاً، وقعت النجمة بين يديّ. كانت ماسة متلألئة".

"وماذا فعلتَ بها؟"

ذلك الجزء الأشدّ حزناً. فلا أتذكّر. على أيّ حال، كان حلماً جميلاً".

"ما سمعته أن الحقيقة قد تكون بالضبط عكس الحلم. لو صحّ ذلك يا فيدور، فيبدو أنكَ ستخسر شيئاً. يا إلهي، ما هو، يا فيدور؟"

اصفرّ فجأة وجه دستويفسكى. حين لاحظت، فكّرت آنا مع نفسها أنه لم يكن عليها قول شىء كهذا. "بمَ أُخبره الآن لأمنحه بهجة"، فكّرت بمشقّة. ولحسن الحظّ تعلّقت بقشّة.

---

(١٧) Chokan Valikhanov: مؤرخ علمىّ، رحّالة، جغرافىّ، اقتصادىّ، وضابط روسىّ. (م)

"لا أعرف كيف أؤوّل حلماً وإلخ. ولا أومن بذلك أيضاً. فقط خذ الأمر على أنى تكلّمتُ هكذا عَرَضاً. بالنسبة لكاتب، فالحلم تجربة كبيرة. ضربة حظّ أحياناً؛ أو ظَفَر ساحق. لكنى أحسّ أنكَ لو ربطتَ روايتكَ الجديدة بذكرى ذلك الحلم ستصبح فتحاً كبيراً فى حياتكَ، يا فيدور".

عندئذٍ قال دستويفسكي:

"هناك رواية أخرى جديدة تتشكّل فى دماغي".

قالت آنا، تعبّر مئة مرة زيادة عن فرحتها بما أحسّت به فعلياً:

"صحيح؟ لِمَ لم تخبرنى حتى الآن؟"

"تلك القصة التى ألمحتُ إليها فى بداية حوارنا هذا. لكن نهايتها غامضة. وعليّ أن أجد نهاية لأيّ قصة. أفكّر فيها كيف تنتهى...".

"بلّغنى الآن ما حكايتها؟ أهى أيضاً عن حلم؟ أقصد، ما محورها؟"

"آه، نعم. قصة حلم. فيها هذا المستوى. مع ذلك، فهى أساساً عن نفسية فتاة. لو حكيتُ لكِ القصة، فهل يمكنكِ اقتراح نهاية لها يا آنا؟"

"أنا؟ يا إلهي! كيف يتسنّى لى أن أجد نهاية؟ ليس هذا لغزاً، هه؟"

"لو سألتنى هذا، نعم. افترضيها بصورة أخرى، فأيّ قصة هى لغز".

نظر دستويفسكى إليها منقّباً كأنه يسألها ما إن كانت تؤمن بشيء آخر. ثم مضى سارداً القصة بتلذّذ نادر.

"الشخصية الرئيسة فنان. ليس شاباً. رجل عجوز. فيما يقارب عمرى. يده، يده اليُسرى، مشلولة. نتيجة ذلك، فهو محبطٌ قَلِق. وكان فى منتهى الوداعة لدرجة أنه يعجزه التعبير عن رغبات قلبه. ويفشل فى محاولته رسم حلمٍ حلُم به. يعانى حزناً من جرّاء ذلك. فهو روح بسيطة".

سألت آنا:

"لماذا تضع هذا الساذَج بطلاً للقصة؟ ما دمتَ تقول إنه فنان، أليس الأفضل لو كان رجلاً شاباً؟ حين أقول الأفضل، أقصد الطبيعيّ".

سأل دستويفسكى "ألا يعجبكِ بطلي، يا آنا؟ سواء أحببته أم لا، فهو متقدّم فى العمر نوعاً. هذا شىء فى حكم المنتهى. هل يعنى ذلك أنه لا يمكن أن يكون الشخصية المحورية لقصة؟ آمل ألاّ يكون".

قالت آنا:

"لا. لا شىء من هذا القبيل. فهو يعشق فنه. وهذا يكفي".

"عموماً، هو يحبّ فتاة. وحين أقول (فتاة)، فهى تقارب عمركِ، يا آنا. فلنسمها آنيا. جميلة للغاية. حادّة الذكاء. تستشرف التفاؤل فى الحياة. عملية جداً. واحدة لها عين ترى بها قلوب الآخرين. يلتقيها الفنان خلال معرض. تعجبه تقريباً إلى حدّ كبير. يشعر نحوها بحبّ غامر. يرى فيها مستقبل حياته وثمرتها. اعتبريها حلمه. عموماً، ألا يصبح مثل هذا الحلم مثمراً بصورة طبيعية؟ فهل تبادل ذلك الفنان حبه؟ لو أحبت تلك الفتاة الفنان العجوز، أفلن يصبح هذا تضحية سخيفة بالذات من جانبها؟ فلو ربطت حياتها بحياة ذلك العجوز، ألن تندم فيما بعد؟ أو دعى هذا كلّه. هل تحبّ مثل هذه الفتاة الجميلة شخصاً عجوزاً ضربه الفقر؟ ألن يكون هذا نقيض الاحتمال، أقصد نفسياً؟ أريد رداً على ذلك".

قالت آنا "من يقول إن الفتاة الجميلة لا يمكن أن تحسّ بالحبّ تجاه فنان عجوز ضربه الفقر؟ ما المبدأ النفسيّ وراء ذلك؟ فما أشعر به مناقض بالضبط. لا يوجد ما هو غير طبيعى أن تحبّ الفتاة ذلك الفنان العجوز. وماذا فى الفنان لو كان عجوزاً ضربه الفقر؟ المهمّ أنه فنان. هل يحبّ المرء امرأً آخر بحثاً عن جمال أو غنىً؟ لا شىء من هذا يتعلّق بالحبّ. فالحبّ يبحث عن الحبّ. لا عن جمال أو غنىً أو منصب. هذا معتقدي".

"هل تعتقدين فعلاً، يا آنا، أنها قادرة على حبّ ذلك الفنان العجوز بإخلاص طيلة حياتها؟"

"طبعاً؛ لماذا لا تصدّق ذلك؟"

بدأ صوت دستويفسكى يختنق فجأةً.

"إذن، ضعى نفسكِ محلّ الفتاة، يا آنا، لحظة. وتخيلينى محلّ الفنان العجوز. كنتُ أتكلّم معكِ عن حبى يا آنا. فما ردّكِ؟ آنا، هل يمكن أن تحبيني؟"

دون تردّد ولو لجزء من الثانية، قالت:

"أحبكَ. سأحبكَ طيلة الباقى من حياتي".

وكأنه فى حلم، وقف دستويفسكى ناظراً إلى آنا بغير نطق. فى تلك اللحظة، بفيض غامر ومجنون من العاطفة، فقد تأثيره على قلبه.

١٣

كان حباً مثل نهر قد انجرف من انفجار سدّ. انغمرت فيه آنا بتهوّر. فى دفقه، دوّاماته، ينابيعه، أعماقه. وذلك الحبّ أذهلها. كان وحشياً عنيفاً. كان كلياً عميقاً. تعجّبت آنا مما يحدث لحياتها. ذلك أيضاً ما لم تكن تعيه. فجأةً. كان مثل لحظة محكومة بالقدر. نور عجيب افترش قلبها.

حتى أنها عنّفت قلبها. لا. لا يجب أن تنغمس فجأة. كانت تعانى أيضاً من خوف مجهول. من أين بدأ؟

الرجل غير قادر على رؤية مستقبله. غير قادر على قراءة المُقدَّر له. فحين تأخذ الحياة منحىً جديداً، يهتاج العقل، تركبه الوساوس.

لكن ذلك الحبّ يدقّ ضدّ القلب. باندفاع مياه راسبة. أين بدأ ذلك الحبّ؟ تحاول أن تفكر، فلا تجد بدايةً له. فقد حدث فجأة كالطوفان. فى صمت. انجذاب ما بين روحين. مزيج بينهما. مثيل حلم، حين تفكر فيه. حقيقته غير

معلومة بعد! فى الحقيقة، إن تجربته كالطرف الآخر من الحقيقة. فما الطرف الآخر من الحقيقة؟ الوهم؟ الحلم؟ ليس أياً منهما. فهو حقيقة كثيفة تقع ما وراء الحقائق كلّها.

ليس هذا حلماً.

أخبرت آنا أمها عن حبها. فلم تُبد أمها اعتراضاً. ليس أنها لم ترفض؛ بل قالت أيضاً "إن كانت هذه رغبتك، فأنا سعيدة بها".

لكن أختها الصغرى لم تعجبها الفكرة. لم تعد هناك نقائص لم تسجّلها أو تعزوها إلى دستويفسكى. كلّها مما تسمعه عادةً ضدّه: مصروع، معوز، تركبه الديون، فاسق، مجنون، وعجوز.

حين يصل الأمر إلى "عجوز"، تعارض آنا:

"من قال إنه عجوز؟ ليس عجوزاً فى نظرى. علاوة على أنى بعدما بدأت الذهاب هناك، يبدو أنه راح أصغر".

فتسخر منها أختها عندئذٍ:

"إذن سيواصل الصغر وفى النهاية يستحيل إلى مولود جديد. وعليكِ أن تضعيه فى مهد، وتغنى له هدهدةً لينام".

وكانت تقول تقريباً "سأفعل ما أهوى"، ثم تُهَدأ قليلاً. تحسّ أنه وفقاً للموضوع، فلا يجب عليها أن تتشاجر مع أختها الصغرى.

أخوها الأصغر الذى كان يدرس بكلية الزراعة لم يعترض ولم يؤيد. كان يصمت فى هذا الصدد، كمن يقول "على هواكِ".

فهو مغرم بدستويفسكى. يقرأ رواياته. ويستمتع بها. مرة، بعد قراءة "المِثل"، تحدّث عنها بشكل رائع. قال ليس للمرء أن ينسى شخصية جولياديكين بالرواية.

لم تنم آنا طيلة ليلتها.

الصباح التالي، بينما تهلّ أشعة الشمس الناعمة، وضعت أزهاراً على قبر أبيها بمقبرة بولشي أكتينسكويا وركعت أمامه، تصلي:

"إنى أحبّ دستويفسكى. هو رجل محطّم تماماً! مَن يسمى نفسه "روح وانشطرت اثنتين". مَن سقط فى حفرة وَسَخ، غير مرغوب فيه، وغير محبوب. ومع أنى أعرف هذا كلّه، إلا أنى أحبه. لم أتعمّد حبه. حدث هذا من إرادة الله. أعرف أن الرجل عفيف، روح طاهرة. أذكر ما قلتَه لى مرة عنه "رجل نال توقيع الله على قلبه". يعرف الله فحسب ما سيحصل لى. وأياً كان، فلن آسَف عليه. بعدما نسلّم بكلّ شىء إلى الله، أفوّض نفسى لأمر هذا الحبّ. إننا نؤمن بأن الله يراقب دائماً حياتنا معاً. ولا أعرف ما إن كان الذى سأفعله خطأً. ما أومن به أن الله وحّدنا. وإن لم يكن، فكيف حدث على هذه الصورة. فباركني، يا أبي".

لمزيد من الوقت ركعت آنا أمام قبر والدها، مغمضة العينين. امتزج صمت صلواتها بصمت "الأزهار ذات القلب المقدس" وأماليد الشجر. هى لحظة قدسية.

ثم عملت شارة الصليب. قبّلت قبر والدها. ونهضت برقة لكيلا تزعج أو تنبّه أولئك الراقدين فى سكينة الموت داخل المدفن، وسارت تخرج برويّة.

وهى تخرج، رأت دستويفسكى واقفاً عند بوابات المقبرة الداخلية. رأت وقتها صفاءً لا يوصف على وجهه. علامة ابتعثت ذكريات روحانية سامية.

وقفا ينظر كلٌ منهما إلى الآخر لحظة. ثم سارا معاً صامتين.

وهما يسيران، سألها دستويفسكى "هل تعتقدين أنكِ قمتِ بعمل خطأ؟ أقصد بشأن حبي".

"(حبي؟) لماذا تقول ذلك؟ إنه كمن يعترف: حبى فى البداية، أليس كذلك؟ أنا لا أحسّ على أية حال أنى قمت بعمل خطأ. هل تظنّ أنى جئتُ مقبرة

أبى أنشُد مغفرة على جُرم ارتكبته؟ لا؛ الأمر بعيد عن ذلك. جئتُ هناك أنشُد بركته".

قال دستويفسكي:

"لا أعرف ما قد يقوله الآخرون. يُشاع أنى شخص فاسق. الآن، بهذه...".

قالت: "ماذا تقصد بـ (الآن، بهذه...؟)، دعنى أسألكَ عن شيء. لماذا تقف أمام العالم كالمُدان؟"

"لا أعرف أيّ جُرم ارتكبته. مع ذلك فأنا المُلام. لا شكّ فى ذلك. ليس فقط بحالة هذا الحبّ. فهم ينظرون إلى حياتى بأكملها على أنها جُرم كبير".

"لماذا تفكّر فى مثل هذه الأشياء وتزعج نفسكَ؟"

"عندى عزاءٌ وحيد. لو كانت حياتى جُرماً فى نظر الآخرين، فالله وأنا معاً ما ارتكباه. هى شراكة، النصف بالنصف!"

"وماذا قال الله بشأن ذلك؟"

"ما يثير الإحباط فى هذا أن الله لا يقول شيئاً. وأنا الذى يرشقه العالم بالحجارة".

"ثق الآن أن هنالك أحداً آخر سيواجه رشق تلك الحجارة".

"وضعتُ نفسى محكّ المحاكمة بوقوفى عند بوابة المقبرة، وأنتِ تصلين يا آنا".

"المحاكمة؟"

"نعم. إنها عادتى أن أضع نفسى محكّ المحاكمة بين الحين والآخر".

"وما الجُرم الذى ارتكبته لمواجهة هذه المحاكمة؟"

"حبّ فتاة تقلّ عن نصف عمري".

"وإلامَ انتهت المحاكمة؟"

"لم تنته بعد. لا تزال منعقدة مع جدال وجدال مواجه".

"وما الجدال المواجه؟"

"الذى يبدأ من سؤال. لا تقلقي، فهو سؤال فى غاية البساطة. لماذا يحبّ المرء؟ ما الضير إن لم يحبّ المرء؟ ألا يعيش الإنسان دون أن يحبّ أحداً أو شيئاً؟"

"أسئلة عصية جداً، فى الواقع! وماذا كانت الإجابة؟"

"أن نغطّى وجه الوحدة الروحية التى يحبها المرء".

"وحدة روحية، صحيح؟"

"نعم، وحدة روحية. الحزن المتولّد. فالمرء يحبّ، ليتحمّل ألم الحبّ. وليتحمّل هذا الألم، يفعل الإنسان كلّ شىء فى الحياة. ليس كافياً أن نقول (يفعل الإنسان). فكلّ كائن حيّ يفعل. أو مهما صار هناك فى الكون بأجمعه. فى البدايةَ، قبل التكوين، عانى الله أيضاً من هذه الوحدة البدئية".

"ألم تقل إنكَ تلقَى الله أحياناً؟ فاسأله عن هذا حين تلقاه ثانيةً".

"لا حاجة بى للسؤال. فى البدء خلق الله السماوات والأرض. وكانت الأرض خربة وخالية. وعلى وجه الغَمْر ظلمة. ألا نقرأ هذا فى سفر التكوين؟ ما قلته هو عن تلك الحالة التى سبقت هذا. لماذا خلق الله السماوات والأرض والمياه والنور والبشر وكلّ كائن حيّ؟ لأنه ضجر وشقّت عليه وحدته الروحية!"

"حين يضجر المرء من وحدته الروحية، يستهلّ الخلق والحبّ، صحيح؟"

"نعم. فى هذه الحالة، فالحبّ والخلق ليسا صِنوين. هناك حبّ وراء الخلق. مثل الإلهام. أو كالعلّة الأولى".

"وماذا عن الوحدة، إذن؟"

"كان هذا من زمان أبعد. فماذا أيضاً تشكّل أولاً أثناء ذلك الفراغ البدئيّ الذى غطّى كلّ شيء من البداية الأولى".

فى ذلك الوقت، وصلا أمام دَير سمولنى. دخلته آنا وصلت. وانتظر دستويفسكى خارجاً تحت شجرة ظليلة. دعته آنا أن يمضى معها ليصلّى قرب المذبح. فتهرّب دستويفسكى قائلاً "حين أُصلّي، يجب أن أكون وحدى. لن يأتينى تركيز فى أية صلاة جماعية. علاوة على أنه ليس من عادتى الذهاب إلى الكنيسة للصلاة. الصلاة داخل قلبى. ولا يجب أن يكون هناك أحد وأنا بالكنيسة. ولا حتى الكاهن. حضور الآخر بينى والله عقبة".

عائدة بعد صلاتها، سألته آنا "لِمَ لمْ تأت للصلاة؟"

فقال دستويفسكي:

"لا شيء. ليست قاعدة عندى الذهاب إلى الكنيسة أو الصلاة بانتظام".

"لكنكَ قلتَ إنكَ من يومين ذهبتَ إلى كنيسة الأم العذراء؟"

"شعرتُ يومها أنى أحبّ فعل ذلك. فيها نحت بديع. كانت أمنيتى الغالية من زمان أن أراه مرة".

"أم لأنكَ لا تؤمن بالصلاة؟"

"أحسّ أحياناً بحبّ الصلاة. وأحسّ أحياناً أخرى لا معنىً فيها مطلقاً. المهم ما فى قلب المرء. فما النفع الذى سيجنيه أولئك الذين ينصبون الشيطان فى قلوبهم بذهابهم إلى الكنيسة أيام الآحاد؟ ما لأولئك الناس بالصلاة؟ هل لأن الله لن يتبيّن هذا الزيف؟ وعلى رغم قولى هذا كلّه، فإنى أحبّ الصلاة كفكرة".

سارا وهما يتكلّمان هكذا، فبلغا مَنْسكاً.

قالت آنا:

"عليّ بالذهاب إلى المَنسَك".

كمن يقصد "ألم تصلّى كفاية؟"، قال دستويفسكي:

"ماذا فيه؟"

"لأرى الأب فيليب سبيرنسكى. هو كاهننا. بالنسبة لي، ليس مجرد كاهن".

"ماذا إذن؟"

"قريب، ناصح، فاعل خير. ألا يجب أن يكون مثله لكلّ امرئ؟"

"من الخير أن يكون لدى المرء مثله. أعرف هذا عنه".

"تعال. لنذهب كلانا فنراه معاً. ما رأيكَ؟"

"لا. ليس ضرورياً. امضى لوحدكِ. هذا أفضل".

"لماذا؟"

"لا تجادلى. اذهبي، قابليه وعودى. سأنتظر هنا".

شعرت آنا أنه لا جدوى من الإصرار. فذهبت إلى المَنسَك وحدها.

يبدو المَنسَك قديماً جداً. له مهابة معينة. ليست تلك التى تجذب العقل أولاً. بل السكينة. مكان صامت كلياً. حين يمرّ النسيم من بين الأشجار قرب جدار السكَن، يُسمع شيءٌ كترنيم صلاة من الصمت الذى يقبع فاتراً هناك. وقف دستويفسكى خارج المَنسَك، يتطلّع فى جمالية السماء المرئية بين أماليد الشجر.

داخل المَنسَك، كان الأب فيليب سبيرنسكى يقرأ شيئاً فى غرفته. حين رأى آنا، أغلق الكتاب وسار نحوها. سألها "لماذا أتيتِ اليوم، فى هذه الساعة؟"، فى خجل ووعى بالذات، بلّغت أباها الروحيّ عن حبها. فأنصت إليها بصبر وهدوء. كانت قلقة مما قد يظن حين تُبلغه إنه دستويفسكى التى هى فى حالة حبّ معه. ليس بسبب الفرق الشاسع فى العمر فحسب. أليس ثمّة إشارات لنواحٍ أخرى أيضاً؟ ألا يعى الأب ذلك كلّه؟

حين وقفت هناك متشكّكة تُخفى ما فيها من توتّر، كان ما قاله الأب هو "ليمنحكِ الله بركته!"

حين قالت إن دستويفسكى ينتظر خارجاً، خرج الأب معها أيضاً.

كان دستويفسكى واقفاً هناك، يتطلّع فى فُسحة السماء غير المتناهية.

ولدى رؤيته الأب، أحنى دستويفسكى رأسه:

"سمعتُ عنكَ الكثير". دنا الأب فيليب سبيرنسكى مقترباً واضعاً يده على كتف دستويفسكي، قائلاً "يسعدنى أن أراكَ. بلّغتنى آنا كلّ شيء. أنا فى غاية السرور. ليمنحكما الله بركته".

نظر دستويفسكى إلى الأب دون أن تطرف عينه. يبدو، أقلّه، فى التسعين. وجه ورديّ، عينان مفعمتان بالحبّ والحدب. ذقن بيضاء كالثلج. صوت رقيق. يشبه يَهْوَه.

لوّحا بالوداع إلى الأب فيليب سبيرنسكي، وواصلا سيرهما. وبعدما سارا مسافة معقولة، صارت آنا تعى أنهما يسيران معاً دون أن يتكلّما فى شيء. كانت على جناحَيْ أفكار مختلفة. ودستويفسكي؟ حين رفعت بصرها إليه، رأت أنه ليس بأيّ مكان فى العالم. تنظر إلى وجهه المغلّف بالصمت، وتعرف أن عقله بمكان آخر.

قالت آنا:

"فيم تفكّر، يا دستويفسكي؟"

تسحّب دستويفسكى بخياله من ذكريات أو أفكار، ناظراً إليها:

"لستِ فى حاجة لتبلغى أحداً عن حبنا الآن".

فأبى عقلها:

"لماذا؟"

"علينا أن نفكّر فى هذا من جديد".

"نفكّر فى هذا من جديد؟"

"نعم. بعد مزيد من التفكير العميق عن الحقائق المتعلقة بكلّ منا".

"لِمَ المزيد من التفكير الآن؟ ماذا تقول، يا فيدور؟"

"ما أخشاه هو ما إن كنتِ ستأسفين على هذا فيما بعد، يا آنا".

"لماذا؟"

"لماذا ـ حين ترتبط أحلام فتاة عن الحياة بحياة واحد مثلى...".

"حين ترتبط أحلامى بأحلامكَ...؟"

"هناك تعارض ما. ظروفى البائسة، ماضيّ الكابوسيّ، مستقبلى غير المضمون، عمرى ـ فقط تخيّلي، فارق ستة وعشرين عاماً! ماذا سيظنّ الآخرون؟"

"مهما ظنّ الآخرون، فماذا يعنيكَ؟ ألا يوافق هذا رغبتي؟ أليس هذا قرارى الذى اتّخذته بمحض إرادتي؟"

"لكن من سيفهم هذا؟ سيظنّ الآخرون فقط أنى خدعتكِ بالانجرار إلى ذلك".

"دع الآخرين يظنوا ما يظنون. فماذا يعنيني؟"

"نحّى عنكِ مسألة الآخرين. سيبدأ وعيى إزعاجي".

"لا أفهم. ما هذا الذى تقوله كلّه، يا فيدور؟"

"أحسّ كأنى ارتكبتُ جُرماً".

"جُرم؟"

"نعم. تجاهك يا آنا".

"لا أظنّ. أليس هذا كافياً؟"

بعد فاصل آخر من الصمت، سألها دستويفسكي:

"ماذا سيظنّ أمكِ وأقرباؤك وذلك الكاهن الذى التقيته الآن فيّ؟ أنى أقودكِ إلى شَرَكٍ. أليس كذلك؟"

"لا. ولا واحد منهم سيظنّ هكذا. فقط بسبب إيمانى الصارم الذى حكيتُ لهم به عنكَ، دون أن أُخفى عنهم شيئاً. ولماذا أُخفي؟ فليعرف العالم كلّه الحكاية".

"وماذا قالت أمك، يا آنا؟"

"قالت: على هواكِ. تقول أمى هذا فقط. ولو كان أبى حياً لقال الشيء عينه. على ما أظنّ".

"لا أعرف! حتى اليوم، لمْ أحسّ بمثل هذا الاضطراب فى عقلى. فى الواقع، عليّ أن أحسّ بالسعادة، مِن هذا الحظّ السعيد القادم فى طريقي".

"ماما قالت شيئاً واحداً".

"ما هو؟"

"أن علينا كبتَ أنفسنا حتى نتزوّج. هذا هو، علينا أن نعيش فردَين منفصلَين، متباعدَين".

فجأة، بنوع من البهجة كأن قلبه أُفعم بالنور، قال دستويفسكي:

"سأَعِدُها فيما يخصّ هذا باسم ابن الله. كاف؟ أو يُستحسن أن أُبعد نفسى يا آنا، عن رؤياكِ، حتى نتزوّج. سأهرب حتى إلى سان بطرسبرج".

زيّنت وجه آنا ابتسامة صغيرة محتشمة، وقالت "لا حاجة لهذا كلّه. فقط نواصل العيش كرجلٍ كريمٍ من دون حبّ مشبوب أو صلة حميمة".

تلك الليلة، ظلت آنا مستيقظة إلى وقت متأخر، ونسخت قسماً من "المقامر".

وصل ألكسى ايفانوفتش إلى نادى القمار بعاطفة مجنونة. لم يتفرّق المقامرون حتى بعد العاشرة. المقامرون الأصليون هكذا. يجلسون ويلعبون حتى يغلق نادى القمار أبوابه. جلس ألكسى يلعب على الطاولة نفسها التى جلست إليها الجدّة أنتونيدا. لا يعرفون أيّ قطعة ربحت باللعبة السابقة.

السوداء أم الحمراء؟ دون تفكير، وضع ألكسى عشرين قطعة ذهبية. حتى وقتها كان يربح. مئتا قطعة ذهبية، ضمنها العشرون الأولية. وضع المبلغ كلّه على المحور التالي، بالقطعة الحمراء. لحظة فظيعة. لعبة، وضع فيها آخر قطعة عملة. حياته معلّقة بتلك القشّة. كان اليوم يوم سعد.

مع أنه كانت هناك خسائر هينة، فقد نُسيت فى زهوة الأرباح الطاغية. تلك اللعبة التى صبّت المال فى القطعتين الحمراء والسوداء أذهلت الآخرين. لا يعرف ألكسى ماذا أنقذه. أرباح طاغية، واحداً تلو آخر. يهوديّ من فرانكفورت همس فى أُذنيه: "يكفى. رُح الآن، لأجل خاطر ربنا!"

كما قالت ذلك امرأة ما. رجل بهذه النقدية الكثيرة خطر مرتقب كبير. هنالك موت يتبع الثروة. كان ألكسى ايفانوفتش على يقين من أن المصير نفسه هو الذى يقوده. لم يفارقه الحظّ يومها.

حين بلغ ألكسى ايفانوفتش الخان، جمّع ذلك المال كلّه، وكانت باولين ألكسندروفنا جالسةً هناك بغرفته. على فِراش ألكسي، فى ضوء الشموع.

لدى صبّ المال كلّه الذى ربحه من المقامرة أمامها، سألها ألكسى أن تَمضى اليوم التالى إلى فرانكفورت وتلقى بهذا المال كلّه فى وجه الفرنسيّ الذى تخلّص منها. راح ألكسى لحظتها يستعرض حبه لها. لكن، ماذا فعلت باولين؟ قالت "أنا لا أعتبركَ حتى الآن أفضل من ذلك الفرنسيّ". وانهارت فجأة.

فكّرت آنا: ماذا حلّ بها؟ أهى مجنونة؟ ألم تكن تنظر إلى ألكسى حتى الآن على أنه مهرّج؟ حبّها زائف. اليوم التالي، حين ألقت ذلك المال كلّه إلى ألكسي، لم يعد ثمة شكّ. فهى تهذى فى جنون مطبق. كانت آنا تكرهها من قلبها. ناسية حتى أنها مجرد شخصية.

١٤

كان دستويفسكى يتلوّى من التعب والقلق اللذين يصعُب تعريفهما... أحسّ كأنى وقعتُ فى غابة قطبية بدئية. أستطيع سماع هدير بغيض من الظلمة، من البريّة. بسبب القلق غير المنطقيّ، أتداعى! ماذا جرى لي؟ قلبى استحوذ عليه التوتّر!

ماذا أفعل لأُهدّئ نفسي؟ أقرأ شيئاً؟ فماذا أقرأ؟ أمسِ، نهضتُ قبيل الفجر، قرأتُ الكتاب المقدّس فترة. تصفّحتُ حياة أيوب. فقدتُ الآن حساب المرات التى قرأتُ فيها سِفر أيوب. جُلتُ عبر مساوئ حظوظ أيوب، ونمتُ أخيراً مرقداً رأسى على مساوئ الحظوظ. ثم تنبّهتُ بدايةً على سماع دويّ مخيف، بمساوئ تلك الحظوظ نفسها.

من أين يهلّ هذا الدويّ؟ بأية غابة مفزعة أنا؟ أنّى لى بالخروج من هذه الغابة؟ من سيُرينى درب الخروج من هذه البريّة المرهقة؟ أتجوّل، ضالاً عن طريقي، أنا الذى علي شفا الانهيار فى البريّة المخيفة من هذا الدغل المظلم؟ هل ستمضى حياتى إلى نهايتها هكذا؟ فى ظلمة، فى بريّة، فى فراغ؟ برحم غابة عذراء؟

تصفّح قصائد بوشكين: القصيدة الأولى التى صادفَت عينَه كانت "النبيّ". حين أعدَم القيصر أو نفَى ثوّار تمرّد ديسمبر، اشتعل بوشكين بالغضب. كان كاندلاع احتجاج، تمرّد ولعنة. تحوّل بوشكين إلى النبيّ أشعياء الغضوب فى العهد القديم. فقد سُمِعَت لعنة يَهْوَه التى سقطت على أهالى القدس:

"كلّ الرأسِ مريضٌ وكلّ القلبِ سقيمٌ. من أسفلِ القدمِ إلى الرأسِ ليس فيهِ صحةٌ. بل جرحٌ وإحباطٌ وضربةٌ طريةٌ لمْ تُعصَر ولم تُعصَب ولم تُلَيَّن بالزيتِ...".

فى النهاية ينفجر غضب النبيّ بسؤال واحد:

"وإلى الحضيضِ توضَع المدينةُ؟"

قلبى الوحيدُ ظامئٌ، فأسلكُ
قَفراً أجردَ حينما، قُدّر أنْ
وقفَ أمامى ساروفيم (١٨) المُجنّح:
حيثما عبرتُ الطرقَ القفرَ ينتظرُ.
فوقَ محجرَيْ عينَيّ، بطينٍ غير منظورٍ،
يبسطُ أصابعَهُ فى خفّةٍ.
وكنَسرٍ مُجفلٍ حدّقتُ حولى
فرأيتُ الأرضَ مطوّقةً،

(١٨) :Seraph الملاك ساروفيم، أحد حملة عرش الله، في المعتقد العبريّ القديم. (م)

محفوفةً بالسماوات. مَسّ أُنني،
ومَسّ الأخرى، مِن ثمّ، بوضوحٍ وتميّزٍ،
أحسستُ برفيفٍ ناعمٍ
لأجنحة ملائكةٍ، وسمعتُ الكروبَ
تندفع بالأرضِ ونحو السماء ترقَى،
وحوشُ أعماقِ البحارِ قى الماءِ
تنسلُّ كالسمكِ الصغيرِ. (١٦)

لا شيء واضحٌ. لا يتوصّل العقل إلى معانى الكلمات. مجرّد طنين أجوف. فأغلقَ دستويفسكى الكتاب.*

إنى أقف فى غابة مفزعة. وبدلاً من خبط أجنحة الملائك، لا أسمع غير دويّ مخيف. بعد التجوال فى الغابة، حين وصلتُ خارجها، واقفاً عند حرف المدينة، لم أرَ ملاكاً بل شيطاناً. تحرّكت السماوات والأرض بعيداً من عينَيّ. فوقفتُ ثانيةً وسط غابة مفزعة، من دون بدء أو نهاية... وبينما كان دستويفسكى واقفاً وسط غابة مفزعة، صعدت آنا السلالم وها هى قد وصلت. لدى رؤيته آنا، حدّق فيها دستويفسكى بنظرة غريبة على وجهه. لم تعره آنا التفاتاً. كان عقلها فى عالم آخر. عالم فيه شمس معتدلة، أزهار وموسيقى وأحلام. وضعت تلك الأفرخ التى نسخت فيها بدقّة من صفحات الرواية، وحطّت ثقّالة الورق عليها، قرّرت أن تبدأ يومها بالفرح. لكن، بعد هذه التجهيزات، رفعت بصرها فلم تلحظ أن دستويفسكى كان واقفاً كالمسوس بشيطان.

استفسرت منه قلقةً:

"ما لكَ يا فيدور؟ ماذا جرى؟"

تثاءب دستويفسكى كالناهض من كابوس ثم هزّ رأسه ما يعنى "لا شيء".

كانت متوتّرة:

"لكنكَ تبدو مختلفاً؛ كأنكَ لستَ أنتَ على الإطلاق".

من دون أن يفكّر، قال دستويفسكي:

"أنا وسط ثمة غابة ولا أستطيع الخروج منها".

"من قال هذا؟ إنها مجرد هلوسة"، قالت آنا، لتعزيه. "فلم تستطع النوم أمس. ذلك السبب أن لديكَ هذه الرؤى المجنونة. لا تشغل بالكَ. حين تشرب شاياً أسود قوياً، ستمرّ هذه السخافة. بعدها نستأنف الرواية. ألم تقل بقى منها القليل؟ لو حاولنا بجدّ، فقد نُنهيها فى يوم أو اثنين".

قال دستويفسكى كئيباً "الرواية. ترّهات! مزّقيها وانثريها فى الرياح!"

"هذا أليم!"، قالت آنا كمن يجرّب أن ينتصر على طفل عنيد فى نوبة غضب. "بماذا سنخبر ستيلوفسكي، إذن؟ إن لم تُسلمه الرواية قبل ١ نوفمبر... هل تعرف اليوم كم؟"

"لماذا أنتِ قلقة؟"، انفجر دستويفسكى فجأة بتعبير شيطانيّ على وجهه. "دعيه يصبح دائنى طيلة عمرى. أو اسجنينى. لا أحد فى حاجة لأن يقلق بالتفكير فيّ. اخرجي! اغربى عن وجهي!"

فارتجفت آنا.

ماذا جرى له؟

ليس الشخص نفسه الذى رأته بالأمس.

أيّ تغيّر صار، عبر ليلةٍ!

خمّنت أن شيئاً خطأ. يذرع الغرفة كحيوان بريّ فى قفص! يتمتم بشيء. واضح أنه يقاوم عقله. حين التقط علبة السجائر، تبيّن أنه لم يعد فيها شيء. فرمى بالعلبة بعيداً. استأنف يذرع الغرفة، وهو يحكّ رأسه بعنف.

دون أن تنبس بكلمة، خرجت آنا من الغرفة ووقفت فى الشرفة. أحسّت بأسىً فظيع. هل مع هذا الرجل سأعيش؟ ماذا ستصبح عليها حياتي؟

بعد فترة، استدارت آنا، على هَدْى سماعها وقع أقدام خلفها. كان واقفاً هناك، مُجهَداً تماماً، انفكّ عقالُ قلبه، شاحباً، وبوجه كلّه أسفٌ غريب. فى هذه اللحظة، الأسى كلّه والذنب على وجهه. لا السخط أو التعصّب اللذان كانا من قبل.

لكن، كان التعبير الأجوف الذى يجرح آنا أكثر.

رجل بائس! يقف هناك كضحية قربان!

خطرت لها فكرة فجأة! لم تتردّد فى الظنّ إن كانت ستعجبه أم لا. انتهزت لحظة هاربة من الشجاعة. وبدا أنها بالضبط كما توقّعت. فتحت حقيبتها واستخرجت كلّ ما فيها من مال، وقالت:

"أعرف علّة هذا الأسى كلّه. اذهب وقامر طيلة اليوم. ستنضو عنكَ أحزانكَ كلّها. اذهب. ألا ترى ما أقوله السبب؟"

نظر دستويفسكى إلى آنا فى عجب. ثم نظر إلى يدها الممتدة ملؤها النقود. فأخذها جميعاً كجزء من الحلم. وخلال جزء من الثانية، عاد إلى الحقيقة. كأنه فى حالة نسيان، اندفع نازلاً على السلالم راكضاً إلى نادى القمار. وفى اندفاعه المجنون، لم ير أو يسمع أو يفكّر فى شيء. سهمٌ وانطلقَ من قوسه المشدود...

كان الناس يَصلون فُرادى وثنائيات إلى نادى القمار. جريجورى ياكوف مقرض المال للمقامرين كان واقفاً فى ركن. الرجل العجوز واقف وهو لابسٌ معطفاً أكبر منه. لا يبدو أن الموت قد يؤثّر فيه. كم عمره، الآن؟ شعر دستويفسكى أنه حتى لو عاد هنا بعد سبع سنين، فسيجد العجوز جريجورى ياكوف واقفاً هنا بمحفظته الخيطية. بابتسامة برزت لديه مع الفكرة، لوّح للرجل العجوز بالتحية.

فى الداخل، تحرّك دستويفسكى فوراً إلى طاولة حيث بدأت اللعبة. لم يكن قد حسب ما فى يده من مال. يبدو أنه مبلغ معقول. وضع المال، بدايةً، على عجلٍ. فضاع. ثم توقّفت الإبرة عند الصفر. هيا! صاح فى بهجة. على الصفر ثانيةً. فربح! عندئذٍ اشتدّت حرارة اللعبة. دون تفكير واعٍ، وضع المال كلّه تقريباً فى يده على الحمراء. جاءت الإبرة لتستقرّ فى الحمراء. يا يسوع! اليوم يوم سعد. ربح مرة تلو مرة! لم يحدث حتى اليوم مثل هذا. القدَر يقف فى صفّه اليوم، يباركه. ثم وضع مبلغاً صغيراً فى السوداء. ضاع. ليذهب للجحيم. فمن يأخذ فى حسبانه خسارة صغيرة! صغيرة أو كبيرة، من الخسارة ينال المرء عزمه. وضع من جديد مبلغاً كبيراً على السوداء. منعه شخص. لم يُلق بالاً. فكّر، لنر إن كان يمكننى أن أستعيدَ من السوداء ما خسرتهُ فى السوداء. كانت المرة الخامسة التى يخسر فيها مبالغ يضعها فى السوداء. لتذهب للجحيم، إن ذهبت. لكن الإبرة توقّفت فى السوداء. حيّاه الجميع بالهتاف واقفين. حدّجه جريجورى ياكوف، الرجل العجوز، من المدخل. فهنّأه من هناك "اليوم يومكَ فيدور!" ثم وضع المبلغ كلّه فى الحمراء. وهو يضع المبلغ فى الحمراء، وثق من أنها نتيجة لا يمكن أن تخطئ. كان بوضعية محارب، يلوّح مهدّداً بسيف كبير، بنيّة غزو قارّة كاملة!

من جديد ربح المحارب! قارّة مجهولة بأكملها الآن عند قدميه. قارّة بألف مليون منجم ذهب...

حين كتب فى الرواية عن الأرباح الخيالية التى جناها ألكسى ايفانوفتشّ، لم يحلم أنه بعد يومين سيُكرّر المثال نفسه فى الواقع، مع حالته هو.

فكّر دستويفسكي: عند تسديدى الديون كلّها المتراكمة حتى الآن، سأدخل الحياة كإنسان غنيّ. حين أذهب لأُسوّى دَيْن تورجنيف، سيندهش. "المال الذى لم تستطع جمعه بالكتابة، جمّعته بالمقامرة، أليس كذلك؟" مع هذا السؤال، لا بدّ أن يكون قرار. اعتاد أن يساعدنى بقروض موسمية، فهكذا تورجنيف. كلما سنحت الفرصة، سخر منها.

كانت فرصة للجميع أن يندهش. ماذا يظنون؟ أن دستويفسكى سيبقى معوزاً ومديناً طيلة حياته؟

فى المساء، سآخذ هذا المبلغ كلّه وأحطّه فى حِجر آنا. ستُصاب بالذهول. فمن أين لى بهذا المال الوفير؟

مَن يُرِد قرضاً، فليأت إلى فيدور دستويفسكى. مهما كان المبلغ الذى تريد! والفائدة صفر.

من جديد وضع اثنى عشر ألفاً على الحمراء. فربحها أيضاً. ودقّت صيحة الظَفَر فى نادى القمار. همس فى أُذنيه جريجورى ياكوف "كفى. ارجع الآن. إنى أرتعد فَرَقاً من رؤية الطريقة التى تربح بها، يا فيدور".

فدفع جريجورى ياكوف جانباً. أفٍ لكَ، أيها العجوز! اليوم يوم دستويفسكى. نجم السعد فى صعوده اليوم، على رأس دستويفسكي!

ثانيةً، لعب منوّعاً بين القطع والأشكال! فى اللعب كلّها، كانت الإبرة تأتى لترتاح فى القطعة التى يختارها دستويفسكى.

فسأل دستويفسكى مالك نادى القمار:

"من عمل أكبر رهان هذا العام بنادى القمار؟ وما المبلغ؟"

نقّب المالك ذاكرته. خرج باسم الأكبر ومبلغه. فحسب دستويفسكى ضعف المبلغ، ووضع المال فى الحمراء. دارت عجلة الحظّ. بأية قطعة ستمضى الإبرة لترتاح؟

فى السوداء، جاءت الإبرة لترتاح أخيراً. وتلاشى مال دستويفسكى. فجأة فرش الصمت ظلّه. هزيمة منكَرة فى صفّ انتصارات مستمرة!

لم يتزحزح دستويفسكى. فهل يهتم المحارب الذى ربح انتصارات كثيرة بالسقوط فى نوبة واحدة؟

وضع دستويفسكى مبلغاً آخر كبيراً فى الحمراء. ضاع أيضاً. فتدخّل العجوز جريجورى ياكوف، ثانيةً "كفى، فيدور! توقّف الآن! افترض الرياح تغيّرت!"

لكن، مَن يسمع؟ راح دستويفسكى يلعب بمبالغ كبيرة. وخسر اللُّعب واحدةً إثر أخرى. يخبو بريق نجم السعد. غطّته أخيراً غيومٌ سوداء. ثم تلاشى كلياً، لم يُخلف أثراً يُذكَر من أن نجماً كان هناك.

فى العاشرة والنصف ليلاً، وقد خسر كلّ شيء، دون كوبك واحد فى جيبه، ترك دستويفسكى نادى القمار وسار خارجاً. الجميع، ومنهم الرجل العجوز جريجورى ياكوف، راقبوه صامتين وهو يمضي، مضروباً بالدهشة من سلسلة أرباح تلتها سلسلة خسائر.

وهو يمشى وحيداً عبر طريق مقفرة فى ليل مظلم يعوزها ضوء القمر والنجوم، لام دستويفسكى نفسه ولعنها، أحزنه أنه لا يوجد أحد على الأرض ملعون مثله! كانت نار تتقافز فى القلب. إلى من سيعترف بهذه الخطيئة؟

أية طريق هذه؟ أهناك كنيسة فى مكان ما؟ قد ينال سكينة العقل فقط لو راح إلى كنيسة ما راكعاً واعترف بخطاياه. القلب يحترق. هو الآن ليس قلبه. إنه غابة. غابة تحترق. وهو وسط غابة بدئية تحترق من دون بدء أو نهاية. يُسمع دويّ مخيف فى الظلام.

جال دستويفسكى خلال شوارع معتمة بحثاً عن كنيسة.

فرأى فى النهاية كنيسة، تقع على بُعد قليل من مدخل الطريق. فوصل أمامها. كانت كنيسة سيناجوج. راكعاً أمامها، راح دستويفسكى ينشج. بصوت كسير، معترفاً بخطيئته "أخطأتُ ضدّ العالم كلّه. أنا خاطئ وضيع".

ركع هناك فترةً وهو يبكى. ثم نهض سائراً على غير هُدىً. سار أمامه، هنا وهناك، فترة طويلة، فوصل أخيراً أمام منزل آنا. هنالك نور بغرفة آنا. فى العالم بأكمله، هناك نور واحد فقط فى غرفة آنا!

كسيراً تماماً، كمن يقف على شفا الانتحار، طرق باب آنا. ستعجَبُ آنا ممّن هناك بمثل هذه الساعة من منتصف الليل!

حين فتحت الباب، بدأت ترى الواقف خارجه. سألته بنبرة هادئة:

"ما هذا؟ ماذا جرى؟"

نظر دستويفسكى إليها بعينين فارغتين:

"لا شيء. قامرتُ وخسرتُ كلّ شيء. كلّ شيء. دمّرتُ كلّ شيء. لن أَصلُح أبداً. أنا خاطئ. فصُبّى علىّ اللعنة!"

"قامرتَ وخسرتَ! هذا فقط! لا شىء أكثر من هذا. اهدأ!"، وحاولت آنا من جديد أن تعزيه بنبرة هامسة "لا تعتبر هذه خسارة. رُح الآن فى سلام، يا فيدور. أمى وأخى وأختى نائمون. لا يجب أن يعرفوا أنكَ جئتَ هنا. فامضِ الآن أرجوكَ".

دون أن ينبس بكلمة، نظر فيدور إلى آنا مرة ثانيةً. ثم سار لا يلوى فى الظلام.

وقفت فى النور المعتم، تراقب دستويفسكى وهو يسير مبتعداً.

١٥

حين وصلت آنا اليوم التالي، كان دستويفسكى راقداً فى الأريكة كمن خسر كلّ شيء. أشبه بالسيد المسيح المنكفئ من الصليب!

حين وجدته محطّماً، شعرت آنا بدفق من الحدب يغمرها. فهى لم تر شخصاً آخر يتلوّى هكذا من الألم، من كارثة ألّمت بشخصه.

ذهبت آنا قربه، نظرت إليه صامتة. فرأت تغيراً طفيفاً من التعبير هلّ على وجهه المصفرّ.

فى تلكم العينين، كان وهن الأحزان لا يزال يتريّث.

جلست آنا على الأريكة، قرب دستويفسكى. نظرت إليه كأمّ تسعى للتهوين على ولد يتيم.

عندئذٍ قال دستويفسكى بمواجع قلبٍ كليم ومشاعر ذنب محترقة:

"أنا مجرد دنيء، وضيع، لا أصلُح لشيء، بذيء، لعين، خاطئ. حتى الله لن يغفر لى. فكيف بالآخرين؟"

واضعة يدها على رُكبة دستويفسكي، قالت برقّة وحنان:

"ما هذا كلّه الذى تقول؟ ماذا جرى لكَ؟ خسرتَ فى القمار. فقط. وليست المرة الأولى. فى المقامرة، أرباح وخسائر. أفلم تكن واعياً بهذه الأشياء؟"

"ليست المسألة هذا فقط! بل ما فعلتُ كلّه بالأمس؟ أظننى كنتُ مجنوناً. من باكر الصبح. ألم أجرح قلبك أيضاً، يا آنا؟ ثم أخذتُ مالك وذهبتُ فقامرتُ بكلّ شيء. لم يبق لى فى هذا العالم غيرك يا آنا، لأقترض منه".

"أموال! اقتراض! من يتكلّم عن أيّ من هذه الأشياء الآن؟ لماذا نتذكّر هذا؟ ألم أخبركَ أمس أن تنسى الأمر كلّه؟"

"وأنّى لى بنسيان ما صار؟ هذه الانتصارات التى ربحتها إجمالاً. المال الذى كوّمته. الآخرون جميعاً فى نادى القمار استغربوا من الطريقة التى أربح بها. كانت أرباحى أمس فوق الخيال. فى نادى القمار، لم يسجّل أحد هذه الانتصارات قبلى. لم يكوّم أحد هذا المال الكثير من نادى القمار قبلاً. هذا المال الكثير! ضرب الآخرين العَجبُ! ظننتهُ فى البداية أمراً لا يُصدّق. ربح كثير، واحداً تلو الآخر. حتى الرجل العجوز جريجورى ياكوف مُقرض المقامرين، قال أيضاً: كفى يعنى كفى. فلم أُصغ. كنتُ مجنوناً. نعم، كنتُ مجنوناً فعلاً. ثم جاء الطرف الآخر. خسائر مستمرة. خسرتُ كلّ شيءٍ. دون كوبك واحد بقى بين يدَيّ. فمن يسامحني؟"

"انس ذلك كلّه! لا تذكُر أياً من هذه الأشياء. فماذا يُحبط بشأن خسائر المقامرة؟ لن يقيس العالم، بهذه الخسائر فى المقامرة، قَدْر دستويفسكي، أليس صحيحاً؟ فكّر فقط أنه لن يحدث شيء من هذا القبيل. كنتَ تجلس أمس على طرف تلّ، أو على ضفّة نهر النيفا، تكلّمنى عن رواية على وشك أن تكتبها. فتخيّل الأمر على هذا النحو".

بتعبير انفعاليّ، نظر دستويفسكى إلى آنا. ثم أخذ يدها فقبّلها:

"لم يُبد لى أحد كثيراً من الحبّ حتى الآن. العالم يتّهمنى فقط، يهزأ منى ويلعننى. بينما أظنّ أن كثيراً من الخير فيك وأنت تُبدين لى حبكَ...".

"ليس هذا وقتَ تذكُّرِ هذا كلّه. علينا أن نُنهى "المقامر". فأَمْلِ عليّ. سأُدوّن. لنُرِ العالم كيف يمضى دستويفسكى فى جمع أرباح سيذكُرها العالم للأبد".

نهضت آنا، ذهبت إلى الطاولة فالتقطت الدفتر والقلم الرصاص، ثم انتظرت ما سيُملَى عليها.

ضمّ دستويفسكى يده وجعلها فوق جبينه، ثم رقد للوراء بالأريكة. أغمض عينيه. ثم حَمَلَ على القصة. بنوع من التنوير، ومشحوناً بالانفعال الذى لم تعهده فيه قبلاً، كان الدفق مدراراً:

وصل ألكسى ايفانوفتش فى حالة أشبه بالموت من الحزن الطاغى والهمود. بدا له أنه مهزوم من الأعماق. من لحظة سلفت أخبرت مدموزيل بلانش الآخرين مشيرة نحوه "إنه أحمق ما بلغ الحمق". ماذا أظهرت من برهان على استدلالها؟ أنه لا يعرف كيف ينفق مئة ألف فرنك كلّها بنفسه!

شعر ألكسى ايفانوفتش أنه يقف على حافة عدم كامل. وكى ينسَى كلّ شيء، كان يشرب دون توقّف. فهو يعرف أن الحبّ الذى تبديه له مدموزيل بلانش زائف. كما يعرف أنها لو حفظت أيّ شيء فى قلبها من أجله، فهو الإهانة. لم يأخذ أياً من هذه الأشياء فى حُسبانه. ومنبوذاً حزيناً، أصبح زبوناً عادياً بقصر الأزهار (١٩). حينما تُبذَل الشمبانيا فى الأمسيات هناك، يغسل بها عنه مرارة حياته!

شعرت آنا أن ألكسى ايفانوفتش قد سقط فى فخّ آخر. أوه، ما لهذا الساذَج يسقط فى هذه الفِخاخ! بعد باولين، مدموزيل بلانش!

---

(١٩) : Châteaux des Fleurs بالفرنسية في الأصل. والأمر هكذا أيضاً برواية دستويفسكي المقامر. فقد كانت الطبقات العليا تتباهى بالنطق فى الفرنسية طيلة القرن ١٩ في روسيا. (م)

بعد فترة، يعود الجنرال. تنقلب حياة ألكسى من جديد إلى حياة مهرّج. وأخيراً، حان وقت الفراق حين تُباشرهُ بالوداع، تضع مدموزيل بلانش ألفَى فرانك ورقاً نقدياً بين يدَى ألكسي، وتقول "احتفظ بهذه. أنتَ أجنبيّ. على الرغم من أنكَ مثقّف، إلا أنكَ مغفّل. فلا فائدة تُرجَى من أيّ ممن يقع بين يديكَ. فستُتلفه".

وبينما هى تدوّن، رفعت وجهها وأخبرته:

"لعلّة ما، يبدو هذا البطل غير معقول بالنسبة لى. هل من أحد مضحك مثله؟ أحمق مثله؟"

بابتسامة وعى بالذات، قال دستويفسكي:

"ليس فيه شيءٌ غير معقول. إنه أنا، بنفسى. هل من أحد مضحك هكذا، أحمق هكذا، مثلي؟"

فاحتجّت آنا "لن أسمح لكَ أن تُدنِّى من نفسكَ كثيراً. أنا واثقة أنكَ لستَ بالأحمق أو المهرّج. لا أعتبر حتى ألكسى هكذا. ثم كيف آخذكَ...".

وكأنه يستمتع بنكتة، ابتسم لنفسه، قائلاً:

"لديه نقطتا ضعف. المقامرة والحبّ. لو انخرط فى هذين، يصعُب عليه الخروج. كالحياة والموت، هذا أيضاً حدٌّ من المصير. هناك شىء آخر. جِنسٌ غيرُ مُشبِع. ذاك يهيج فيه كالإعصار. ولا أريدُ تفصيل المزيد فى هذه النقطة".

فى الظهيرة، قال دستويفسكي:

"هيا نَسِر قليلاً؛ بأيّ مكان فى الخارج. تعبتُ من حبستى هنا فى الداخل. ليس من المنطقيّ أن يحبس المرء نفسه دائماً فى المنزل".

"أين نذهب؟"

"لنَسِر إلى ضفّة النيفا، حتى الغسق. موافقة؟"

أومأت آنا.

حين كانا جالسين فى العربة التى يسوقها رجل عجوز، ظلّ يخبر آنا عن الجروح التى عاناها قلبه طيلة حياته. حتى وهو يتكلّم عن أحزانه، جعل آنا جزءاً منها:

"بالنسبة لي، أنا المنبوذ فى كلّ مكان، ليست الحياة سوى رحلة عبر فلاة لا تُحدّ. الواحات على الطريق. ظلال أشجار النخيل. ذكرى ذلك كلّه لا تزال فى قلبى. مع ذلك، فإن تجربة واحدة متّصلة هى تلك الفلاة. أنا وحدى فى هذه الفلاة، التى على ما يبدو من دون بدء أو نهاية... أجتاز الواحات العارضة وظلال أشجار النخيل، أين أصل أخيراً؟ حمداً لله! فهو قريب منك، يا آنا. أعرف أنها ليست الطريقة المناسبة لقول هذا كلّه. لا يجب أن نزيّن الحقيقة. فصدّقى أرجوكِ أنى أقول هذه الأشياء لله كى يسمعنى. فلم يحبنى أحد من قبل هكذا. بمثل هذا العمق. بمثل هذه الكثافة. بمثل هذه الأثَرة. سيكتمل الأمر لو قلتُ "بهذه الطهارة" أيضاً. لماذا؟ لأني، أعرف أخطائي، أعرف نقائصي، أعرف نقاط ضعفي، أعرف عاداتى السيئة ـ وكيف أرى أيضاً مثل هذا الحبّ؟ فى الحقيقة، أحسّ الآن بنوع من الالتزام نحو الله، من ناتج هذا الحبّ".

لامته آنا بحنان:

"كفى. حين أدعكَ تتكلّم قليلاً، تفكّر: ليس منطقياً أن نُحبَس، فدعينا ننفكّ قليلاً! أنتَ...".

وفكّرت آنا:

هذا الحبّ مثل كفّارة لأنه سبّب لى ألماً بالأمس. هل يجلس أحد والمحكمة فوقه قائلاً إنه أحمق ومهرّج وإنسان عنيف، وهم يرون طهارة روحه؟"

حين نزلا من العربة وسارا عبر ضفّة النهر، قال دستويفسكي:

"ليس هناك ثمة أحد يهبنى ثقته. فأنا وحيد دائماً. لكنى لا أحسّ هكذا اليوم. من يدري؟ قد تبدأ حياتى من الآن فصاعداً. ركعتُ الليلة السالفة أُصلّى لله "اغفر لى خطاياي، أرجوكَ". تعرفين يا آنا، أن يكون المرء كاتباً فى هذه الحالة الجديرة بالشفقة، لهى بطولة خشنة. لا بديلَ أمامى. بى خوفٌ واحدٌ فحسب. فهل أخسر هذا الحبّ، كما يدلّنى الله!"

قال دستويفسكى هذا، وأشار ناحية آنا.

فقالت آنا:

"ما هذا الذى تقوله كلّه؟ لا أفهم".

"قد يظنّ الآخرون أنى سأملأ الآن حياة آنا بالبؤس واللعنات".

"لن يظنّ أحد هكذا أبداً. ولنفرض أن أحداً ظنّ هكذا؛ فماذا سنخسر؟"

"إننا محاطون بأُناسٍ يرقبون الفرصة لانتقادي".

"لسنا فى حاجة إلى أن نلقى بالاً لذلك. فبعضهم أيضاً يغارُ منكَ. حتى من يسعون عمداً للحطّ منكَ يعرفون أن دستويفسكى أكبر بكثير من أيّ منهم".

"كلّ منهم يُقوِّمنى بما رآهُ حتى الآن. وكم منهم يعرف أن دستويفسكى ربيب الأبدية؟"

ناظرةً فى عينَيْ دستويفسكى المتوهّجتين، وبابتسامة فاتنة، قالت آنا:

"أعرف أحداً يعرف تلك الحقيقة. آنا. آنا جريجوريفنا".

مرّ بهما نسيم كان يمرح على ضفّتَى النيفا.

سارا بطول ضفّة النهر، حتى وصلا كنيسة. جلس كلٌ على سلّم من تلك السلالم التى أمام الكنيسة.

قال دستويفسكي:

"تتشكّل فكرة رواية كبيرة فى دماغى. وحين أقول كبيرة، فليس من جهة الحجم فقط... بل ينطبق أيضاً على موضوع الرواية. آنا، قد ينتابكِ الآن الشكّ من أن مذكّرة تفتيش أو إيصال محكمة لدَيْنٍ ما يضغط عليّ".

فقالت آنا والهمّ يركبها:

"ليس عندى مثل هذا الشكّ. فمن يقول هذا؟"

"قد يظنّ البعض هكذا". ونفث دستويفسكى آهةً عميقة. "يا له من أمر مؤسٍّ، ماذا أيضاً أقول! حين يُعجزنى المال، أقترض. قد يكون أحياناً من محرّرين أو ناشرين. فهل يقرضنى أحد لو قلتُ إنى سأرهن من النيفا سبع عشرة مما فيه من مئة جزيرة وجزيرة؟ لا. فماذا أقول؟ سأخبرهم إنى سأُعطيهم رواية. ماذا يقول الناس عن هذا؟ إنى سأكتب روايات لأُسدّد بها ديوناً. الخطأ أنى رجل فقير ـ أليس كذلك؟"

"ليس عندى أيّ سوء تفاهم، يرضيكَ؟ فقُل لي، ما اسم الرواية الجديدة؟"

"(الإخوة كارامازوف). فى عينَيّ أنها تأمّل فى وجود الله والكون والإنسان. ربما يُخلَّد ذكرى بهذه الرواية إلى الأجيال القادمة".

"قل لي! على الأقلّ لأحسّ بالفخر أنى أول من يسمع عنها فى هذا العالم".

"أحسّ أحياناً ما إن كانت هذه الأشياء كلّها مجرد مصادفات. هكذا، الكون كلّه! السماوات، الأرض، الكواكب، النجوم، دروب اللبّانة، الزمن، البشر، الديدان، الحيوان، الشجر، الزواحف، الطير، والأزهار ـ لماذا خلق الله هذا كلّه؟ ما القصد من هذا كلّه؟ لماذا اتّخذ الله مثل هذه المشقّة كلّها؟"

أحسّت آنا بقليل من المرح فى هذا، فابتسمت طفيفاً:

"لا أعرف سبباً بالضبط".

وحين رأت التعبير العميق بوجه دستويفسكي، ندمت على تهكّمها الخفيف.

كمن ينظر عبر الشاطئ الآخر من الذاكرة، جلس دستويفسكى صامتاً فترة، يتطلّع فى مسافة أمامه. ثم انطلقت الكلمات، مثل ترنيمة، برنين خفيف من أعماق قلبه:

"ذاك الذى يبدع السرمدية والأبدية... لا أعرف حقاً تبيان ذلك... مدىً لا محدوداً حيث شاعَ نور قدسيّ. المدى الذى يتعاظم أمام عين خيالى. هلّ نوره البدئيّ من أسئلة معينة تتوقّع أجوبة من الله. السؤال الأول هو ما إن كان الله موجوداً؛ ولو كان، فلماذا على الخيّرين فى هذا العالم أن يقاسوا المآسى والبلايا والآلام؟ ماذا نرى حين ننظر حولنا؟ الخطيئة! فلماذا صار هذا كهذا؟"

قالت آنا:

"أحسّ أيضاً بمثل هذا أحياناً. لكنى لم أعرف كيف أطرح أسئلة".

كأن دستويفسكى لم يسمع، فقال:

"ما أتصوّره ملحمة عائلية. أب يعيش حياة لا تتخلّلها المبادئ؛ فهو مستعدّ أن يبارى ذرّيته حين يتّصل الأمر بملذّات دنيوية. أربعة أبناء من صلبه لهم طبائع مختلفة. الأكبر على هَدْى والده نفسه. الثانى فيلسوف؛ عقله مليء بالشكوك والأسئلة. هو الكائن الوحيد الخامّ فى القصة. الثالث قدّيس؛ تنضح هيئته بالروحانية. الرابع غير شرعيّ".

"هل التقطتَها من الحياة التى رأيتها فى مكان ما؟"

"لا. تخيّلتُ رؤيتهم أمامى أصنافاً من البشر أجمعين. يقع الأب وابنه فى غرام امرأة واحدة. يخطّط كلّ منهما بالحركة ضدّ الآخر كأنهما خصمان، على حسابها. وعلى غير توقّع يُقتل الأب. تشير الشواهد جميعاً نحو الابن الأكبر. إنه الوغد الحقيقيّ الذى يقتله. عاجزاً عن تحمّل عذاب ضميره، يعترف بخطيئته إلى الابن الثالث ويحاول الانتحار. لكن المحكمة لم تكن قد

شكّت فيه حتى ذلك الحين. يُتّهم الابن الأكبر ويُرسل به إلى سيبيريا. وتتبعهُ تلك المرأة التى كانت سبب هذا كلّه. هذا خطّ القصة الذى يمكننى الحديث عنه".

"إذن، هناك جريمة قتل فى هذه أيضاً؟"

"انفجار. من غرابة الشخوص التى تحملها يمكن للمرء النظر فى أعماق الحياة. الأعماق تعني: أسرارها، معانيها، وعبثيتها".

كان تعبير دستويفسكى عندئذٍ لامرئ قرأ غوامض الحياة المبهمة، وهو جالس يتطلّع فى الأبدية. أحسّ كأنه ينظر إلى مستوىً روحيّ. وقد وقف هناك، يطرح أسئلة أكثر. لماذا تُعذَّب الطهارة؟ لماذا يُصلَب الحبّ؟ لماذا تسقُط العفّة فى الوحل؟ لماذا يعانى منطق الإنسان المتألّم؟ لماذا يَزِلُّ المرء فى الخطيئة...؟

"إيفان الذى يفكّر فى الخير والشرّ، فضيلة وخطيئة الحياة، على أنها حزن، يرى حلماً فى منامه".

سحب عينيه من مسافات بعيدة، ونظر إلى آنا بتعبير مشرق فى عينيه:

"جدل بين السيد المسيح والشيطان. كأنه حلمٌ مجنون. أرى دلالة كبيرة فى هذا. لا أعرف ما إن كان هناك تغيّر ما حين أُسجّلها فيما بعد. يضع محقّق ما السيد المسيح محكّ التقاضى ويتّهمه. هكذا أراها. سأكتبها خلال أقصى لحظات حياتى قدسية. أنا واثق من ذلك يا آنا؛ كلّ ما سأكتبه فى حياتى أجمعها لن يُدانى هذه الأسطر القليلة بأيّ مكان".

وكأنه تذكّر شيئاً، أطلق دستويفسكى آهةً ودعاءً:

"يا إلهي! اسمح لى أرجوكَ أن أفعل هذا!"

ثم كمن هو فى حلم، وصف دستويفسكى ذلك المشهد:

(فى كنيسة بإسبانيا فى القرن ١٦، كانت جمهرة كبيرة تنظر فى ثبات. السيد المسيح الذى وهب البصر للأعمى، ردّ الحياة للميت، أبرأ المجذومين، مات على الصليب، وهو نفسه المبعوث من بين الموتى، يقف مقيداً، وسط تلك الجمهرة. سلاسل حديدية ثقيلة معلّقة فى يدَى السيد المسيح وقدميه. هنالك يخرج المحقّق من الكنيسة. ذو تسعين عاماً، بعينين ضيّقتين وخدّين غائرين. يلبس رداءً كهنوتياً ضافياً، شالاً، وشارات أخرى تدلّ على السلطة، يقف هناك وهو يتلو صحيفة اتّهامه ضدّ السيد المسيح:

"أنتَ لم تنظر إلى الجنس البشريّ بحسّ من الواقع. فقد نبذتَ الخبز والسلطة وقوى الشيطان السحرية التى عُرِضَت عليكَ. احتفلتَ بحرية الإنسان والحبّ والتعاطف وتحقيق الذات. لم تدرك أن مسؤولية الإنسان فى الاصطفاء بين الخير والشرّ كانت أشدّ رعباً من الموت. قلتَ "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان". ووعدتَ بخبز الروح. هل يُدانى خبزُ الحياة فى أيّ مكان خبزَ الأرض فى أعين الجنس البشريّ هذا الجاحد الملطّخ الضعيف للأبد؟ هل جئتَ لتُحطِّم ما نحفظهُ من سكينة؟ لن نسمح بهذا أن يصير. سنُحرقكَ على عمودكَ".

ولا يتحدّث السيد المسيح بشيء. يواجه تلك اللحظات بابتسامة غامضة. ومن دون أن ينبس بكلمة يُحاجج بها عن حياته، يمشى السيد المسيح رأساً إلى ذلك المحقّق الساخط ويقبّل وجهه القبيح المتداعى فى العمر. فيُجفل. حيث لم يتوقّع. وينظر إلى السيد المسيح فى تعصّب بالغ ويقول بصوت متلعثم:

"امضِ! لا تأتِ إلى هذه الطريق أبداً".)

حين انتهى، كان شيء يفوق إدراك آنا يحجب عقلها كفيض تجربة قدسية. وفى غمرة النسيان، جلست تنظر إلى دستويفسكى صامتة فترة.

ثم قال دستويفسكي:

"لا تظنى أرجوكِ أنى منغمس فى مديح ذاتى. فلن توجد ذروة قد تساوى هذا فى عالم الأدب كلّه".

لم تشعر آنا أنه مديحُ ذاتٍ.

وحينما نظرت آنا، كان وجه دستويفسكى شبيهاً بقدّيس.

١٦

من جديد وحدى أنا فى بريّة مظلمة لا تُحدّ. شىء شبيه يتمدّد فى روحى أيضاً. ما هذا؟ الفراغ؟ أم عُقم حياة بأجمعها؟

بضجرٍ ليليّ لم يطرف جفن دستويفسكي، فوقف عند النافذة، يتطلّع إلى مسافة.

هل تأتى آنا اليوم؟

أم هل تأتى الآن؟

فى اليوم السابق، بينما كانت آنا تلوّح بالوداع بعدما نسخت الفصل الأخير من "المقامر"، شعر دستويفسكى كأن عقله يغطس فى نوع غريب من الإجهاد. كان مثل الفِراق.

حين قالت "هل لى أن أغادر؟"، لم أتذكّر أن أسألها "هل تأتين غداً؟"، تلك اللحظة، كنتُ أقف ساكناً من دون أن أنبس بكلمة. وحين راحت، أصاب قلبى حزنٌ من أنى صرتُ وحدى من جديد.

فى الليل، لا سكينة. يصبح المنزل مَحبَساً فجأةً. كان الوقت بعد منتصف الليل. السماوات والأرض والبشر وكلّ كائن حيّ فى سُبات عميق. سار دستويفسكى خارجاً إلى الشارع. نور قمريّ معتم مثل كآبة لا تُفَضّ. حينما كان دستويفسكى يسير عبر شوارع مقفرة، كان يحمل صامتاً مرارة قلبه. فكّر فى نفسه، لن يُقدّر لى أن أُقيم علاقات غرامية.

شعر دستويفسكى من جديد أن درب القدس صار واضح المَعلَم أمامه. فهل أنخرط فى حياة الزهد، نابذاً كلّ ما هو دنيويّ، منكراً ذكرياتى بنفسى وغواياتى ومحطّماً روابطها جميعاً؟ حتى من وقت مبكّر، بمنعطفات حرجة، اعتاد عقله أن يلوى عن دربه. المفهوم الوحيد الذى أوصله كان من بلاد فيدا(٢٠) وآبانيساد(٢١)، حلّل تلك المَاسى. فالرغبة هى الجذر الأساسى للمَاسى كلّها. فتجرّد من الرغبات جميعاً؛ هل أمضى فى حياة خاوية من الرغبات جميعاً، مضحياً بنفسي؟

يمضى وليّ النعَم خارجاً من قصره الملكيّ عند منتصف الليل، تاركاً خلفه الصولجان والتاج، الزوجة والولد، الرغبات والأحلام، بحثاً عن أسباب الحزن البشريّ، وخلاص الروح...

على مسافة، ظلُّ شجرة بوذا...

المضحّى بنفسه، الفانى في مجد الله بلا حدود...

تصل الروح أخيراً مستقَرّها الخالد.

من اليسير أن نقولها.

لكن الرحلة فيها مشاقّ البحث عن الحقيقة...

عبر حدّ سكّينٍ وامضٍ....

---

(٢٠) :Vedas أقدم نصوص أدبية هندوسية، تضم ترانيم ومراسم هندية قديمة، إضافة لقيمتها الروحية، فيها نظرة غريبة إلي الحياة اليومية. دوّنت من قرابة ١٥٠٠ سنة ق.م. (م)

(٢١) :Upanishads تُعتبر استمراراً لفلسفة الفيدا، اتحدت فيها الروح (آتمان) بالحقيقة (براهما)، من خلال التأملات. دوّنت من قرابة ٨٠٠ سنة ق.م. (م)

حين وجد آنا اليوم التالى معها باقة زهر فى يدها، صُدم دستويفسكى دهشةً. قد زيّنت نفسها اليوم. تبدو الآن زنبقةً فى حقل، وهبها الله زينتَه.

لكن حينما رأت حالة دستويفسكى كأن كلّ شىء ضاع، أحسّت بشفقة متناهية. فماذا جرى بمسافة ليلة واحدة؟

ثم تذكّرت آنا ما قاله دستويفسكى ذات يوم:

"الكتابة أمر شاقّ فظيع لمن يؤدّيه. إنها كمن يقدّم نفسه أُضحية. حين أنتهى من كتابة رواية، أصبح مُستنفَداً كلياً. ولفترةٍ، أنا كائن أجوف".

تحرّكت آنا قربه، قدّمت له الباقة التى تحملها لِصقَ قلبها وهنّأته قائلة "ليهبكَ الله بركته".

غير مدرك ما الحكاية، وقف دستويفسكى فاغراً فمه:

"علام هذا كلّه؟"

فسألته آنا "ما اليوم؟ تذكُر؟"

لم يزل دستويفسكى غيرَ مُدركٍ سرّ الموضوع. ما تاريخ اليوم؟ وما أهمية اليوم؟

أشارت آنا إلى التقويم.

٣٠ أكتوبر.

مع ذلك، لم يلمح دستويفسكى دلائل اليوم.

فنظرت إليه بنفاد صبرٍ معقول، كأنها تقول "أيُنسَى هذا؟"، ثم قالت بدفء الحبّ:

"كلّ عام وأنتَ بخير!"

عندئذٍ تذكّر دستويفسكى أن اليوم عيد ميلاده. فبرقت عيناه دهشةً:

"حتى أنا نسيتُ. مع ذلك هناك أحد يتذكّر الآن عيد ميلادي! لن أسوّى الآن ديون الحبّ، بكلمة: شكراً".

فقالت آنا "لا حاجة لهذا كلّه. هيا إذن نسلّم الرواية بسرعة. وننهى الصفقة مع ستيلوفسكي".

عندها تذكّر دستويفسكى فعلاً المسألة كلّها:

"حسن أنكِ جئتِ هنا، الآن، يا آنا. وإلا نسيتُ الأمر برمّته".

غيّر دستويفسكى ملبسه بسرعة، واستعدّ للرحلة.

قبل أن يدخل العربة من أمام منزله، نظر دستويفسكى إلى آنا بحبّ عميق:

"طيلة الستة وعشرين يوماً الأخيرة، كانت بى حياة. يا إلهي، هل تصل نهايتها اليوم؟"

فكبحت آنا ضحكتها، وقالت:

"يا إلهي، ليس الأمر هكذا".

مع ذلك لم يصدّق.

أهى لحظة فِراق للأبد؟ أنا المقدّر عليّ أن أعانى الخسائر الفظيعة فى الحياة. فمن يتذكّر هذا كلّه؟ قلبى يحنّ أن يسألها "هل تعطيننى وعدكِ علناً؟"

مع ذلك سألوّح فقط بالوداع فى نظرة صامتة.

وقفت آنا ترقُب تلك العربة حتى وصلت منحنى الطرف البعيد من الشارع.

ثم، حين سارت عائدة، كانت آنا تفكّر أيضاً فى تلك الأيام الستة والعشرين. فى صحبة كاتب كبير...

حين وصلت قرب البيت، ارتجّ عقلها برؤية شخص قادم نحوها من الاتّجاه المعاكس. كان العاشق الثاني، إيليتش. فمتى عاد إيليتش، الطالب الباحث؟

"جئتُ هنا راكضاً لأراكِ، يا آنا. حينما وصلتُ منزلكم، لم تكوني هناك. ولحسن الحظّ رأيتكِ هنا".

أذهله صمتها وحالة الجمود التي عليها.

"لماذا تتصرّفين بمثل هذا البرود؟ لماذا اصفرّ وجهكِ؟"

فهزّت رأسها نفياً.

قال إيليتش "وعدتُ بوظيفة. فلا حاجة بنا الآن أن نخشى كيف سنعيش. قرّرتُ كلّ شيء. فلا ضرورة لمدّ أمد الموضوع أكثر. ألستُ على حقّ؟"

فقالت آنا "ما؟ ماذا تقصد، يا إيليتش؟"

"أمر زواجنا".

"أوه، أهو هذا؟ لم أتّخذ فيه قراراً بعد".

"ماذا تقولين، يا آنا؟ لا أفهم. لم تتّخذي قراراً بعد؟ إذن اتّخذي قراركِ الآن".

"ألا ترى أنكَ تضغط عليّ بكلامكَ هكذا؟ فلم أَعِدكَ بشيء. هل وعَدتُ؟"

"أيّ وعد؟ أيّ وعد يُطلَب من الحبّ غير الحبّ؟"

"لا أعرف".

"ألا تعرفين؟ جئتُ راكضاً إليكِ، لأسمع منكِ هذا؟ سأخبركِ شيئاً. لم يعد عندي صبرٌ لأواصل الانتظار أكثر. كما أنه لا معنىً لمدّ أمد الموضوع أكثر".

"عليّ أن أفكّر في ذلك كلّه من جديد".

"ماذا هناك لتفكّري فيه؟ ماذا تقولين؟ ألم يعُد حبّي في قلبكِ؟"

"لا أعرف".

فبوغِتَ إيليتش.

"على هذا المستوى، قد تصرّحين إنكِ حتى لا تعرفينني. هذا غريبٌ، لا يُصدّق".

فسألته فى ضجر ولا مبالاة:

"هل تحبّنى إن قلتُ إنى أحبكَ، يا إيليتش؟ ما برهان صدقكَ؟"

كان فى حيرة حقاً.

قال:

"ماذا أقول إن طلبتِ منى برهاناً على صدقي؟ فحبكِ لا يحتاج برهاناً عليه".

عندئذٍ قالت بشكل مستقلّ:

"إذن آمن بذلك الحبّ. على الأقلّ حتى يبرهن ذلك الحبّ على زيفه".

وبقولها هذا، سارت آنا بسرعة مبتعدة.

وقف إيليتش هناك متحجّراً، دون أن يعرف له رأساً من ذَنَب.

كانت آنا تعانى لوعة عقلية خرساء. وضعية وتحديق إيليتش كانا يثيران الأسى. فالحبّ الذى يتحمّل الدم والدموع يدفق من الجروح. لقد عاد راكضاً إليّ، أول ما انتهى من بحثه، دون أن يذهب حتى لرؤية أبيه الذى سلّموه للمستشفى العسكريّ. كان إيليتش يحبها حباً جماً. بدأت ذكرى ذلك الحبّ تعذّبها بفكرة أنها ارتكبت فعلاً فظيعاً من الخيانة. وأحزنها أن تفكّر أن هذا اللقاء كان الأخير وأن الفراق راح للأبد.

دون أن تراها أمها أو أختها أو أخوها، دخلت إلى المنزل ورمت بنفسها على الفِراش. رقدت بوجهها لأسفل، تغطّى دموعاً صامتة.

من المنزل المغلق عند أعلى التلّ، واحد يرحل. ينزل السلالم الحجرية المفضية إلى عتمة الوادي، رأسه محنيٌّ، مثل ظلّ.

كان قلب آنا يبكى بصمت.

يا إلهي! يا إلهي! ماذا أفعل؟

بينما آنا راقدة هكذا تفكّر وتحزن، جرى دستويفسكى صاعداً فى لهفة. يتشبّث به قلق فظيع. سمعته يسأل "أين آنا؟"، من الباب نفسه. فهبّت من الفراش وانطلقت على عجل نحو واجهة المنزل. كان دستويفسكى واقفاً ذاهلاً بحسّ من الخسارة والأسى على مركبٍ تحطّم!

بمجرد رؤيته آنا، قال دستويفسكى بصوت كسير:

"آنا، خدعنى ستيلوفسكي".

فوثب عقلها:

"ماذا جرى؟"

"ذلك الوضيع ليس هناك. اختفى". كانت آلام خسرانه كلّ شىء فى النهاية تتوهّج فى صوته المتلعثم. "لا أحد يعرف أين راح".

كانت آنا تتلعثم أيضاً "ما العمل الآن؟ ماذا سيحصل لو فشلنا فى تسليمه الرواية قبل مساء اليوم؟"

"هذه خيانة صريحة. أنا متأكّد أنه قد ذهب عمداً فى مخبأ".

"ألا يمكن أن تودع الرواية فى مكتبه؟"

"أولئك الناس ليسوا مستعدّين لتسلّمها. فلم يعطهم تعليمات بذلك".

كانت حالة دستويفسكى عندئذٍ كمن أمسكت النار بقلبه.

أيضاً آنا قلقة: فماذا يفعلان الآن؟

لا مفرّ أمامهما.

كانت الساعة فعلاً بعد الثالثة والنصف.

أخيراً، نطقت آنا:

"لا تقلق. سنجد طريقة للخلاص".

غيّرت آنا ملبسها على عجلٍ، وخرجت مع دستويفسكى.

قالت آنا "عندى فكرة. هيا نستشر محامياً. فقد يقترح شيئاً".

هناك محامٍ، أحد أقرباء آنا الأبعدين. قدير. يحلّ ببساطة أية ورطة قانونية.

وصلا مكتب المحامي، وكان على وشك الرحيل إلى جهة بعيدة. مع ذلك، أخبرته آنا عن مشكلتهما. كان المحامى أيضاً على اطلاع بألاعيب ستيلوفسكى.

قال المحامي:

"هناك طريقة واحدة للحلّ. تسليم نسخة الرواية فى قاعة محكمة قبل الخامسة. وعليّ الباقي".

كانت الساعة فعلاً الرابعة والنصف حين قال ذلك المحامى.

فأسرع دستويفسكى وآنا إلى المحكمة فى عربة. كان الحصان المربوط فيها هيكلاً، والعربة عتيقةً، والحوذيّ عجوزاً لم يتزحزح حين استحثّاه على المضيّ. قال الرجل العجوز إن الحصان ليس سحرياً من "ألف ليلة وليلة".

كان عقلاهما يُسابقان العربة.

وعندما وصلا المحكمة، كان الوقت قد انتهى. فقد أُغلِقَت، ورحل الجميع.

الآن، ما الحلّ؟

كان مدمّراً.

لقد حصدت عبقرية الشرّ عند ستيلوفسكى ثمرتها. بطريقة بالغة المكر.

رأت آنا موظفاً يخرج من عتمة غرفة ضيقة. ذكّرها برسول الموت القادم من عهد سلف.

سارت آنا إليه تواً، وسألته النصيحة. ماذا يفعلان الآن؟

"لا تهتمى. فقط سلّمى الرواية فى مركز شرطة. أعطيها للضابط. وخذى منه إيصالاً بذلك. وفى حال رفعَ قضيةً، سنتصرّفُ فيها".

خشيت آنا عندئذٍ ألاّ يكون الضابط هناك، لو سارعا إلى مركز الشرطة.

قالت آنا "هيا بسرعة"، وهى ترفع بصرها إلى وجه دستويفسكى فقط لتراه مغطّى بتعبير غريب من الانفصال.

قال دستويفسكى دونما قلق:

"فلنمزّقها ونلقى بها فى الهواء. وليفعل ما يريد".

حين رأت تلك الحالة، شعرت بأسىً لا يُحتمل. فقد كان محطّماً تماماً. يبدو كأنه الواقف وحده فوق أعلى سطح من مركبٍ تحطّم.

قالت آنا "لنجرّب هذا، فهو الملاذ الأخير. ومركز الشرطة ليس بعيداً من هنا. لا يجب أن نُسلّم بسهولة من لؤم هذا الشخص؟"

حينما وصلا مركز الشرطة، كان الضابط لحسن الحظّ هناك.

قال دستويفسكى "آنا، بلّغيه أنتِ الحكاية. يصعُب عليّ التعامل مع هؤلاء الناس. ليس هذا فحسب، فإنى زهقت. كم يتحمّل المرء؟ فليأت الجشع وينهش قلبي، لو أراد".

دون انتظار جدالٍ معه، اقتربت آنا من الضابط بالرواية.

على الرغم من هيئته البغيضة، كان الضابط بالغ التعاطف. تفهّم الورطة الإنسانية.

قال:

"ذلك المضبوط. أين الشخص الذى كتب هذه الرواية؟ دستويفسكي؟"

كان دستويفسكى واقفاً مستنداً إلى عمود قريب.

قالت آنا "إنه محطّم للغاية".

حتى الضابط استطاع رؤية ذلك من وضعيته. لكن الضابط مع ذلك لديه شكّ باقٍ:

"ذلك المضبوط. فما صلتكِ أنتِ بدستويفسكى هذا؟"

وَمَضَ سَهمٌ من برقٍ على قلبها. فلم تتوقّع مثل هذا السؤال. "من أنا بالنسبة إلى دستويفسكي؟"

لم يكن ثمة وقت للتفكير، للتردّد والجدال. لحظة وقفت فيها على طرف شوكة.

قالت آنا "أنا زوجته".

حين خرجت آنا بالإيصال الذى أعطاها إياه الضابط نيابة عن تسلّم مخطوطة الرواية، نظر إليها دستويفسكى بكلّ ما تبقّت لديه من رغبات فى حياته. فكّر أنها لحظةٌ قدسية. لحظةٌ اللهُ شهيدٌ عليها. لحظةٌ رعاها الله. فاستسلم دستويفسكى إلى غمر هذه اللحظة من دون سيطرة، وعانق آنا بعنف وهما يقفان على قارعة الطريق. كان مثل روح بُعثت فى لحظةٍ قدسية من جحيم مأساة أو موت، فالتَقَت صِنوها على غُصنٍ من الأبدية.

هوامش الروائيّ

١) الجريمة والعقاب، ترجمة يوليوس كاتزر (دار رادوجا، موسكو، ١٩٨٥)، ص ٥٧٣ ـ ٥٧٤.

٢) الجريمة والعقاب، ص ١٧٦ ـ ١٧٧.

٣) الكتاب المقدّس (الطبعة الدولية الجديدة، نيويورك، ١٩٨٤)، ص ٥٨ ـ ٥٩. (سفر الخروج: ٢٤: ١٢ ـ ١٨)

٤) المقامر، ترجمة جيسى كولسن (دار بنجوين، لندن، ١٩٦٦)، ص ١٩.

٥) المصدر السابق، ص ٢٧.

٦) المصدر السابق، ص ٦٣.

٧) المصدر السابق، ص ٦٣ ـ ٦٤.

٨) الفقراء، ترجمة أولجا شارتس (دار رادوجا، موسكو، ١٩٨٨)، ص ٣٨.

٩) المقامر، ص ٩٨ ـ ٩٩.

١٠) الكتاب المقدس، ص ٣٥٦ (سفر أيوب، ١٠: ١٥ ـ ٢٢)

١١) المقامر، ص ١١٤ ـ ١١٥.

١٢) المصدر السابق، ص ١٢٠.

١٣) المصدر السابق، ص ١٢٠ ـ ١٢١.

١٤) المصدر السابق، ص ١٢١.

١٥) الكتاب المقدس، ص ٧٣١ (لوقا، ٨: ٢٦ ـ ٣٧)

١٦) ألكسندر بوشكين: أعمال مختارة (دار رادوجا، موسكو، ١٩٨٥)، ص ٣١.

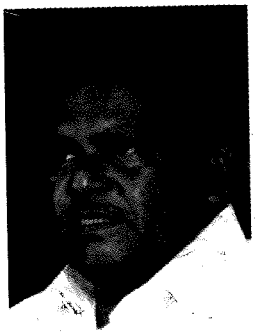

المؤلف فى سطور

ولد بيرومبادافام سرى دهاران فى قرية بيرومبادافام فى حيّ ايدوكى بولاية كيرلا فى جنوب الهند، عام ١٩٣٨، وهو أكبر صنّاع الرواية فى اللغة الماليبارية، وقد نال جائزة أكاديمية ساهيتا كيرلا (وهو اليوم رئيس لهذه الأكاديمية)، وجائزة النقاد وجائزة فيلم "فير" السينمائية، علاوة على جوائز أخرى. وقد صدرت له خمس وعشرون رواية، منها: "أشتبادي"، كما كتب سيناريوهات لأفلام ناجحة فنياً.

كما أنه مدير أول جمعية تعاونية للكتّاب على مستوى العالم فى اهيتا برافارتاكا، كما أنه عضو هيئة محلّفين فى الولاية، لاختيار جوائز على المستويَين المحليّ والعالميّ، للأعمال الأدبية والسينمائية. قام بتأليف ما يزيد على ثلاثين كتاباً، فى الرواية والقصة القصيرة والسيناريو. ويعتبر كثير من نقاد الأدب هذه الرواية "مثل ترنيمة" دُرّته الفنية.

وبعد نشر هذه الرواية "مثل ترنيمة" بعامَين وأكثر، قام الروائيّ ج. م. كوتزي، الحائز على جائزة نوبل عام ٢٠٠٣، بنشر روايته "سيد بطرسبرج"، مصوّراً فيها، حياة دستويفسكي، لكن تعامل هذه الرواية الهندية مع شخصية دستويفسكى المتوتّرة أفضل فنياً.

- وقد اعتمدتُ رسم أسماء الشخوص لدى دستويفسكى على الترجمة البليغة التى قام بها "سامى الدروبي" لأعماله الكاملة فى ستينيات القرن العشرين. علاوة على الشكر الخاص للمثقف الهنديّ، سيد قدسي، الذى عرّفنى بالرواية والروائيّ، وذلّل بعض الكلمات المكتوبة باللغة الماليبارية فى النسخة الإنجليزية.

المترجم

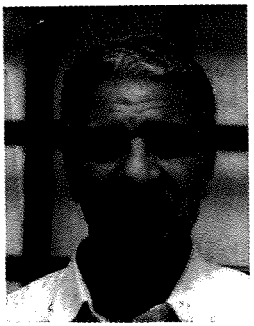

المترجم
محمد عيد إبراهيم

شاعر ومترجم مصرى، مواليد ١٩٥٥، القاهرة.. خريج إعلام جامعة القاهرة، صحافة ١٩٧٨.. من جيل السبعينيات الشعريّ، أسس مع رفاقه الشعراء سلسلة «أصوات» الشعرية، ومجلة «الكتابة السوداء».. أنشأ سلسلة «آفاق الترجمة» بهيئة قصور الثقافة وعمل مديراً لها، وأنشأ سلسلة «نقوش» للفن التشكيلى «مع الفنان عمر جهان» بهيئة قصور الثقافة وعمل مديراً لها، كما عمل مديراً تنفيذياً فى «المشروع القومى للترجمة» بالمجلس الأعلى للثقافة.. تنشر أشعاره وترجماته ومقالاته بمعظم الصحف والمجلات والدوريات المصرية والعربية.. ترجمت أشعاره إلى أكثر من لغة.. يدُعى إلى مهرجانات الشعر العربية والدولية.. وأعماله، دواوين وترجمات، منشورة فى شتّى دور النشر العربية.

من دواوينه: فحم التماثيل، الملاك الأحمر، خضراء الله، السندباد الكافر، عيد النسّاج.. من ترجماته الشعرية: قصائد حب «آن سكستون»، نهايات «ديريك والكوت»، الهايكو ورحلة حج بوذية يابانية، ديوان الشعر السويدى، جمهورية الوعى «مختارات شعرية»، النمر الآخر «أشعار بورخيس».

من ترجماته الروائية: جاز «تونى موريسون»، فالس الوداع «كونديرا»، فنانة الجسد «دون ديليلو»، جوستين «الماركيز دو ساد»، بنت مولانا «مورل مفروي»، جنوب الحدود «موراكامي».. من ترجماته النقدية: الخلاص بالحرية، الضوء المشرقى، نبوءات «دافنشي»، مقدمة لقصيدة النثر، دورة ما بعد الحداثة «إيهاب حسن».

مثل ترنيمة
قناع هنديّ لحياة دستويفسكى

الرواية

نشرت هذه الرواية "مثل ترنيمة" عام ١٩٩٣، وهى مبنية على حياة الروائى الروسيّ الأعظم فيدور دستويفسكي، فى حالة معينة، حين استحوذت عليه كتابة روايته الفذة "المقامر"، مع تطور علاقته بآنا، مما أفضى إلى زواجهما. وقد أسّست هذه الرواية تاريخاً جديداً للنشر فى اللغة الماليبارية (إحدى اللغات الهندية التى يتكلم بها عشرات الملايين فى ولاية "كيرلا" جنوب الهند)، حيث صدرت منها اثنتان وثلاثون طبعة حتى اليوم، منذ أن نشرت لأول مرة، وقد بيع منها ما يزيد عن ١١٢,٠٠٠ ألف نسخة حتى بداية عام ٢٠٠٧, وتُعدّ بهذا أعلى الروايات توزيعاً على مدار الهند كلّها. وقد حصدت الجائزة الأسمى، فيلار، كما نالت مديح كثير من النقاد والدارسين والشخصيات الأدبية البارزة داخل الهند وخارجها.

القناع

كان دستويفسكى مديناً على الدوام، نتيجة إدمانه المقامرة، وقد اعتاد أن يقترض مالاً بشكل منتظم من ستيلوفسكى. قدّر المحتال ستيلوفسكى أن ثروة دستويفسكى الحقيقية فى أنه كاتب/ ظاهرة، فأرغمه على توقيع عقد حصيلته أنه لو أخفق دستويفسكى فى تسليمه مخطوط رواية تتألف من ١٦٠ صفحة قبل ١ نوفمبر ١٨٦٦، فستؤول حقوق ما يكتبه بصورة آلية إلى ستيلوفسكى خلال السنوات التسع التاليات، دون أن يدفع واقعياً إلى دستويفسكى كوبكاً واحداً.

لم يتبق لدى دستويفسكى إلا شهر، وفى غمرة يأسه ينشدُ مساعدةً من كاتبة اختزال، وكانت آنا هى القدَر ممثّلاً فى شخص. هنالك بدأ يخرجُ الوجهُ الانفعاليّ، فقد ضمّ المسكن المشترك شخصيتين قويتين. وتوفّق آنا أخيراً إلى حفز عناصر دستويفسكى العاصفة، فيكمل الرواية فى الميعاد. لكن ستيلوفسكى يكون ساعتها قد اختفى، فى اليوم الأخير من العقد!

فى الصراع الناشئ بين الحياة والموت، تُفضى آنا لضابط الشرطة أنها زوجة دستويفسكي، لتتصرّف نيابة عن الكاتب. تقرر، بمعنى آخر، وتحت وطأة من عاطفتها غير المحدودة، أن تقبل الزواج من دستويفسكي، وهو مَن فى عمر أبيها.

إن تصوير دستويفسكى نوبات المقامرة، وحبه المستميت لزوجته مارى وعشيقته باولين، كما جاء فى رواية "المقامر"، والتى ظلّت تُكتب وتتطوّر فى مجرى سردها، يقلّ نظيره ضمن عالم الأدب.

كتاب الهلال القادم :

عتبات الشوق

من مشاهدات الرحالة المغاربة فى الإسكندرية والقاهرة

شعيب حليفي

يصدر : ٥ فبراير ٢٠١٥

سلسلة روايات الهلال تقدم:

لا تنس الهدهد

فؤاد حجازى

تصدر: ١٥ فبراير ٢٠١٥

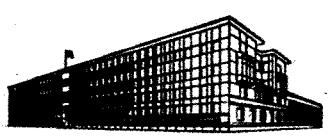

الطباعة: مؤسسة دار الهلال - القاهرة

روايات مصرية للجيب

إنها بالفعل شيء ملائكي رائع

تذوق متعة القراءة مع أحلى القصص، وأجمل الروايات

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10 ، 16 ش كامل صدقي الفجالة ،
4 ش الإسحاقي بمنشية البكري روكسي مصر الجديدة - القاهرة - ت : 22586197 - 24677371 - 24677138
فاكس - 202/24677188 ج م ع ، 4 ش بدوي محرم بك - الاسكندرية ت : 03/4970840 - 03/4970850